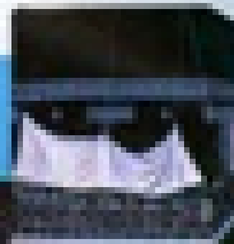
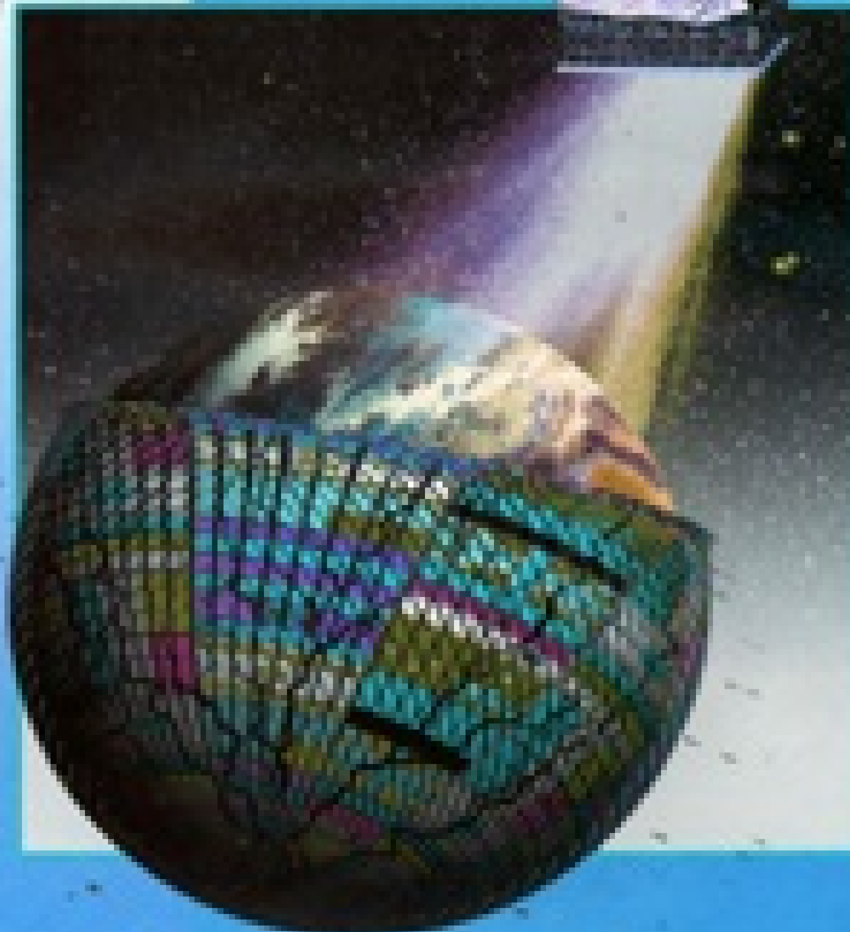
ميقات الحج

11





■ الطواف من الطابق الأول ■ فقه التظليل في الحج ■ ومسجداً ضراراً

■ مكة المكرمة.. عاصمة الثقافة الإسلامية

■ فلسفة الحج في مدرسة أهل البيت(ع) ■ من معالم التراث.. رسالتان وقصيدة

بسم الله الرحمن الرحیم

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵

میقات الحج المجلد۱۱ ----- ۶

اشارة ----- ۶

کلمة التحریر ----- ۶

الحجّ فی احادیث الامام الخمینی ----- ۱۳

الحجّ فی احادیث الامام الخامنئی ----- ۱۵

تحفة الکرام ----- ۱۷

معالم الحجّ وآفاقه فی مدرسة اهل البیت علیهم السلام ----- ۵۰

المدینة المنورة فضلها وقداسة ارضها ----- ۶۳

تحدید قرن المنازل ----- ۷۶

الفور والتراخی فی فریضة الحج ----- ۱۰۶

الحج فی الادب العربی مختارات شعریة ----- ۱۲۹

وأزواجُهُ أُمهاتُهم امُّ سلمة ----- ۱۳۸

الحج عبر الدیانات والامم (۲) ----- ۱۶۸

من رحلات الحجّ الإیرانیّة (۳) مقتطفات من یومیات مکة لکریمة فرهاد میرزا ----- ۲۰۲

زعماءُ مکّة ----- ۲۳۰

مهمّات مشهبوهة فی الدیار المقدسّة (۴) ----- ۲۵۸

معجم ما کتب فی الحجّ والزیارة والمعالم المشرفة فی الحجاز (۸) ----- ۲۹۴

تعریف مرکز ----- ۳۲۹

ميقات الحج المجلد١١

اشارة

عنوان و نام پديدآور : ميقات الحج[پيايند: مجله]

مشخصات نشر : تهران: منظمة الحج و الزيارة، ۱۴۱۷ ق. - = ۱۳۷۵ -

فاصله انتشار : شش ماه يكبار

يادداشت : عربى

فهرست‌نويسى براساس سال۳ شماره۵ سال۱۴۱۷ق.

يادداشت : اين نشريه در بيروت نيز منتشر مى‌شود

يادداشت : المديرالمسؤول: محمد محمدى‌رى‌شهرى

رئيس‌التحرير: على قاضى‌عسكر

يادداشت : كتابنامه

ترجمه عنوان : Mighat al - haj

موضوع : حج -- نشريات ادوارى

شناسه افزوده : محمدى رى‌شهرى، محمد، ۱۳۲۵ -، مدير مسئول

Muhammadi Reyshahri, Muhammad

قاضى عسكر، سيدعلى، ۱۳۲۵ - ، سردبير

شناسه افزوده : سازمان حج و زيارت

رده بندى كنگره : BP۱۸۸/۸

رده بندى د... : ۲۹۷/۳۵۷۰۵

ص:۱

كلمة التحرير

ص:۲

ص:۳

ص:۴۰

ص: ۵

العدد الحادیة عشر

کلمة التحریر

میقاتُ الحجّ- إذ تطوی عامها الخامس- تتمنّی أن تکون أدقّ بیاناً وأکثر استیعاباً ورؤًی لکلّ مایتعلّق بفریضة الحجّ المبارکة فی أیّامها المعلومات وفی مفاصلها المتمیزة مناسک وأحکاماً وآداباً وتأریخاً ومفاهیم عبادیة واجتماعیة وسیاسیة واقتصادیة.. تتجلّی فیها کلّ المعانی الجمیلة وکلّ القیم المبارکة.. فی عبودیةصادقة للّهتعالی، وفی انقیاد تام له والتزام أکید بتعالیمه وأحکامه، وفی رصّصفوفهم عبر وحدة متماسکة ضدّ أعدائهم ومخططاتهم، وفی ثورتهم ضدّ الطغاة والمستبدین، وفی ثروتهم وبما تمدّهم به من قوة واستقلال.. تتجسّد جمیعها عبر مؤتمر ملیونیٍّ سنویٍّ وَفَدت إلیه النفوس وهوت إلیه القلوب من کلّ فجٍّ عمیق تلبیةً لذلکَ الأذان القدیم الجدید وأَذِّن فی الناس بالحجِّ یأتوک...

وقد شاءت السماء ألّایقع هذا التجمّع المثیر العظیم المهیب إلّامرّة واحدة فی کلّعام لیشهدوا منافع لهم و یذکر وا اسمَ اللّه فی أیّام معلومات .. .. لیقضوا تفثهم ولیوفوا نذورهم علی أقدس بقعة عرفتها الدُّنیا وألفها الناس أمّ القری مکّة

ص: ۶

المکرمهٔ، حیث .. أوّل بیتٍ وُضعَ للناس للّذی ببکهٔ مبارکاً وهدًی للعالمین.

وداخل أطهر بیت عنـدَ بیتک المحرم، وفی أعظم مسـجد المسـجد الحرام، لیطوفوا بالبیت العتیق متراصـین کأنهم نفس واحـدهٔ وبـدن واحد وقطعهٔ واحدهٔ تتحرک أشواطاً متواصلهٔ متلاحمهٔ..

راجیـهً وهی تعیش سـنتها السادسـهٔ أن تکون أعمق بحثاً لکلّ مایخصّ البلاد الطیبـهٔ الحجاز الحبیب مکـهٔ والمدینـهٔ ومافیهما ومابینهما وماحولهما مواقیت ومواقع وآثاراً وشخصـیات کُتِبَ لها أن تحیا فی کنف ذلک البیت، فآمنت وطهرت وتألقت إیماناً وجهاداً وتضحیهً وعلماً.. فخلفت أرقی الذکریات وأجملها عبراً ومواعظ ودروساً تنتفع بها الأجیال.

وأخیراً ولیس آخراً تصبو مجلتکـم هـذه- فی عامهـا الجدیـد- إلی أن تکـون أوسع وأکـثر انفتاحـاً علی کـلّ المثقفین علمـاء وکتّـاباً ومؤلفین وقراءً لعلها تحظی بقبولهم واهتمامهم کتابـهً ونقـداً وإرشاداً وتثبیتاً، مترقبهً أقلاماً ناضـجهٔ وأفکاراً بکراً وآراءً رصـینهٔ وثقافات جدیـدهٔ متنوعـهٔ تمـدّها بمـا خفی علیهـا طیلـهٔ هـذه السـنین، وتکشف لها کلّ ماعجزت عن سبر أغواره من معالم بلـد الوحی والرسالهٔ والنبوّهٔ، ومماانطوت علیه هذه الفریضهٔ المقدسهٔ ..

ولاـ نجافی الحقیقـهٔ إذا قلنا: إنّ ماقـدمته هـذه المجلّـهٔ المختصّ هٔ- وللاختصاص کما تعلمون ثمنٌ باهظ وجهـدٌ مضاعف- والوحیـدهٔ- حسب اطلاعنا فی المکتبـهٔ الإسـلامیهٔ- من مادهٔ قیمـهٔ فی نواحٍ متنوعهٔ ومحاور متعددهٔ فقهاً وتفسـیراً وتحقیقاً وتأریخاً وترجمهٔ.. أفادت کثیراً، وجعلتها موضع تقدیر، ولیس أدلّ علی ذلک من إشاداتٍ وصلتنا من الاخوهٔ کتابهً ومشافههً. ولا یسعنا إلّاأن نقول: إنّها جهودکم الکریمهٔ التی تعانقت وتضافرت مع جهود متواضعهٔ اخری، فمدّتنا بمزید من الثقهٔ، وإن کُنّا نطمع لتراکم هذه الجهود استکمالًا للفائدهٔ واقتراباً من الهدف، الذی رسمته وهی فی أوّل عملها، وتحملته مسؤولیهً کبیرهً. وإن أخفقت، أو لم یسعفها الحظ فی

ص: ۷

طرح موارد أكثر نفعاً وفائدة في عمرها المنصرم، فإنّها تمدّ يديها لكلّ من يهمّه هذا الجهد ليسعفه بما تجود به يداه وهو كريم .. فخزين هذه الفريضة بأبوابها ومعالمها لم تستوفِ مجلّتكم هذه شيئاً منه، وهو ينبوع لا ينضب ورصيد لا ينفد. فعظمته وسعته وشموله من عظمة وسعة وشمول أعظم فريضة شرعتها السماء ورعتها وأرستها جهود تواصلت لأنبياء كبار بدءاً بإبراهيم وإسماعيل... وانتهاءً بخاتمهم محمد بن عبد اللّهصلى الله عليه و آله وبأهل بيته عليهم السلام وأصحابه والتابعين لهم ومن سار بهداهم.

إنّ منافع ومشاكل وأسئلة كثيرة تنتظر الإجابة عنها في كلّ الميادين، وعلى جميع الأصعدة خاصة الفقهية منها محلّ ابتلاء الملايين من المسلمين. ومنبر المجلة- مع احترامه للمنابر الاخرى- وانطلاقاً من أمانة الاختصاص التي تحملها، باب مفتوح وكتاب ميسور لتلك الحلول وهذه الإجابات ..

من هنا تجدّد المجلة دعوتها إلى دراسة علمية واعية مستوعبة لحيثيات هذه الفريضة المقدسة وفلسفتها ومفاهيمها وثمارها وآثارها على مجمل حياتنا؛ لنؤديها ولنعيشها كما خططت لها السماء وأرادتها ذات خير عميم وعطاء دائم ومنافع كثيرة ..

ص: ۸

الحج فى أحاديث الإمام الخمينى- قدس سره-

الحجّ فى احاديث الامام الخمينى

الحجّ فى أحاديث الإمام الخمينى

- قدس سره-

أقدم التهانى والتبريكات الخالصة لجميع المسلمين فى العالم بمناسبة حلول عيد الأضحى المبارك. هذا العيد الذى يذكّر الناس الواعين بمذبح الفداء الإبراهيمى، هذا المذبح الذى قدّم درس الفداء والجهاد فى سبيل اللّه تعالى لأبناء آدم وأصفياء وأولياء اللّه، هذا العمل بعمق أبعاده التوحيدية والسياسية لا يستطيع إدراكه غير الأنبياء العظام والأولياء الكرام وخاصّة عباد اللّه. هذا أبوالتوحيد ومحطّم أصنام العالم، علّمنا والبشريّة جمعاء أنّ التضحية فى سبيل اللّه وقبل أن تكون ذات بُعد توحيدى و عبادى، تمتلك أبعاداً سياسية وقيماً إجتماعية، علمنا وجميع الناس كيف نقدّم أعزّ ثمرات حياتنا فى سبيل اللّه، لذا فإنى اناشدكم: ضحّوا بأنفسكم وأعزّائكم وأقيموا دين اللّه والعدل الإلهى.

لقد عرفنا نحن ذرية آدم أنّ مكّة ومنى أماكن لنشر التوحيد ونفى الشرك، الذى من مصاديقه التعلّق بالنفس والأعزاء.

لقد تعلّم أبناء آدم من هذهِ الأماكن الجهاد فى سبيل اللّه فعليكم أن تعلموا

ص: ۹

العالم قیمة الفداء والتضحیة، وقولوا له، إنّه فی سبیل اللّه وإقامة العدل الإلهی وقطع أیادی المشرکین فی هذا الزمان، یجب أن یخلد الحق بتمامه ببذل أیّ شیء حتی ولو کان مثل إسماعیل. إنّ إبراهیم وإسماعیل وولده العزیز سیّد الأنبیاء محمّد المصطفیصلی الله علیه و آله محطمو الأصنام ومعلمو البشریّة أنّه یجب تحطیم کل الأصنام والأوثان کیفما تکون. وأنّ الکعبة، أمّ القری علی امتدادها وسعتها وحتّی آخر نقطة من الأرض، وحتّی آخر یوم فی العالم یجب أن تطهّر من دنس الأصنام، أیصنم کان وکیفما کان أکان هیاکل أو شمساً أو قمراً أو حیواناً أو إنساناً أوصنماً وهل هناک أسوأ وأخطر من الطواغیت علی امتداد التاریخ، من زمن آدمصفیّ اللّه حتّی ابراهیم خلیل اللّه، إلی محمّد حبیب اللّهصلی الله علیه و آله حتّی آخر الزمان الذی یظهر فیه إمامنا المهدی الموعود لیحطم آخر الأصنام ویطلق نداء التوحید من الکعبة. أو لیست القوی الکبری فی زماننا أصناماً کبیرة سیطرت علی العالم ودعته لعبادتها وفرضت نفسها علیه بالقوّة والتزویر؟!... إنّ الکعبة المعظّمة هی المرکز الأوحد لتحطیم هذه الأصنام وتطهیر هذهِ البقاع من کلّ أنواعها.. قال اللّه تعالی:... وطهّر بیتی للطائفین والقائمین والرکّع السجود.

ص: ۱۰

الحجّ فی أحادیث الإمام الخامنئی- مد ظله العالی-

الحجّ فی احادیث الامام الخامنئی

الحجّ فی أحادیث الإمام الخامنئی

- مد ظله العالی-

معرفة عظمة اللّه ورحمته فی الحجّ تعنی التأمّل فی رفع قواعد هذا البیت الذی هو بیت اللّه وهو فی الوقت نفسه بیت الناس أیضاً. إنّ أوّل بیتٍ وُضِعَ للنّاس لَلَّذی ببکّة مبارکاً وهدًی للعالمین (۱) إنّه البقعة التی یتّجه إلیها الإنسان الخاشع المتبتّل، وإنّه أیضاً محلّ تجلّی عظمة الدین الإلهی. خلیط من العظمة والصفاء والبساطة، ذکری أوّل نداء للتوحید ومحطّ لتحقّق وحدة الکلمة، یحمل آثار أقدم المجاهدین فیصدر الإسلام الذین جاهدوا فیه وهم غرباء، وهاجروا منه وهم مظلومون، وعادوا إلیه وهم فاتحون أعزاء، وطهّروه من رجس جاهلیة العرب، ثمّ هو المعطّر بشذی المتهجدین ومحلّ سجود العابدین، ومهوی قلوب الشاکرین، إنّ مطلع فجر الإسلام فی البلاد ومشرق طلوع المهدی الموعود فی الخاتمة، هو ملجأ القلوب المضطربة ومحطّ آمال النفوس المتبرّمة.

تشریع فریضة الحجّ وترتیب مناسکه یحمل دلائل العظمة ویحمل آیات

۱- ۱ آل عمران: ۹۶.

ص: ۱۱

الرحمة أيضاً. بهذه المعرفة تستيقظ القلوب وبمشاهدة الكعبة المشرّفة والمسجد الحرام بوعى يعود التائهون إلى الصراط المستقيم..

معرفة العدو حصيلة كلّ هذه الألوان من «المعرفة» ومكملة للنفوس.

وبدونها يكون قلب المسلم وذهنه بدون أسوار ضد الغزاة والخونة.

إنّ أعمال الحجّ، ومنها رمى الجمار تجسيد للمعرفة ومقارعة العدو. والنبى الأكرمصلى الله عليه و آله رفع الأذان فى الحج، وتليت آيات البراءة فى موسم الحجّ بلسان أمير المؤمنين على بن أبىطالب عليه السلام. ولو أنّ الأمّة الإسلامية تخلصت يوماً من وجود جحافل الأعداء وأمكن حدوث ذلك فإنّ البراءة ستفقد مبرّرها ولكن مع وجود الأعداء وعدوانهم الحالى فإنّ الغفلة عن العدوّ وإهمال البراءة منه خطأ كبير وخسارة فادحة..

الهوامش:

ص: ۱۲

تحفة الكرام

تحفة الكرام

تحفة الكرام

تأليف: العلّامة السيّد محمّد مهدى بحر العلوم

تقديم: محمّد رضا الأنصارى

«تحفة الكرام فى تأريخ مكّة والمسجد الحرام» رسالة نافعة، وهى مما أتحفنا بها يراع أحد أعلام المسلمين وأئمة الدين فى القرن الثانى عشر للهجرة،صاحب الحسب النبوى الشريف، والنّسب العلوى المنيف، ألا وهو العلّامة السيد محمد مهدى بن مرتضى بن محمد البروجردى الطباطبائى. ولد رضوان اللَّه تعالى عليه سنة ۱۱۵۵ ه (وفى رواية سنة ۱۱۵۴ ه) بمدينة كربلاء، عند مشهد السبط الشهيد الحسين بن على عليه السلام، فى اسرة علميّة دينية، فوالده السيد مرتضى كان يعدُّ من أعلام كربلاء وأفاضل اسرته، وللمترجم له علاقات مصاهرة ونسب باسرة العلامة المجلسى رحمه الله (المتوفى عام ۱۱۱۰ ه) وكان يعبّر عن المجلسى الأوّل الشيخ محمد تقى بالجدِّ وعن المجلسى الثانى الشيخ محمد باقر بن محمد تقى بالخال. تلّقى المترجم له الدروس أوّلًا فى مسقط رأسه عن والده وعن الشيخ يوسف البحرانى (صاحب «الحدائق الناضرة» المتوفى ۱۱۸۴ ه) ثمّ هاجر إلى النجف الأشرف، وحضر دروس أعلامها وهم الشيخ مهدى بن محمد الفتونى العاملى (ت ۱۱۸۳ ه)،

ص: ۱۳

والشیخ محمد تقی الدورقی (ت/ ۱۱۸۶ ه)، والشیخ محمد باقر هزارجریبی (ت/ ۱۲۰۵ ه)، ثمّ عاد إلی کربلاء وتتلمذ علی کبیر علماء الشیعهٔ آنذاک وهو الآغا محمد باقر الشهیر بالوحید البهبهانی (ت/ ۱۲۰۵ ه) فلازمه مدّهٔ وصار من أبرز تلامذته وموضع اعتماده، وحینما عجز الوحید عن التدریس لکبر سنه أوصی تلمیذه النبیه بأن یعود إلی النجف ویؤسس حوزهٔ دراسیهٔ لتربیهٔ الطلاب، وفعلًا عاد السید إلی النجف الأشرف فحلّق حوله جماعهٔ استفادوا من نمیر علمه، وصاروا أعلاماً ومنارات للعلم والتقوی اهتدی بهم الناس، وکان منهم السید حیدر العاملی، الشیخ جعفر بن الشیخ خضر الجناجی (صاحب کشف الغطاء) السید جواد العاملی (صاحب مفتاح الکرامهٔ)، الشیخ أبو علی الحائری (صاحب منتهی المقال فی علم الرجال) والمولی أحمد النراقی، والسید محمد الطباطبائی المجاهد، السید محمد الخوانساری، الشیخ أسد اللَّه التستری (صاحب المقابس)، المیرزا محمد النیسابوری الأخباری، حجهٔ الإسلام السید محمد الشفتی الأصفهانی، الشیخ محمد علی الأعسم، السید دلدار علی الهندی وآخرون.

سافر السید سنهٔ ۱۱۸۶ ه إلی خراسان فسکن ۸ سنوات بجوار مشهد الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام، فأفاد واستفاد، وخلال هذه الفترهٔ حضر عند المیرزا مهدی الشهیدی الخراسانی ودرس عنده الفلسفهٔ الإسلامیهٔ، ولمواهبه العلمیّهٔ ونبوغه لقبه شیخه الخراسانی بلقب (بحر العلوم) فصار یعرف بعده، واشتهرت اسرته بهذا اللقب.

توجه بحر العلوم سنهٔ ۱۱۹۲ هصوب الدیار المقدسهٔ لأداء فریضهٔ الحجّ، فمکث فی مکّهٔ (زادها اللَّه تشریفاً وتعظیماً) سنتین ودرّس خلالها الفقه علی المذاهب السنّیهٔ الأربعهٔ فی المسجد الحرام، ولعلّ هذه الرسالهٔ من ثمرات تلک السفرهٔ، کما تنسب له فکرهٔ بناء المآذن الأربع فی أطراف الحرم؛ لتسهیل طواف الطائفین حول البیت.

ص: ۱۴

عـاد بحر العلوم إلى النجف الأشـرف، وتصـدّى زعامـة الإماميـة، فصـار مرجعهـا الأـوّل، ومفتيها الأكبر وقـد أسـدى خلال فترة زعامته خدمات جليلة للطائفة المحقّة وللدين الإسـلامى الحنيف ذكرها المترجمون لسـيرته. وقد مدحه كلّ من تصدى لترجمة حياته وسـيرته من المعاصـرين له ومن يليهم، ويكفى للدلالـة على علو مقـامه ماذكرهصـاحب (المواهب السـنية فى شـرح الـدّرة الغرويـة) فى ترجمة السـيد حيث يقول: «كـان ركنـاً من أركان هـذه الطائفـة وعمادها، ومن أورع نسّاكها وعبّادها، وهو بحر العلوم المؤيّـد بتأييـدات الحىّ القيّوم، محيى مدارس الرسوم، لسان المتأخرين، كاشف أسـرار المتقدمين، متمّم القوانين العقلية، مهذّب القواعد والفنون النقليّة، علّامة العلمـاء الأعلاـم، فخر فقهـاء الإسـلام، وهو الحبر العلّـام، والبحر القمقام، والأسـد الضـرغام، مفتى الفرق، الفاروق بالحقّ، حامى بيضـة المذهب والدين، ماحى آثار المفسدين بترويج مراسم أجداده الطاهرين، نور الهداية فى الظُّلَم ..».

توفى السـيد رحمه اللَّه فى السابعة والخمسـين من عمره الشريف فى شهر رجب من سنة ۱۲۱۲ ه ودُفن فى مقبرة كان قد أعدّها لنفسـه فى حياته فى الزاوية الشـمالية الغربية من مسـجد الشـيخ الطوسـى رحمه الله فى النجف الأشرف بجوار مرقد أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام وعلى مسافة أمتار من قبر شيخ الطائفة الشيخ محمد بن الحسن الطوسى (المتوفى ۴۶۰ ه) رحمه اللَّه.

مؤلفاته:

كان سـيدنا المترجم له على عظمته فى العلم والتحقيق، قليل التأليف لعدة امور: لانشغاله بالتدريس والزعامة الدينية، ولكثرة أسفاره فى سبيل أداء رسالته الإسـلامية، ولشـدة احتياطه ودقّـة مسـلكه، وبالرغم من هذا وذاك فقد احتفظ التأريخ العلمى له بيسـير من المؤلفات هى:

۱- كتاب المصابيح فى العبادات والمعاملات فى الفقه، وقد أكثر النقل عنه

ص: ۱۵

الفقهاء والمحققون منذ عصره.

۲- الدّرة النجفيّة: وهی منظومة فی بابی الطهارة والصلاة من الفقه يتجاوز عدد أبياتها الألفين.

۳- مشكاة الهداية: وهی منثور الدرة النجفيّة، ولم يبرز منها إلّاكتاب الطهارة.

۴- الفوائد الرجالية فی علم الرجال مطبوع فی ۴ مجلدات.

۵- ۲۳- مجموعة رسائل فی مواضيع مختلفة من الفقه والاصول والحديث والكلام والأدب والشعر وغيرها.

۲۴- تحفة الكرام فی تأريخ مكّة والمسجد الحرام. وهو هذا الذی نحنُ بين يديه حيث استعرض فيه تأريخ المشاعر المقدسة بدءاً بالكعبة الشريفة، حيث أسهب فی تأريخ بنائها منذ هبوط آدم عليه السلام وحتی عصر الرسالة المحمدية‌صلی الله عليه و آله مروراً ببناء إبراهيم الخليل عليه السلام ومن بعده، ومايتعلق بها من الأركان والحِجر، والحَجر الأسود، والباب، والملتزم، والميزاب، والمستجار، والكسوة، والحطيم، وغيرها، فالمسجد الحرام، والمطاف، وزمزم، والأبواب، والمآذن، والمسعی، ومقام إبراهيم، والحرم المكّی، ومدينة مكّة، وما بها من المواقع الدينية الأثرية كمولد النبيّ‌صلی الله عليه و آله وبيت خديجة، ومولد السيدة فاطمة الزهراء، والحجون، وشعب أبی‌طالب عليه السلام وغيرها.

وقد أطال البحث عن كلّ واحدٍ من هذه المشاعر المقدسة والمواقع المباركة، فاستعرض أقوال المؤرخين وأصحاب السير والحديث، فوافق بعضهم وناقش البعض الآخر وأبرز تهافت أقوالهم وفقاً للمنطق التأريخی الصحيح عنده، وهكذا قدّم مجموعة نافعة لمن يحب الوقوف علی تأريخ تلك البقعة الشريفة، ومامرّ بها من تطورات خلال عشرات القرون، فشكر اللّه سعيه وأجزل له الثواب.

استفدنا فی تصحيح هذه الرسالة وإبرازها للملإ العلمی من نسختين:

الاولی: نسخة مكتبة مدرسة الفيضية بمدينة قم المقدسة، وهی برقم ۱۹۸۲

ص: ۱۶

بقلم نسخی فی ۵۵ ورقهٔ، مجهولهٔ التأریخ، وعلیصفحتها الاولی عدّهٔ تملکات منها باسم السید علی الطباطبائی یقول فیه: (تصنیف جدّنا السید محمد مهدی الطباطبائی، ولده السید علی الطباطبائی) وهو علی بن محمد رضا الطباطبائی آلبحر العلوم (۱۲۲۴– ۱۲۹۸ ه) ویعدّ حفید المصنف ومن أبرز فقهاء هذه الاسرهٔ الکریمهٔ، ومؤلف کتاب (البرهان القاطع فی شرح المختصر النافع) وقد حصلنا علی مصوّرهٔ منها منصدیقنا الفاضل السید محمد علی بحر العلوم فشکراً له.

الثانیهٔ: نسخهٔ من مکتبهٔ آل کاشف الغطاء فی النجف الأشرف، وهی نسخهٔ حدیثهٔ الکتابهٔ بقلم نسخی فی ۴۴ ورقهٔ، ویبدو أنّ النسخهٔ بخطّ العلّامهٔ السید محمدصادق بحر العلوم (۱۳۱۵– ۱۳۹۹ ه) وکان رحمه اللَّه یمتلک مکتبهٔ مخطوطهٔ نفیسهٔ قد جمع فیها الأعلاق، وکان قد استنسخ عشرات المخطوطات النادرهٔ لنفسه بخطه وأودعها مکتبته، ونسختنا من تلک المجموعهٔ المستنسخهٔ بخطه وجاء فی نهایهٔ هذه النسخهٔ:

(هذا آخر ما وُجد بخط المرحوم المبرور، المستقر فی دار الرحمهٔ والسرور، العالم الربانی، والحبر الصمدانی، آیهٔ اللَّه فی العالمین، السید السند، والرکن المعتمد، التقی النقی الألمعی اللوذعی، السید مهدی الطباطبائی الملقّب ببحر العلوم، أعلی اللَّه درجته فی الجنان، وألبسه ثوب المغفرهٔ والرضوان- وقد حرّر وسطّر امتثالًا لأمر العالم العلّامهٔ، والفاضل الحبر الفهامهٔ، الکریم ابن الکریم ابن الکریم، والعالم ابن العالم ابن العالم، الذی فضائله لا تعدُّ، وفواضله لا تُحصی، جناب الشیخ عباس نجل الأجل الأکرم الشیخ علی، نجل شیخنا الأعظم الأکبر الشیخ جعفر النجفی- طاب ثراه- وقد وقع الفراغ منه یوم الأحد السادس من شهر اللَّه الأصبّ رجب المرجّب من سنهٔ ۱۲۹۵ ه وأسأل اللَّه العفو والغفران والحمد للَّهأولًا وآخراً).

وقد حصلنا علی مصورهٔ من هذه النسخهٔ من الأقراص الکمبیوتریهٔ لمخطوطات النجف المشتهر باسم (الذخائر) شکر اللَّه مساعی القائمین بهذا الجهد

ص: ۱۷

وجزاهم عن الإسلام خيراً.

مصادر المقدمة:

مقدمة رجال بحر العلوم: الجزء الأوّل، طبعة النجف الأشرف.

أعيان الشيعة ۱۰: ۱۶۰- ۱۵۹

روضات الجنّات ۷: ۲۰۴

مكارم الآثار ۲: ۲۱۶

الكنى والألقاب ۳: ۶۲

ريحانة الأدب ۱: ۲۳۴

الأعلام للزركلى ۷: ۱۱۳

تنقيح المقال ۱: ۱۵۶ و ۳: ۲۶۱

جنة المأوى: ۲۳۶

دانشنامه جهان اسلام ۶: ۹۵۸

ص: ۱۸

صور من النسخ الخطّية

ص: ۱۹

بسم اللَّه الرحمن الرحيم الحمد للَّه، والصلاة على محمد وآله. اللّهم بك أستعين، وبأصفيائك إليك أتوسل وأتشفّع

الكعبة الشريفة

قال الشيخ قطب الدين الحنفى النهروانى، ثم المكى المتوفى سنة ۹۹۰ فى تاريخه؛ تاريخ مكّة المشرفّة، الذى سمّاه ب «الاعلام بأعلام بيت اللَّه الحرام»، وعمله للسلطان مراد (۱) بن السلطان سليم العثمانى، فى الباب الثانى من الكتاب المذكور.

قال قاضى القضاة، السيد تقى الدين محمد بن احمد بن على المكى الفاسى فى كتابه «شفاء الغرام»:

«لا ـ شك أن الكعبة المعظمة بنيت مرات، وقد اختلف فى عدد بنائها، ويتحصلُ من مجموع ما قيل فى ذلك انها بنيت عشر مرات، وهى بناء الملائكة، وبناء آدم عليه السلام، وبناء اولاده وبناء الخليل ابراهيم عليه السلام، وبناء العمالقة، وبناء جرهم، وبناء قصى بن كلاب (جدّ النبيصلى الله عليه و آله)، وبناء قريش (قبل بعث النبيصلى الله عليه و آله وعمره الشريف يومئذ خمس وعشرون سنة) وبناء عبداللَّه بن الزبير بن العوام الأسدى، وآخرها بناء الحجاج بن يوسف الثقفى». (۲) وفى إطلاق العبارة أنّه بناء الكعبة تجوز، فإنّ بعضها لم يستوعبه البناء، كالبناء الآخر وهو بناء الحجّاج، فإنه إنّما هدّم جانب الميزاب فقط وأعاده، وأبقى

---

۱ – ۱ هو السلطان مراد بن السلطان سليم بن السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن السلطانمحمّد بن السلطان مراد بن السلطان محمّد بن السلطان يلدرم بايزيد بن السلطان مراد اورخان بن السلطان عثمان. هكذا نسبه القُطبى فى تاريخه [منه قدّس سره].

۲– ۲ شفاء الغرام ۱: ۹۱.

ص: ۲۰

الجوانب الثلاث، وهى جهة الباب، وجهة المستجار (الذى هو مقابل الباب) وجهة الصفا (المقابل لجهة الميزاب) فإنها باقية على بناء ابن الزبير.

[البِناء الأوّل]

وقال القطبى: أمّا البناء الأوّل فذكره الإمام أبو الوليد احمد بن عبداللَّه بن أحمد ابن الوليد فى تاريخه قال: «حدّثنا على بن مسلم العجلى عن ابيه، حدّثنا القاسم بن عبدالرحمن الأنصارى، حدّثنا الإمام محمد الباقر، بن الإمام زين العابدين، على ابن الحسين، بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى اللَّه عنهم، قال: «كنت مع أبى على بن الحسين عليهما السلام بمكّة، فبينا هو يطوف وأنا وراءه إذ جاءه رجل طويل فوضع يده على ظهر أبى، فالتفت أبى إليه.

فقال الرجل: السلام عليك يا ابن بنت رسول اللَّهصلى الله عليه و آله، إنى أريد أن أسالك.

فرد عليه السلام، وسكت أبى، وأنا والرجل خلفه حتى فرغ من اسبوعه، فدخل الحجر، فقام تحت الميزاب، فصلّى ركعتى اسبوعه، ثم استوى قاعداً، فالتفت الىّ فجلست إلى جانبه.

فقال: يا محمد، اين السائل؟

فأومأت إلى الرجل، فجاء فجلس بين يدى أبى.

فقال له: عمّ تسأل؟

قال: إنى أسالك عن بدء هذا الطواف بهذا البيت.

فقال له أبى: من أين انت؟

قال: من أهل الشام.

قال: أين سكنت؟ (۱) قال: بيت المقدس.

قال: قرأت الكتابين، يعنى التوراة والإنجيل؟

قال: نعم.

۱- ۱ فى النسخة الثانية: أينَ سكنك.

ص: ۲۱

قال له أبی: یا أخا العرب، احفظ عنّی، ولا تحفظ عنی إلّاحقاً. أمّا بدء هذا الطواف فإنّ اللَّه تعالی قال للملائکة: إنی جاعلٌ فی الأرضِ خلیفة، (۱) فقالت الملائکة أی رب أتجعل فیها من یفسد فیها ویسفک الدماء ویتحاسدون ویتباغضون ویتباغون اجعل ذلک الخلیفة (۲) منّا، فنحن لا نفسد فیها ولا نسفک الدماء، ولا نتحاسد، ولا نتباغی، ونحن نسبح بحمدک ونعظمک ولا نغضبک؟

فقال اللَّه تعالی: إنی اعلم ما لا تعلمون. (۳)قال: فظنت (۴)الملائکة أنّ ما قالوا رد علی ربهم، وأنّه قد غضب علیهم من قولهم، فلاذوا بالعرش، ورفعوا ایدیهم یتضرّعون ویبکون إشفاقاً من غضبه، فطافوا بالعرش ثلاث ساعات، فنظر اللَّه تعالی إلیهم، ونزلت الرَّحمة علیهم، ووضع اللَّه سبحانه تحت العرش بیتاً هو البیت المعمور علی اربع اساطین من زبرجد تغشاهنَّ یاقوتة حمراء.

وقال للملائکة: طوفوا بهذا البیت.

فطافت الملائکة بهذا البیت، وصار أهون علیهم من العرش.

ثم إنّ اللَّه تبارک وتعالی بعث ملائکة وقال لهم: ابنوا لی بیتاً فی الأرض بمثاله وقدره، وأمر اللَّه تعالی مَن فی الأرض مِن خلقه أن یطوفوا بهذا البیت، کما یطوف أهل السَّماء بالبیت المعمور.

فقال الرجل:صدقت یا ابن بنت رسول اللَّه، هکذا کان» انتهی.

قلت: هذا الحدیث الشریف یدل علی أنّ بناء الملائکة للکعبة (۵)الشریفة کان قبل خلق الأرض، ولنا أحادیث دالة علی أنّ الکعبة خُلِقَت قبل الأرض باربعین سنة.

فی روایة قال الإمام أبو عبداللَّه محمد بن اسحاق بن العباس الفاکهی المکّی فی اوائل «تاریخ مکة»:

حدّثنی عبداللَّه بن أبی سلمة، قال حدثنا الواقدی، حدّثنا ابن جریر (۶)، عن

۱- ۱ سورة البقرة: ۳۰.

۲- ۲ فی النسخة الثانیة: الخِلقة.

۳- ۳ سورة البقرة: ۳۵.

۴- ۴ فی النسخة الثانیة: فقالت.

۵- ۵ فی النسخة الثانیة: الکعبة.

۶- ۶ فی النسخة الثانیة: جریج.

ص: ۲۲

بُسر، عن عاصم الثقفی، عن سعید بن المسیب:

قال قال علی بن أبی طالب علیه السلام: «خلق اللَّه تعالی البیت قبل الأرض والسماوات بأربعین سنهٔ وکان غُشاءً علی الماء».

قال الفاکهی: وحدثنی عبداللَّه بن أبی سلمهٔ قال: حدّثنا النضر بن شمیل، قال: حدّثنا ابن معشر، عن سعید ونافع مولی آل الزبیر، عن أبی هریرهٔ، «قال:

الکعبهٔ خُلِقَت قبل الأرض بألفی عام.

قیل: وکیف خلقت قبل الأرض وهی مِنَ الأرض؟

فقال: لأنه کان علیها ملکان یسبحان باللیل والنهار الفی سنهٔ، فلمّا أراد اللَّه أن یخلق الأرض دحاها مِن تحتها فجعلها فی وسط الأرضین».

قال: وحدّثنی عبداللَّه بن أبی سلمهٔ، قال: حدثنا الواقدی، قال: حدّثنا أحمد ابن یحیی بن طلحهٔ، أنه سمع مجاهداً یقول:

«إنّ قواعد البیت خلقت قبل الأرض بألفی سنهٔ، بسطت الأرضُ مِن تحته».

أقول: وظهر مما رویناه أن موضع البیت الشریف خلق قبل الأرض، لا نفس بناء البیت، فإنّه أول مَن بنته الملائکهٔ بحمد اللَّه تعالی کما سقناه واللَّه سبحانه وتعالی أعلم.

الثانی: بناء آدم علیه السلام.

وقد ذکره الإمام أبو الولید الأزرقی قال: حدّثنی جدّی، عن سعید بن سالم، عن طلحهٔ بن عمرو الحضرمی، قال عطاء بن أبی رباح (بفتح الراء والموحّدَهٔ، بعدها ألف ثم حاءٌ مهملهٔ)، عن ابن عباسٍ رضی اللَّه عنهما قال: «لمّا اهبط اللَّهُ آدم إلی الأرض من الجَّنهٔ، قال یا ربّ إنّی لا أسمع أصوات الملائکهٔ!

قال: خطیئتک (۱) یا آدم، ولکن اذهب فابنِ لی بیتاً، فطف به واذکرنی حوله، کنحوما رأیتَ الملائکهٔ تصنع حول عرشی.

قال: فأقبل آدم یتخطّی الأرض فطویت له، ولم یضع قدمه فی شیء من

۱- ۱ فی النسختین: بخطیئتک.

ص: ۲۳

الأرض إلّاصار عمراناً وبركهٔ، حتى انتهى إلى مكّهٔ فبنى البيت الحرام، وأنّ جبرئيل ضـرب بجناحه الصـخرهٔ فكشف عن اسٍّ ثابتٍ على الارض السابعهٔ، فقذفت فيه الملائكهٔ من الصخر مالا يطيق [حمل] الصخرهٔ منها ثلاثون رجلًا، (۱) وأنه بناه مِن خمسهٔ أجبل، من لبنان، وطور زيتـا، وطور سينا، والجوديّ، وحِراء، حتّى استوى على وجه الأـرض». (۲)وهـذا يـدل على أنّ آدم عليه السـلام إنما بنى أساس الكعبهٔ حتى ساوى وجه الأرض، ولعلّ ذلك بعد دثور ما بنته الملائكهٔ بأمر اللَّه تعالى أولًا.

ثُمّ انزل اللَّه تعالى البيت المعمور لآدم عليه السلام ليستأنس به، فوضعه على اساس الكعبهٔ.

ويـدل على ذلك ما رواه أبو الوليـد الأزرقى فى تاريخه قال: حدّثنى أبى، عن جدى، قال حدّثنا سالم، عن عثمان بن ساج، قال: بلغنى أنّ عمر بن الخطاب قال لكعب، يا كعب أخبرنى عن البيت الحرام.

قال كعب: أنزل اللَّه من السماء ياقوته مجّوفةً مع آدم عليه السلام، فقال: يا آدم إنّ هذا بيتى انزلته معك، يطاف حَوله كما يُطافُ حول عرشـى، ويصلّى حوله كما يُصلى حول عرشـى، ونزلت معه الملائكـهٔ فرفعوا قواعده من حجارهٔ، ثم وضع البيت عليه، وكان آدم عليه السـلام يطوف حوله كما يطاف حول العرش، ويصلّى عنده كما يُصلّى عند العرش، ولما أغرق اللَّه قوم نوح رفعه إلى السـماء وبقيت قواعده». (۳)وقال الأزرقى أيضاً: حـدّثنى أبى، قال حـدّثنى مُحمـد بن يحيى، عن عبـدالعزيز ابن عمران، عن عمر بن ابى معروف، عن عبداللَّه بن أبى زياد، أنّه قال:

«لمّـا أهبط اللَّه آدم عليه السـلام من الجنـهٔ، قـال يا آدم ابن لى بيتاً بحـذاء بيتى الـذى فى السـماء تتعبّـد فيه أنت وولـدك، كما تتعبد ملائكتى حول عرشـى فهبطت عليه الملائكـهٔ، فحفر حتى بلغ الأـرض السابعـهٔ، فقـذفت فيه الملائكـهٔ حتّى اشـرف على وجه الأرض، وهبط آدم عليه السلام بياقوتةٍ حمراء مجوّفهٔ لها أربعهٔ أركان بيض، فوضعها

۱- ۱ ذكر ابن ظهيرهٔ بعـد قوله ثلاـثون رجلًـا: قال ابن عباس «فكان أوّل من أسّـس البيت وصـلى فيه وطاف به آدم، ولم يزل كـذلك حتى بعث اللَّه الطوفان فدرس مواضع البيت. ثم قال: اقول هذا ما يشهد بأن بناء الملائكهٔ وبناء آدم عليه السلام بناء واحد» انتهى.

۲- ۲ أخبار مكهٔ ۱: ۳۶.

۳- ۳ أخبار مكهٔ ۱: ۴۰.

ص: ۲۴

علی الأساس، فلم تزل الیّاقوتهٔ کذلک حتّی کان زمن الغرق، فرفعها اللَّه تعالی». (۱) وقال الازرقی أیضاً: حدّثنی محمد بن یحیی، عن ابراهیم بن محمد، عن أبی یحیی، عن أبی الملیح، أنّه قال: «کان أبو هریرهٔ یقول: حَجَّ آدم علیه السلام فقضی المناسک، فلمّا حَجَّ قال یا ربّ إنّ لکلّ عاملٍ أجراً.

قال اللَّه تعالی: أمّا أنت یا آدم فقد غفرت لک، وامّا ذریتک فمن جاء منهم هذا البیت فباءَ بذنبه غفرت له.

فاستقبلته الملائکهٔ، فقالوا: برَّ حجک، یا آدم قد حججنا هذا البیت قبلک بالفی عام.

قال: وما کنتم تقولون حوله؟

قالوا: کنا نقول: (سبحان اللَّه، والحمد للَّه، ولا إله إلّااللَّه، واللَّه اکبر).

قال: فکان آدم علیه السلام إذا طاف یقول هذه الکلمات، وکان طواف آدم علیه السلام سبعهٔ أسابیع باللیل، وخمسهٔ بالنهار». (۲) قال الأزرقی أیضاً: حدّثنی محمد بن یحیی، قال حدّثنی هشام بن عبدالرحمن، عن سلیمان المخزومی، عن عبداللَّه بن أبی سلیمان (مولی بنی مخزوم) أنه قال: «طاف آدم علیه السلام سبعاً بالبیت، ثمصلّی تجاه باب الکعبهٔ رکعتین، ثم أتی المُلتَزم وقال: إنّک تعلم سریرتی وعلانیتی فاقبل معذرتی، وتعلمُ ما فی نفسی وما عندی فاغفر لی ذنوبی، وتعلم حاجتی فاعطنی سؤلی، اللهم إنّی أسالک إیماناً تباشر به قلبی، ویقیناًصادقاً حتّی أعلم أنه لا یصیبنی إلّاما کتبت لی، والرضا بما قضیت لی.

قال: فأوحی اللَّه تعالی إلیه، یا آدم قد دعوتنی بدعوات، فاستجبتُ لک، ولن یدعونی بها احد مِن ولدِک إلّاکشفت همومه وغمومه، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلتُ الغنی بین عینیه وتجرتُ له مِن وراء کل تاجرٍ، وأتته الدنیا وهی راغمهٔ وإن کان لا یریدها.

قال: فمنذُ طاف آدمُ علیه السلام کانت سُنَّهٔ الطّواف». (۳)

۱- ۱ أخبار مکهٔ ۱: ۴۳.

۲- ۲ أخبار مکهٔ ۱: ۴۴.

۳- ۳ أخبار مکهٔ ۱: ۴۴.

ص: ۲۵

الثالث: بناء أولاد آدم عليه السلام

روى الازرقى بسنده إلى وَهب بن مُنبّه قال: لمّا رُفِعت الخيمة التى عزى اللّه بها آدم عليه السلام مِن حلية الجنة حين وُضِعَت له بمكة فى موضع البيت، ومات آدم عليه السلام فبنوا [فبنى] بنو آدم عليه السلام من بعده مكانها بيتاً بالطّين والحجارة، فلم يزل معموراً يعمرونه هم ومن بعدهم حتّى كان زمن نوح عليه السلام، فنسفه الغرق، وغيّر مكانه حتّى بوّأ [بوِّئ] لإبراهيم عليه السلام». (۱) قال الحافظ أبو القاسم السّهيلى فى الفصل الذى عقده لبنيان الكعبة:

«وكان بناؤها الأول حين بنى شيثُ بن آدم عليه السلام» انتهى.

ولعلّ مراد السُّهيلى بالأوليّة بالنسبة إلى بناء البشر لا الملائكة، وان بناء آدم عليه السلام هو الأساس إلى ان ساوى وجه الأرض، وانزل اللّه عليه من الجنة البيت المعمور، فوضعه على ذلك الأساس.

والمراد بالخيمة المشار إليها فى خبر وهب بن منبه، هو البيت المعمور، أو لعلها خيمة غير البيت المرفوع، لعلّها رفعت بعد وفاة آدم عليه السلام، وابقى البيتُ المعمور إلى أنرُفِع زمان الطوفان، وفى ذلك من ارتكاب المجاز مما يصحح (۲) هذه الروايات المتباينة ظواهرها، واللّه أعلم.

حكى السَّنجارى قال: «ذكر الفاسى أنّ أول مَن بوّبَ الكعبة أنوش بن شيث ابن آدم عليه السلام، وأنه ذكر عن الفاكهى أنّ أوّل مَن بوّبها وجعل لها غلقاً جُرهُم، واللّه اعلم» (۳) انتهى.

الرابع: بناء الخليل عليه السلام

قال السَّيدُ الإمام الفاسى:

«أمّا بناءُ الخليل عليه السلام فهو ثابت بالكتاب والسنة الشريفة، وهو أوّل مَن بنى البيت على ما ذكره الفاكهى عن على بن أبى طالب عليه السلام». (۴) وجزم الشيخ عماد الدين بن كثير فى تفسيره قال: «لم يَرِد عن معصوم أنّ

۱- ۱ أخبار مكة ۱: ۵۱.

۲- ۲ فى النسخة الثانية: مما يصح به.

۳- ۳ شفاء الغرام ۱: ۹۰ الباب السابع.

۴- ۴ شفاء الغرام ۱: ۹۱ أخبار عمارة الكعبة المعظمة.

ص: ۲۶

البیت کان بیتاً قبل الخلیل علیه السلام (۱) فهو ینکر ما قدمناه من الآثار.

وأما علی ما قدّمناه من الآثار، فبناء ابراهیم علیه السلام أوّل اسمی بالنسبهٔ إلی مَن بنی بعده لا أوّل حقیقی واللّه أعلم.

قال ابنُ ظهیر [ابن ظهیرهٔ]: «وجعل الخلیل علیه السلام طول البیت فی السماء تسعهٔ أذرع، وعرضه فی الأرض اثنین وثلاثین ذراعاً من الرُّکن الأسود إلی الرکن الشامی (الذی فیه الحِجر)، وجعل عرض ما بین الرکن الشامی إلی الرکن الغربی اثنین وعشرین ذراعاً، وجعل طول ظهرها من الرکن الغربی إلی الرکن الیمانی احداً وثلاثین ذراعاً، وجعل عرض شقها الیمانی من الرکن الأسود إلی الرکن الیمانی عشرین ذراعاً، فلذلک سُمیت کعبهٔ، لأنها علی خِلقهٔ الکعب، وکذلک بنیان أساس آدم علیه السلام وجعل بابها بالأرض غیر مبوّب حتّی کان تُبع الحمیری هو الذی جعل لها باباً وغلقاً فارسیاً وجعل الخلیل الحِجرَ (بالکسر) إلی جنب البیت عریشاً مِن أراکٍ تقتحمه فکان زرباً لغنم اسماعیل، وحفر فی بطن الکعبهٔ جُبّاً علی یمین الداخل یکون خزانهٔ للبیت، وهو الذی نصب علیه عمرو بن اللّحی هُبَل (صنم قریش) ثم عدا علی ذلک الجُبّ قوم مِن جُرهم فسرقوا ما فیه، فبعث اللّه الحیّهَ لحراسته، وهی التی اختطفها العقاب» (۲)نقل باختصاره.

وروی الأزرقی فی تاریخه عن ابن اسحاق: «أنّ ابراهیم علیه السلام لما بنی البیتَ جعل طوله فی السَّماء تسعهٔ أذرع، وجعل طوله فی الأرض مِن قِبَل وجه البیت الشریف مِنَ الحجر الأسود إلی الرکن الیمانی اثنین وثلاثین ذراعاً، وجعل عرضه فی الأرض من قبل المیزاب من الرکن الشامی إلی الرکن الغربی الذی یسمی الآن الرکن العراقی اثنین وعشرین ذراعاً، وجعل طوله فی الأرض من جانب ظهر البیت الشریف من الرکن الغربی المذکور إلی الرکن الیمانی احدی وثلاثین ذراعاً، وجعل عرضه فی الأرض من الرکن الیمانی إلی الحجر الأسود عشرین ذراعاً، وجعل الباب لاصقاً بالأرض، غیر مرتفع عنها، ولا مبوباً، وجعل لها تبع الحمیری باباً وغَلقاً بعد ذلک،

۱- ۱ شفاء الغرام ۱: ۹۲.

۲- ۲ شفاء الغرام ۱: ۹۱.

ص: ۲۷

وجعل ابراهيم عليه السـلام فى بطن البيت على يمين من دخله حفرهٔ لتكون خزانهٔ للبيت، يوضع فيها ما يُهدى إلى البيت، فكان إبراهيم عليه السـلام يبنى وإسـماعيل عليه السـلام ينقل له الأحجار على عاتقه، فلما ارتفع البُنيان قرّب له المقام، فكان يقوم عليه ويبنى ويحوّله له اسماعيل عليه السلام ينقل له فى نواحى البيت، حتّى انتهى إلى موضع الحجر الأسود.

فقـال ابراهيم عليه السـلام لإسـماعيل عليه السـلام: يا اسـماعيل إئتنى بحجر أضـعه هنا يكون علماً للناس يبتـدئون منه الطواف. فـذهب اسماعيل فى طلبه، فجاء جبرئيل عليه السلام إلى سيّدنا ابراهيم عليه السلام بالحجر الأسود، وكان اللَّه عزّوجلّ استودعه جبل أبى قُبيس حين كان طوفان نوحٍ عليه السـلام، فوضـعه جبرئيل عليه السلام فى مكانه، وبنى عليه ابراهيم عليه السلام وهو حينئذٍ يتلألأ نوراً، فأضاء بنوره شرقاً وغرباً وشاماً ويمناً إلى منتهى أنصاب الحرم فى كلّ ناحيةٍ وإنّما سوّدته الجاهليّهٔ وأرجاسها.

قال: ولم يكن ابراهيم عليه السـلام سَقَّف البيت ولا بناه بمَدَرٍ، وإنّما رصّه رصّاً». (۱) قال: وذكر سنده إلى عبداللَّه بن عمر [عمرو] «أنّ جبرئيل عليه السـلام نزل بالحجر [من الجنّهٔ] على ابراهيم عليه السلام من الجنهٔ وأنّه وضعه حيثُ رأيتم، وانتم لا تزالون بخير ما دام بين ظهرانيكم فتمسّـكوا به مـا اسـتطعتُم، فـإنّه يوشك أن يجىء جبرئيل فيرجع به مِن‌حيثُ جاء به» انتهى. (۲)وقال السيّدُ الإمام تقىّ الدين الفاسـى: روينـا عن قتادهٔ قال: «ذَكَر لنا أنّ الخليل عليه السـلام بنى البيت مِن خمسـهٔ اجبل: مِن طور سـينا، وطور زيتا، ولبنان، والجودى وحراء.

قيل وذكر لنا أنّ قواعده مِن حراء.

قال: ويُروى أنّ الخليل أسّـس البيت من ستهٔ أجبل من أبى قبيس، ومن الطّور، ومِنَ القُدس، ومن ورقان، ومن رضوى، ومن أحد». (۳)
قال الازرقى: قال أبى، وحدّثنى جدّى، عن سعيد بن سالم، عن ابن جُريج

۱- ۱ أخبار مكهٔ ۱: ۶۶- ۶۵.

۲- ۲ أخبار مكهٔ ۱: ۶۳.

۳- ۳ شفاء الغرام ۱: ۹۱ الباب السابع.

ص: ۲۸

[جريج]، عن مُجاهد أنّه قال: «كان موضع الكعبة قد خفى ودرس زمن الطُّوفان فيما بين نوحٍ وابراهيم عليهما السلام.

قال: وكان موضعه أكمة حمراء [مدرة] لا تعلوها السيول غير أنّ الناس يعلمون أنّ موضع البيت هنالك، مِن غير تعيين محلّه، وكان يأتيه المظلوم والمتعوّذ مِن أقطار الأرض، ويدعو عنده المكروب، وما دعى [دعا] عنده أحد إلّااستجيب له، وكان الناس يحجّون إلى موضع البيت، حتّى بوّأ اللَّه سبحانه وتعالى [مكانه] لإبراهيم عليه السلام لما أراد عمارة بيته، واظهار دينه وشعائره [شرائعه]، فلم يزل منذ أهبط اللَّه سبحانه وتعالى آدم عليه السلام الى الأرض معظماً محترماً عند الأمم والملل». (۱)وعن ابن عمر: «كان الأنبياء يحجّونه ولا يعلمون مكانه، حتّى بوأه اللَّه لخليله واعلمه مكانه».

وروى أنّ هوداً وصالحاً، ومَن آمن بهما، حجّوا البيت وهو كذلك.

ونقل العلّامة السيوطى فى بعض كتبه: «أن جميع الأنبياء حجّوا البيت إلّا هوداً وصالحاً، اشتغلا بأمر قومهما فلم يحجّا، وأنّ آدم لمّا حجَّ حَلَق جبرئيل عليه السلام رأسه بياقوتة من الجنّة، فلما بوّأ اللَّه تعالى لخليله مكان البيت أقبل من الشَّام وله يومئذ مائة سنة، ولاسماعيل ستّ وثلاثون سنة، وأرسل اللَّه معه السّكينة والصرد والمَلَك دليلًا، حتى تبوّأ البيت الحرام.

قال: والسّكينة لها رأسٌ كرأس الهرّة وجناحان.

وفى رواية: كأنها غمامة أو ضبابة تغشى الأرض كالدخان، فى وسطها كهيئة الرأس يتكلم، وكانت بمقدار البيت.

فلمّا انتهى الخليلُ إلى مكّة وقعت فى موضع البيت، ونادت يا ابراهيم ابنِ عليَّ مقدار ظِلّى، لا يزيد ولا ينقص. (۲) وفى رواية: أنّها تطوقت بالأساس الأول كأنّها حيّة.

وفى اخرى أنّها لم تزل راكدة تُظِّلُ ابراهيم وتهديه مكان القواعد، فلّما رفع

۱- ۱ أخبار مكة ۱: ۵۴- ۵۳.

۲- ۲ أخبار مكة ۱: ۶۱- ۶۰.

ص: ٢٩

القواعد قدر قامةٍ انكشفت.

قال: وذكر أنّ الخليل لما حفر القواعد ابرز عن رَبَض كأمثال خلف الإبل، لا يُحرك الصَّخرةَ إلّاثلاثون رجلًا، وكان يبنى كلَّ يومٍ سافاً وهو المُدماك فى عرفنا الآن.

قال ابن عباس: أما واللَّه ما بنياه بقصةٍ (وهى النورة وشبهها) ولا مَدر، ولا كان معهما ما يسقِّفانه، ولكن أعلماه وطافا به.

وفى رواية رخَّماهُ رَخماً.

قال: وروى أنّ ذا القرنين قَدِم مكّة، والخليل وابنه يبنيان.

فقال: ما هذا؟ فقالا: نحن عبدان امرنا بالبناء.

فطلب منهما البرهان على ذلك، فشهد بذلك خمسة أكبش.

ثم قال: قال السهيلى: بناه الخليل مِن خمسة أجبل، كانت الملائكة تأتيه بالحجارة منها وهى طور سينا، وطور زيتا (وهما بالشام) والجودى (وهو بالجزيرة) ولبنان وحِراء (هما بالحرم).

قال المجدد: فى كون لبنان بالحرم نظر، إذ لا يعرف ذلك.

ثم ذكر القطب قصة مهاجرة الخليل بعد أن نجّاه اللَّه مِن نار نمرود، وولادة اسماعيل واسحاق، وإسكان الخليل واسماعيل وأمّه هاجر الحرم، وظهور ماء زمزم، وغير ذلك.

ثم قال، رجوعاً إلى القصة قالوا: ومرت رفقة مِن جُرهُم يريدون الشام، فرأوا طيراً يحوم على جبل أبى قبيس.

فقالوا: إنّ هذا الطير يحوم على ماء، فتبعوه فأشرفوا على بئر زمزم.

فقالوا لهاجر: إن شئت نزلنا معك وأنسناكِ والماءُ مائكِ، نشرب منه؟

فأذنت لهم، فنزلوا معها، وهم أول سكان مكة.

وقال بعد ذلك: قال الأزرقى: ثم ولد لإسماعيل مِن زوجته بنت مضاض بن

ص: ۳۰

عمرو الجُرهمى اثنا عشـر رجلًا، منهم ثابت بن اسـماعيل، وقيدار بن اسـماعيل، وكان عمر اسماعيل مائة وثلاثين عاماً، ومات ودفن فى الحِجر مع امّه، فولى البيت بعده ثابت بن اسماعيل، ونشر اللَّه العرب من ثابت وقيدار، فكثروا ونموا، ثم توفى ثابت، ثم ولى البيت بعده جـدّه لأـمّه مضـاض بن عمرو الجُرهمى، وضمَّ بنى ثـابت بن اسـماعيل وصـار ملكـاً عليهم وعلى جُرهم، فنزلوا بقعيقعان بأعالى مكـة، وكـانوا اصـحاب سـلاح كثير، وتقعقع فيهم، وصارت العمالقـة- وكانوا نازلين باسـفل مكـة- الى رجل منهم ولّوه ملكاً عليهم، يقال له السُّميـدع، ونزلوا بأجياد وكانوا أصـحاب خيلٍ وغيره، وكان الأمرُ بمكّة لمضاض بن عمرو، ورث السـميدع إلى أن حدث بينهم البغى، واقتتلوا فقُتِل السُّميدع، وتمّ الأمر لمضاض بن عمرو.

قـال: ثمّ نشـر اللَّه بنى اسـماعيل وخئولتهم وجُرهم، وكـانت جُرهم ولاة البيت لا ينازعهم بنو اسـماعيل لقرابتهم، فلمّا ضاقت مكة انتشـروا فى الأرض، فلا يأتون قوماً ولا ينزلون بلداً إلّاأظهرهم اللَّه عليهم بدينهم، وهو يومئذٍ دينُ ابراهيم، حتّى ملأوا البلاد، ونفوا عنها العماليق، وكانت ولاة مكة، وكانوا ضيعوا حرمها، واستحلوها، واستخفوا بها، فاخرجهم اللَّه مِن أرض الحرم.

ثمّ إنّ جُرهماً اسـتخفت بأمر البيت والحرم، فاعتزلهم مضاض بن عمرو وخرج ببنى اسـماعيل من مكـة بجانب خزاعة، فاخرجت خزاعة جُرهماً من البلاد، ووليت امر مكـة، وصاروا اهلها، فسألهم بنو اسـماعيل السـكنى معهم فأذنوا لهم، وسألهم فى ذلك مضاض بن عمرو فأبت عليه خزاعة، وصارت خزاعة حجبة بيت اللَّه، وولاة أمر مكة، وفيهم بنو اسماعيل لا يشاركونهم فى شيء ولا يطلبونه، الى أن كبر شأن قُصـى بن كلاب بن مرّة، واسـتولى على حجابـة البيت وأمر مكـة». (۱) وقـد نقلنا هـذا الفصل من القطبى، من ابتـداء قصة جُرهم باختصار لا يَخِلُّ بشيء مما نحن بصدده.

۱- ۱ أخبار مكة ۱: ۸۴- ۸۳.

ص: ۳۱

وقصی تصغیراً اسمه زید، وإنّما لقب قصیاً لأنه ابعد عن أهله ووطنه مع أمّه، لمّا تُوفی أبوه کلاب، وتزوَّجت أمّه بربیعة بن حزام، ورحل بها إلی الشّام، فلما کبر وقع بینه وبین آل ربیعة شرٌّ فعیّرُوه بالغُربة، فرجع إلی قومه بمکة وعلیها خزاعة، وکبیرهم خلیل بن خبیسة الخزاعی وهذه [هذا] البیت الشریف، فتزوّج ابنته، وهلک وصار مفتاح البیت لأبی غیشان، وکان سکران فأعوز الخمر، فباع مفتاح البیت بزِقّ مِن خَمر! فاشتراه منه قُصی، وفی الأمثال «أخسرُصفقةً مِن أبی غیشان» اختصر.

الخامس والسادس: بناء العمالقة وجُرهم:

ذکر الأزرقی ذلک، وذکر بسنده إلی سیدنا أمیر المؤمنین علی بن أبیطالب علیه السلام أنّه قال فی خبر بناء جرهم للکعبة: ثم انهدم فبنته العمالقة، فبنته قبیلة مِن جرهم. (۱) روی الفاکهی بسنده إلی سیدنا علی بن أبی طالب علیه السلام، وروی السید التقی الفاسی قال السَّنجاری وذکر الفاکهی ما یقتضی أنّ بناء جُرهم قبل العمالقة، وفی هذا نظر، فإنّ العمالقة قبل جُرهم ولم یل الیها بعد جُرهم إلّاخُزاعة، (۲) انتهی.

قلت: هذا یقتضی أنّ جُرهماً بَنَتِ البیت الشریف قبل العمالقة، والخبر الأول یقتضی أنّ العمالقة بنته قبل جُرهم، وبه جَزَم المحبُّ الطبری.

وروی المسعودی فی «مروج الذهب»:

«إنّ الذی بنی الکعبة مِن جُرهم، هو الحارث بن مضاض الأصغر، وأنّه زاد فی بناء البیت، وردمه کما کان علی بناء ابراهیم علیه السلام، واللَّه اعلم بحقیقة الحال». (۳) وروی الأزرقی شیئاً من خبر العمالقة یقتضی سبقهم علی جُرهم فانه روی بسنده إلی سیدنا عبداللَّه بن عباس رضی اللَّه عنهما أنّه قال: «کان علیه حی یقال لهم العمالیق، کانوا فی عِزٍّ وثروة، وکانت لهم خیل وإبل وماشیة ترعی حول مکة، وکانت العضاه ملتَّفة، والأرض مبتلة، وکانوا فی عیش رخیٍّ، فبغوا فی الأرض،

۱- ۱ أخبار مکة ۱: ۶۲- ۶۱.

۲- ۲ شفاء الغرام ۱: الباب السابع.

۳- ۳ مروج الذهب ۲: ۲۳- ۲۲، اخبار مکة ۱: ۸۲.

ص: ۳۲

وأسرفوا على انفسهم، وأظهروا المظالم والإلحاد، وتركوا شكر اللّه، فسُلِبوا نعمتهم، وكانوا يكرون بمكة الظّل، ويبيعون الماء، فاخرجهم اللّه مِن مكة وسلّط عليهم النّمل حتّى خرجوا من الحرم، ثم ساقهم بالجَدب حتى الحقهم اللّه بمساقط رؤوس آبائهم ببلاد اليمن، فتفرقوا وهلكوا، وأبدل اللّه بعدهم بجُرهم، فكانوا سكّانه إلى أن بغوا فيه ايضاً، فاهلِكوا جميعاً» (۱) انتهى.

السابع: بناء قصى

ذكر الزبير بن بكّار (قاضى مكّة) فى كتاب «النّسب»: «أنّ قُصى بن كلاب لما ولى امر البيت، جمع نفقته ثمّ هدَّم الكعبة، فبناها بنياناً لم يبنه ممَّن بناها قبله مكة» ذكر أبو عبداللّه محمّد بن عابد الدمشقى فى «مغازيه»:

أنّ قصى بن كلاب بنى البيت الشريف» (۲) وجزم به الإمام الماوردى فى «الأحكام السلطانية» فانه قال فيها:

«أوّل مَن جدّد بناء الكعبة مِن قريش بعد ابراهيم عليه السلام، قُصى بن كلاب، وسقَّفها بخشب الدوم وجريد النخل» (۳) انتهى.

قال السيد التقى الفاسى فى «شفاء الغرام»، ورواه القاضى الزبير بن بكّار.

«أنّ قُصيّاً بنى الكعبة على خمس وعشرين ذراعاً». (۴) ففيه نظرٌ لما اشتهر فى الأحكام أنّ ابراهيم الخليل عليه السلام بنى طول الكعبة تسعة اذرع، وأنّ قريشاً لما بنت الكعبة زادت فى طولها تسعة اذرع، وأنّ قصياً أراد أن يجعل عرضها خمسة وعشرون [عشرين] ذراعاً، فالمعروف أنّ عرضها من الجهة الشرقية والغربية لا ينقص عن ثلاثين ذراعاً فى بناء الخليل عليه السلام، بل يزيد (على خلافٍ فى مقدار الزيادة) وإن أراد عرضها من الشاميّة واليمانية، فعرضها فى هاتين الجهتين ينقص عن خمسة وعشرون [ين] ذراعاً، ثلاثة أذرع أو أزيد، وكلُّ مَن بنى الكعبة بعد ابراهيم عليه السلام لم يبنها إلّاعلى قواعد ابراهيم عليه السلام، غير أنّ قريشاً اقتصرت من عرضها فى جهة الحجر الشريف لأمرٍ اقتضاه الحال، وكان ما فعله الحجاج بعد

۱- ۱ أخبار مكة ۱: ۸۹.

۲- ۲ شفاء الغرام ۱: ۹۲ الباب السابع.

۳- ۳ شفاء الغرام ۱: ۹۲، الباب السابع.

۴- ۴ شفاء الغرام ۱: ۹۲ الباب السابع.

ص: ۳۳

ابن الزبير عناداً له، واللَّه تعالى أعلم.

الثامن: بناء قريش:

قال خاتمة الحُفّاظ والمحدِّثين مولانا الشيخ محمد الصالحى فى كتابه «سبيل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد»، وهو أحسنُ كتابٍ للمتأخرين، وأبسطه فى السيرة النبوية ولنا به إجازة عامة.

«إنّ أمرأة جمَّرت الكعبة بالبخور، فطارت شرارة من مجمرها فى ثياب الكعبة، فاحترق أكثر أخشابها، ودخلها سيل عظيم فصدَّع جدرانها بعد توهينها، فأرادوا أن يشدّوا بنيانها، ويرفعوا بابها حتّى لا يدخلها إلّاقريش، وهم فى ذلك إذ رمى البحر بسفينةٍ إلى ساحل جِدّة لتاجر روميّ اسمه باقُوم (بموحدة وقاف مضمومة)، وكان نجّاراً بنّاءً، فخرج الوليد بن المغيرة فى نفر من قريش إلى جِدة فابتاعوا خشب السفينة، وكلموا باقوم الرّومى أن يتقدم معهم إلى مكة، فقدموا إليها، واخذوا أخشاب السفينة أعدُّوها لسقف الكعبة». (۱) قال الاسنويّ: «كانت هذه السفينة لقيصر ملك الروم يحمل فيها الرخام والخشب والحديد مع باقوم إلى البقعة التى احرقها الذين بالحبشة، فلمّا بلغت قريش مِن مرسى جِدّة بعث اللَّه عليها ريحاً فحطّمها» انتهى.

قلت: لا يعرف طريق بين بحر الروم والحبشة يحرفها إلى جِدّة، إلّاان يكون ملك الروم طلب ذلك مِن ملك مصر، فجهَّزها له مِن بندر السويس أو الطور أو نحو ذلك.

قال ابنُ اسحاق: «وكان بمكة قبطى يعرف نجر الخشب وتسويته، فواثقهم على ان يعمل لهم سقف الكعبة، ويساعده باقُوم.

وقال: وكانت حيّةٌ عظيمة تخرج مِن بئر الكعبة تُشرف على جدار الكعبة، لا يدنو منها أحد إلّاكشت وفتحت فاها، وكانوا يهابونها ويزعمون أنّها لحفظ الكعبة وهداياها، وأنّ رأسها كرأس الجَدى، وظهرها وبطنها أسود، وأنّها أقامت فيها

۱- ۱ أخبار مكة ۱: ۱۶۰.

ص: ۳۴

خمسمائة سنة!

قال ابن عتبة: فبعث اللَّه طائراً فاختطفها وذهب بها.

فقالت قريش: نرجو أن يكون اللَّه تعالى رضى لنا بما أردنا فعله، فاجمع رأيهم على هدمها وبنائها.

قال هشام: فتقـدم عائذ بن عمران بن مخزوم (وهو خالُ أبى النبيصـلى الله عليه و آله) فتناول حجراً من الكعبة فوثب مِن يده حتى رجع إلى مكانه.

فقال: يا معشـر قريش، لا تـدخلوا فى بنيانها إلّاحلالًا طيباً، ليس فيه مهر بغى، ولا ربأ، ولا مظلمة. (۱)ثمّ إنّ قريشاً اقتسموا جوانب البيت فكـان شِقُّ البـاب لبنى زُهرة وبنى عبـدمناف، ومـا بين الرّكن الأسود والركن اليمـانى لبنى مخزوم، ومن انضّم إليهم من قريش، وكان ظهر الكعبـة لبنى جمـح وبنى سـهم، وكان شق الحجر لبنى عبدالـدار وبنى اسـد بن عبدالعزى وبنى عدى بن كعب، وجمعوا الحجارة، وكان رسول اللَّهصـلى الله عليه و آله ينقل معهم، حتّى إذا انتهى الهدم إلى الأساس، فأفضوا إلى حجارة خُضر كالأسمنة، فضربوا عليها بـالمعول، فخرج برق كـاد أن يخطف البصـر، فانتهوا عنـد ذلك الأساس، ثمّ بنوها حتّى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصم فيه القبائل، كلُّ قبيلة تُريدُ أن ترفعه إلى موضعه، وكادوا أن يقتتلوا.

فقال لهم أبو أميّة، بن المغيرة، بن عبداللَّه، بن عمرو، بن مخزوم (وكان شريفاً مطاعاً): اجعلوا الحكم بينكم فيما اختلفتم اول من يدخل من باب الصفا.

فقبلوا منه ذلك، وكان أوّل داخلٍ رسول اللَّهصـلى الله عليه و آله، فلّما رأوه قالوا: هـذا محمّـد الأمين، وكان يسـمّى قبل أن يوحى إليه أميناً لأمانته وصدقه.

فقالصلى الله عليه و آله: هلم الى ثوباً.

فاتى به، فأخذ الركن فوضعه بيده فيه.

ثمّ قال: ليأخذ كبير كل قبيلةٍ بطرف مِن هذا الثوب.

۱- ۱ سيرة ابن اسحاق: ۱۰۴، سيرة ابن هشام ۱: ۲۰۵، اخبار مكة ۱: ۱۶۱.

ص: ۳۵

فحملوه جميعاً وأتوا به، ورفعوه إلى ما يُحاذى موضعه، فتناوله رسول اللّهصلى الله عليه و آله مِنَ الثوب ووضعه بيده الشريفة فى محله.

(۱) وفى ذلک يقول هبيرة بن أبىوهب المخزومى فى شعرٍ:

تشاجرت الأحياء فى فصل خطة جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد

تلاقوا بها بالبغض بعد مودة وأوقد ناراً بينهم شرّ موقد

فلما رأينا الأمر قد جدّ جده ولم يبق شىء غير سل المهند

رضينا وقلنا العدل اول طالع يجىء من البطحاء من غير موعد

ففاجأنا هذا الأمين محمد فقلنا رضينا بالأمين محمد

بخير قريش كلّها أسّ شيمة وفى اليوم مهما يحدث اللّه فى غد

فجاء بامر لم ير الناس مثله اعم وارضى فى العواقب والبدء

اخذنا باطراف الردا وكلنا له حصة من رفعها قبضة اليد

فقال ارفعوا حتى إذا ما علت به اكفهم وافى به خير سيد

وكل رضينا فعله وصنيعه اكرم به من رأى هادٍ ومهتدى

وتلک يد منه علينا عظيمة نروح بها هذا الزمان ونغتدى ولمّا بنت قريش الكعبة علت ارتفاعها مِن خارجها ثمانية عشر ذراعاً، منها تسعة اذرع زائدة على ما عمّره الخليل عليه السلام ونقصوا من عرضها أذرعاً من جهة الحجر لقصر النفقة الحلال التى أعدّوها لعمارة الكعبة، ورفعوا بابها من الأرض ليدخلوا من شاءُوا ويمنعوا من شاءُوا، وجعلوا فى داخلها سِت دعائم فيصفّين، ثلاث مِن كلصفٍ مِن شِق الحِجر إلى الشِق اليمانى، وجعلوا فى ركنها الشامى مِن داخلها درجة يصعد منها إلى سطح الكعبة. (۲) قال ابن ظهيرة: «إنّ قريشاً رفعت الكعبة ثمانية عشر ذراعاً، وقيل عشرين».

قال: «وفى رواية أنّ طول الكعبة كان سبعة وعشرين ذراعاً، فاقتصرت

۱- ۱ سيرة ابن اسحاق: ۱۰۸- ۱۰۷، سيرة ابن هشام ۱: ۲۰۶، اخبار مكة ۱: ۱۶۴.

۲- ۲ أخبار مكة ۱: ۱۶۴.

ص: ۳۶

قُريش منها على ثمانية عشر ذراعاً، ونقصوا مِن عرضها أذرعاً أدخلوها فى الحِجر».

أخرجها الأزرقى فى تاريخه قال: «وهو مناقضٌ لما ذكره فى بناء ابن الزبير أنّه زاد على قريش بتسعة أذرع، كما زادت قريش على بناء الخليل بتسع، وهذا هو المشهور فى التواريخ».

قال: ولم يصح ان احداً بناها بعد الخليل، ولوصح فلم يصح أنّه جَعَل طولها سبعة وعشرين ذراعاً، وما تقدّم مِن بناء العمالقة وجُرهم وقصى بعد الخليل فإنّما هو مجرد خبر، وهو إنصحَّ فلم يذكر الأزرقى ولا غيره قدر ارتفاع بنائهم.

نعم، نقل الفاسى عن الزبير بن بكّار أنّ قصيّاً بنى الكعبة بناءً محكماً على خمس وعشرين ذراعاً، وهو مع مخالفته لما ذكره المشهور فى بنائها، لا يصح به هذه الرواية المتَّضمِّنة لبنائها على سبعة وعشرين ذراعاً، فما ذكره الأزرقى مجرد روايةٍ لا تعضد بشيء، فلا تعويل عليها» نقل باختصار.

تنبيه: اختلِف فى سن رسول اللَّهصلى الله عليه و آله حين بنت قريشٌ الكعبة.

فقيل: كان ابن خمس وثلاثين سنة، وهو أشهر الأقوال.

وروى مجاهد: أن ذلك قبل المبعث خمسة عشر عاماً.

والذى جزم به ابن اسحاق أنّه كان قبل المبعث بخمس سنين، اللَّه اعلم. (۱) قال ابن ظهيرة: اختلف فى سنهصلى الله عليه و آله إذ ذاك، فقيل إنّه خمس وثلاثون سنة، وهو الأظهر، وقيل خمس وعشرون وهو مشهور».

وعن الفاكهىّ «قد ناهز الحُلُم.

وفى تاريخ الأزرقى ما يؤيده، (۲) وهو بعيدٌ جداً.

التاسع: بناء عبداللَّه بن الزبير فى زمن الإسلام.

وسيأتى فى تفصيل ذكره وما وقع له فى الباب الثالث.

العاشر: بناء الحجاج بن يوسف الثقفى بعد بناء عبداللَّه بن الزبير.

وسيأتى بيانه عقب ذكرنا بناء ابن الزبير، وبناء الحجّاج، وهو جهة الميزاب

۱- ۱ شفاء الغرام ۱: ۹۵.

۲- ۲ أخبار مكة ۱: ۱۶۴.

ص: ۳۷

والحِجر (بسكون الجيم) وتعلية جوف الكعبة، ورفع الباب الشريف فى لصق الملتزم، وسد الباب الغربى، الذى يلصق المستجار لا غير، وما عدا ذلک فى الجهات الثلاث، وهو وجه الكعبة الشريفة، وجهة ظهرها، وما بين الركن اليمانى والحِجر، فهو بناء عبداللَّه بن الزبير باق إلى الآن كما سنذكره فى زيادة ابن الزبير فى المسجد الحرام، وهدم الكعبة وبنائها على قواعد ابراهيم عليه السلام. انتهى.

ثمّ إنّ القطب ذكر فى الباب الموعود به: «أنّ عبداللَّه بن الزبير كان ممن امتنع مِن بيعة يزيد بن معاوية وفرَّ إلى مكة، وأطاعه أهلُ الحجاز واليمن والعراق وأنّ يزيد أرسل عليه عسكراً جهّزه، وعليهم حُصين بن نُمير فالتجأ ابن الزّبير إلى المسجد الحرام، فنصب عليه الحُصين المجانيق وأصاب بعض حجارته الكعبة الشريفة، فانهدم بعض جدرانها، ثم احترق بعض اخشابها وكسوتها، وانهزم الحُصين بعسكره لهلاك يزيد وبلوغه خبر نعيه، فرأى عبداللَّه بن الزبير ان يهدم الكعبة ويحكم بناءها ويبنيها على قواعد ابراهيم عليه السلام، لِما سمع مِن حديث عائشة أنّ رسول اللَّهصلى الله عليه و آله قال لها: «يا عائشة لولا أنّ قومک حديثو عهدٍ بشرك لهدمت الكعبة وألصقتها بالأرض، وجعلت لها باباً شرقاً وباباً غرباً، وزدت فيها ستة اذرع من الحجر، فانَّ قريشاً استقصرتها حين بنت الكعبة، فإن بدا لقومک بعدى ان يبنوه فهلمّى لأريک ما تركوه، فأراها قريباً مِن سبعة أذرع».

أخرجه البخارى ومسلم فيصحيحيهما، وهو رواية عن مسلم، عن عطاء. (۱) قال: قال ابن الزبير: إنّى سمعت عائشة تقول: إنّ رسول اللَّهصلى الله عليه و آله قال: «لولا أنّ قومک حديث عهدٍ بكفر، وليس عندى ما يقوى على بنائه، لكنت أدخلتُ فيه مِنَ الحِجر خمسة اذرع» انتهى.

فاستشار عبدُاللَّه بن الزبير من بقى من الصحابة، فكان فيهم مَن أبى، ومنهم مَن وافقه، فصمّم على ذلک، وأقدم عليه وهَدّم الكعبة.

۱- ۱ كنز العمال ۱۲: ۲۲۲.

ص: ۳۸

قال الإمام عبداللّه بن أسعد اليافعی فی تاريخه «مِرآتُ [مرآة] الجِنان»:

إنّ ابن الزبير لما اكمل هدم الكعبهٔ، كشف عن أساس ابراهيم عليه السلام، فوجد الحِجر داخل البيت، فبنی البيت على ذلك الأساس، وأدخل الحِجر فی البيت، وألصق باب الكعبهٔ الأرض ليدخُلَ الناسُ منه، وفتح له باباً غرباً فی مقابلهٔ هذا الباب ليخرج الناس منه، كما كان عليه لما جددت قريش الكعبهٔ قبل بعثتهصلى الله عليه و آله، وحضره النبيصلى الله عليه و آله وعمره الشريف يومئذ خمسٌ وعشرون سنهٔ، وكانت النفقهٔ قصرت بقريش لما بنوا الكعبهٔ يومئذ، فاخرجوا الحِجر من البيت، وجعلوا عليه حائطاً قصيراً علامهٔ على أنه من الكعبهٔ، فأعادها ابن الزبير كما كانت زمن الجاهليهٔ، وبنى على قواعد ابراهيم عليه السلام، فكان طول الكعبهٔ قبل قريش تسعهٔ اذرع، فزادت قريش عليه تسعهٔ اذرع، فلما بناها ابن الزبير كان طولها ثمانيهٔ عشر ذراعاً، فرآها عريضهٔ لا طول لها، فزاد فی طولها تسعهٔ اذرع، فكان لها فی السماء سبعهٔ وعشرين [عشرون] ذراعاً، فلّما فرِغ من بنائها طيَّبها بالمِسك والعنبر، وكساها بالديباج، وبقيت من الحجارهٔ بقيهٔ فرشها حول البيت نحواً من عشرهٔ أذرع، وكان فراغه مِنعمارهٔ البيت الشريف سابع عشر شهر رجب سنهٔ ۶۴ مِنَ الهجرهٔ» (۱) انتهى.

ثمّ إنّ عبدالملك بن مروان لمّا ولی الخلافهٔ جهز جيشاً كثيفاً على ابن الزبير، وأمَّر عليهم الحَجّاج بن يوسف الثقفی فحاصره ورمى عليه بالمنجنيق، وخذل ابن الزبير أصحابه فخرج وحده وقاتل قتالًا شديداً إلى أن قتل سنهٔ ۷۳ من الهجرهٔ.

وفی سنهٔ ۷۴ من الهجرهٔ كتب الحجاج إلى عبدالملك بن مروان يذكر له أنّ عبداللّه بن الزبير زاد فی الكعبهٔ ما ليس فيها، واحدث باباً آخر، فكتب إليه عبدالملك بن مروان، أعِدها على ما كانت فی عهد رسول اللّهصلى الله عليه و آله، فهدم الحجاج مِنجانبها الشامی قدر ستهٔ أذرعٍ وشبراً وبنى الجدار على أساس قريش، ولبَّس أرضها بالحجارهٔ التی فضلت، ورَفع الباب الشرقی وسدّ الباب الغربی وترك

۱- ۱ شفاء الغرام ۱: ۹۷.

ص: ۳۹

سائرها لم یُغیّر منها شیئاً.

ثمّ إنّ عبدالملک لمّا حجَّ ذلک العام وسمع حدیث عائشة من الحارث بن عبداللّه المخزومی ندم علی ذلک، فجعل ینکث بقضیبه فی الأرض ساعةً طویلةً منکساً، وقال: وددتُّ واللّه أنّی ترکت ابن الزبیر وما تحمل من ذلک، کذا ذکره النجم عمر بن فهد. (۱) انتهی ما أردنا نقله مِن تاریخ القطب فی هذا الموضوع، وفی النقل اختصار، ومخالفة فیبعض المواضع لترتب النقل فی الأصل علی وجه لم یتغیر به شیء من المعنی.

وقال الشیخ جمال الدین، محمد جار اللّه بن محمد نور الدین بن أبی بکر بن علی بن ظهیرة القرشی المخزومی فی تاریخه الذی سماه ب «الجامع اللطیف فی فضل مکة وأهلها والبیت الشریف» وقد انتهی تاریخه بعام خمسین وتسعمائة، قال فی الباب الثالث مِن تاریخه فیما یتعلق ببناء الکعبة الشریفة: «اعلم أنّ الکعبة– زادها اللّه شرفاً– بُنیت مرات، قال فی «منهاج المتائین» بنیت خمس مرات: بناء الملائکة وقیل آدم علیه السلام، بناء الخلیل علیه السلام، بناء قریش، بناء عبداللّه بن الزبیر، بناء الحجّاج.

وقد قیل: إنها بُنیت مرتین اخرتین [أخریین]، بناء العمالقة بعد ابراهیم علیه السلام، ثم بنته قریش واللّه اعلم» انتهی.

ثم نَقَل عن الفاسی بناءها عشر مرات، کما مر حکایته عن القطب.

ثم قال: «وفی منسک الجَدّ أنّها بُنیت خمس مرات، بناء الملائکة، بناء آدم علیه السلام، بناء ابراهیم علیه السلام، بناء قریش، بناء ابن الزبیر، ثم هدم الحجّاج بعضه وبناه.

قال: وفی «الروض الانف» للسهیلی: «إنّ أول مَن بنی الکعبة شیث بن آدم علیه السلام، وذکر فی موضعٍ آخر أنّ الملائکة هی التی أسّست الکعبة».

وذکر القاضی تقیّ الدین أیضاً أنه وجد بخط عبداللّه المرجانی: أنّ عبدالمطلب جَدّ النبیصلی الله علیه و آله بنی الکعبة بعد قُصی بن کلاب، وقبل بناء قریش.

۱– ۱ شفاء الغرام ۱: ۱۰۰.

ص: ۴۰

ثم قال: ولا أعلم له سلفاً ولا خلفاً، واللَّه أعلم.

ثم حكى عن الفاكهى روايته عن علىٍّ عليه السلام أنّ أول من بنى الكعبة الخليل عليه السلام، وأنّ ابن كثير جزم بذلك فى تفسيره قال: وقال (أى ابن كثير فى تاريخه) عند قوله تعالى: إنّ أول بيت وضع للناس أنه تعالى يذكر عن خليله انه بنى البيت العتيق الذى هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون اللَّه فيه، وبوّاه مكانه، أى أرشده إليه، ودلّه عليه.

ثم قال ابن كثير: ومن تمسّك فى هذا بقوله تعالى: «مكان البيت» فليس بناهضٍ ولا ظاهر؛ لأن المراد مكانه الكائن فى علم اللَّه المعظم عند الأنبياء موضعه من لدى آدم إلى زمن ابراهيم عليه السلام، وقد ذكر أنّ آدم نصب عليه قبة، وأنّ الملائكة قالوا له: قد طفنا قبلك بهذا البيت، وأنّ السفينة طافت به اربعين يوماً أو نحو ذلك، وكلّ هذه اخبار عن بنى اسرائيل وهى لا تصدق ولا تكذب» انتهى.

قال ابن ظهيرة: أقول: فعلى هذا يكون بناء البيت ثلاث مراتٍ:

الأول: بناء الخليل عليه السلام.

الثانى: بناء قريش.

الثالث: بناء ابن الزبير والحجاج.

لأن بناء الخليل ثابت بنص الكتاب، وبناء قريش ثابت فيصحيح البخارى وغيره، وبناء ابن الزبير والحجاج ذكره عامة المفسرين وأهل التواريخ وغيرهم من العلماء.

ويحتمل أن يقال إنّها بنيت أربع مراتٍ:

[الأول:] بناء الملائكة وآدم عليه السلام معاً فى آن واحدٍ.

ويشهد له ما حكى عن ابن عباس فى سبب بناء آدم، وهو مجرد تأسيس.

الثانى والثالث: بناء الخليل عليه السلام وبناء قريش.

الرابع: بناء ابن الزبير والحجاج.

ص: ۴۱

فيكون البناء الأول والرابع مشتركاً.

ثم على القول بأنّ بناء الملائكة وبناء آدم فى وقتين فهو تأسيس أيضاً، كما ذكره الفاسى فى «شفاء الغرام» لا بناء مرتفع كغيره من الأبنية، لأنّه حينئذٍ يحتاج إلى معرفة السبب فى نقض الملائكة بناء آدم، أو نقض آدم بناء الملائكة، ولم أرَ أحداً ذكر ذلك فيما وقفت عليه، ولا تَعرَّض لمقدار ارتفاع بناء الملائكة وآدم فى السماء، فيُحتمل ألّا يكون هناك ارتفاع، أو يكون وهدم بتتابع القرون، فبُنى ثانياً على ما وجد مِنَ الأساس.

قال: «وأما سبب بناء ابن الزبير، فهو أنّ الحصين بن نُمير لما قدم مكة، ومعه الجيش مِن قبل يزيد بن معاوية لقتال ابن الزبير، جمع ابن الزبير أصحابه، فتحصَّن بهم فى المسجد الحرام حول الكعبة، ونصب خياماً يستظلون فيها من الشمس، وكان الحصين قد نصب المنجنيق على أخشَبَى مكة، وهما أبو قُبيس والآخر الذى يقابله، وصار يرمى به على ابن الزبير وأصحابه، فتصيب الأحجار الكعبة، فوهنت لذلك، وتخرقت كسوتها عليها، وصارت كأنها جيوب النساء.

ثم إنّ رجلًا مِن أصحاب ابن الزبير أوقَد ناراً فى بعض تلك الخيام مما يلى الصفا، بين الركن الأسود واليمانى، والمسجد يومئذصغير، وكانت فى ذلك اليوم رياح شديدة، والكعبة إذ ذاك مبنيّة بناء قريش مدماك من ساج، ومدماك من حجارة، فطارت الريح بشرارة مِن تلك النار فتعلقت بكسوة الكعبة، فاحترقت واحترق الساج الذى بين البناء، فازداد تصدع البيت، وضعف جدرانه، وتصدع الحجر الأسود أيضاً، حتّى ربطه ابن الزبير بعد ذلك بالفضة، ففزع لذلك أهل مكة واهل الشام الحصين وجماعته.

وعن الفاكهى: أنّ سبب حريق البيت، إنّما كان من بعض أهل الشام أحرق على باب بنى جُمَح، وهو باب الصفا، وفى المسجد يومئذٍ خيام، فمشى الحريق حتّى أخذ فى البيت فظن الفريقان أنّهم هالكون.

ص: ۴۲

قال الجدّ: قلت: وهذا يخالف ما ذُكِر أن السبب فى ذلك بعض اصحاب ابن الزبير، ولعل ما ذكره الفاكهى أصوب، على أنّه يمكن الجمع بوقوع كل من ذلك فيكون السبب مركباً» انتهى.

ثم جاء نعىُ يزيدٍ بعد ذلك بتسعة وعشرين يوماً، والحصين مستمر على حصار ابن الزبير، فارسل ابن الزبير إلى الحصين جماعة من قريش، فكلموه وعظموا عليه ما أصاب الكعبة.

وقالوا له: إنّ هذا مِن رميكم لها. فانكر ذلك ثم ولّى راجعاً إلى الشام. فدعا ابن الزبير حينئذ وجوه الناس، واستشارهم فى هدم الكعبة، فأشار عليه القليل من الناس بذلك، وأبى الكثير، وكان أشدهم عبداللَّه بن عباس.

وقال: دعها على ما أقرها رسول اللَّهصلى الله عليه و آله فإنّى أخشى أن يأتى بعدك مَن يُهدِّمها، فلا تزال تهدم وتُبنى فيتهاون الناس بحرمتها، ولكن ارقعها.

فقال ابن الزبير ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه، فكيف أرقع بيت اللَّه؟!

واستقر رأيه على هدمها رجاء أن يكون هو الذى يردُّها على قواعد الخليل عليه السلام لقولهصلى الله عليه و آله لعائشة «لولا قومك حديثو عهد بكفر وفى رواية «حديث عهد بكفر لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين». (۱) ثم إنّ ابن الزبير أمر بهدم الكعبة، وكان ذلك سنة أربع وستين من الهجرة، يوم السبت النصف مِن جمادى الآخرة، أخرجه الأزرقى.

وقيل: سنة خمس وستين، فلم يجتر أحدٌ على ذلك، وخرج عبداللَّه بن عباس إلى الطائف، فلما رأى ذلك ابن الزبير علاها بنفسه وأخَذَ المِعوَل وجعل يُهدِّمها، فلما رأى أنه لم يصبه شىءصعدوا معه، وهدَّموا وأرقى ابن الزبير عبيداً مِن الحبش يُهدِّمونها رجاء أن يكون فيهمصفة الحبشى الذى قال فيهصلى الله عليه و آله: «يُخرِّبُ الكعبة ذو السويقتين من الحبشة». (۲)

۱- ۱ کنز العمال ۱۲: ۲۲۲.

۲- ۲ کنز العمال ۱۴: ۲۲۱.

ص: ۴۳

الهوامش:

ص:۴۴

معالم الحجّ وآفاقه فی مدرسهٔ اهل البیت علیهم السلام

ص: ۴۶

معالم الحجّ وآفاقه فی مدرسة أهل البیت علیهم السلام

منذر الحکیم

تحظی فریضة الحج باهتمام المسلمین جمیعاً وتعدّ من الشعائر والعبادات التی یتفق علی وجوب أدائها جمیع المذاهب الإسلامیة، کما تعبّر هذه الفریضة عن وحدة الأمة الإسلامیة واستقلال کیانها. وهی بعد ذلک کلّه: رمز قوّتها وعظمة قدرتها واستمرار حیویّتها.

ولم تستطع أیدی العابثین أن تعطّل هذه العبادة العظیمة بالرغم من سعیهم الحثیث لإفراغها من مضمونها ومحتواها الکبیر.

ویعود ذلک کلّه لأسباب منها:

الدور الفاعل لأهل‌بیت الوحی علیهم السلام بما فیهم سیّد المرسلین، وأئمّة المسلمین من أبناء الرسول العظیم، الذین تابعوا الرسول الکریمصلی الله علیه و آله فی خُطاه الحکیمة والقرآن العظیم فی توجیهاته السدیدة، فسلکوا سبیل الهدی بکلّ ما اوتوا من حَولٍ وقوّة وحکمة حتی بیّنوا معالم وتفاصیل هذه العبادة المهمّة بشعائره المتنوّعة، وأرسَوا دعائمها تشریعاً وتشویقاً، وحَثّوا علی أدائها کلّ من یرتبط بهم من قریب أو بعید،

ص: ۴۷

وجسّـدوا كلّ ما قالوا فى سلوكهم الحىّ، ولم يكتفوا ببيان تاريخها العريق من لدن آدم عليه السـلام إلى خاتم الأنبياءصـلى الله عليه و آله وفضائلها وآثارها الدنيوية المادية وأجرها الأخروى، وإنّما عكفوا على بيان فلسفتها شعيرة شعيرة، وعملًا عملًا، ونَفَذوا إلى أعماقها؛ ليصوّروا عرفانها بالعمل قبل البيان، وبالجنان قبل اللسان.

لقد تميّزت مدرسة أهل البيت فى نظرتها إلى الحجّ وشـعائره بمميّزات أعطت الحجّ مضـموناً خاصّاً، وشكلًا متميّزاً يُشار من خلاله إلى أتباعها بالبنان، وهو يثير لدى المسـلمين عامة أسـئلة شتّى عن مدى البُعد المعنوى والسياسـىّ المتميّز لحجّهم عمّن سواهم، اقتداءً بأئمّة أهل البيت المعصومينصلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين.

ويمكن تلخيص هذه المميّزات فى عدّة نقاط:

الأولى: شدّة الاهتمام المتمثِّل بالقول والعمل معاً.

الثانية: الاهتمام المتميّز بالشكل والمضمون معاً.

الثالثة: عدم إغفال البُعدين السياسى والجهادى إلى جانب البُعد العبادى.

الرابعة: تعميق البُعد العبادى والعرفانى بشكل ملفت للنظر.

الخامسة: عدم تجاوز نصوص ومقاصد الكتاب والسُنّة بالرغم من كثرة التقريع والتفصيل.

إنّ أهـل بيت الرسول الأمينصـلى الله عليه و آله وعترته المعصومين- الـذين قرنهم الرسولصـلى الله عليه و آله بمحكم التنزيل واعتبرهم عِـدلًا للقرآن العظيم فى حـديث الثقلين الشـهير وحديث السـفينة وحديث النجوم وغيرها ممّا ورد فى تفسـير آيات الذكر الحكيم التى تشـير إلى أنهم أهل الذكر وولاة الأمر والحافظون لحدود اللَّه- هم الروّاد الصادقون الامناء على شـريعة جدّهم ورسالته حيث عصـمهم اللَّه من الزلل وآمنهم من الفتن، والمطهّرون الذين يتسنّى لهم تفسير الكتاب كما ينبغى، واقتفاء أثره

ص: ۴۸

اقتفاءً یجعلهم الاسوة الحسنة بعد رسول اللَّهصلی الله علیه و آله والقدوة المثلی التی لا یطمع فی إدراکها طامع.

ومن هنا کان من الطبیعی جدّاً أن یکون منهجهم فی إرساء دعائم هذه الفریضة العظیمة وتعظیم شعائر اللَّه هو منهج القرآن المجید، وخُطاهم إلی تثبیت قواعدها تبعٌ لخُطاه.

والقرآن المجید قد کثّف الإضاءَة علی بیت اللَّه الحرام ومشاعر الحج العظام، تاریخاً وتعظیماً وفلسفةً وأحکاماً وعِرفاناً، فجعله مرکزاً للتوحید، وعتیقاً من براثن الشرک، وقیاماً للناس، ومبارکاً وهدًی للعالمین، وأمناً للناس، ومثابةً لهم، ومطهّراً ومحلّاً خاصّاً للطائفین حول محور الوحدانیة الحقیقیة والعاکفین والرکّع السجود.. فهو التعبیر الصادق عن إسلام الوجه للَّهوالتسلیم لإرادته العلیا، والمختبر الکامل للإنسان الطائع باتجاه الکمال اللائق به، والبوتقة التی تصهر شوائب الروح، وتمحو ما علق بها من أدران خلال مختلف مراحل الحیاة.

لقد کانت لسیرتهم الزاخرة بالعطاء العلمی والعَمَلی والعرفانی وکان لسعیهم الحثیث- لإرساء معالم الشریعة وقواعدها المحکمة- الدور الکبیر والأثر البالغ فی تألّق الإسلام والمسلمین بشکل عام وتجلیة عظمة الشریعة الإسلامیة بشکل خاص، وترکیز شعائر الحج بشکل أخصّ حتی ورد عنهم علیهم السلام «أن الدین لا یزال قائماً ما قامت الکعبة»، وأنّ ولاة الأمر مسؤولون عن رعایة هذه الشعائر فی کلّ الظروف التی تمرّ بها الأمة الإسلامیة، وینبغی أن لا یحول بینهم وبین إقامتها أیّ ضعف مالی، أو أیّ خلل اقتصادی ینتاب الناس حیث تخصص بعض میزانیة الدولة الإسلامیة؛ لإحیاء هذه الشعائر علی مرّ الدهور والأحوال.

نعم هذه هی مدرسة أهل البیت علیهم السلام وهی تعطیصورة موجزة وملخّصة جدّاً من معالم نظریتهم وثقافتهم الرّبانیة إلی الاسلام ککل،

ص: ۴۹

وإلى هذا الركن الإسلامى العظيم بشكل خاص.

الشعائر الإلهية:

جاء فى مختار الصحاح أنّ (الشعائر): هى كلّ ما جُعل علماً لطاعة اللّه تعالى. وهى أعمال الحج أيضاً، والمشاعر هى موضع المناسك. وشِعار القوم فى الحرب علامتهُم ليعرف بعضهم بعضاً، وأسعر الهدىَ إذا طَعَنَ سنامَه الأيمنَ حتّى يسيلَ منه دمٌ ليُعلَم أنّه هدىٌ.

ومن هنا فقد عُرّف الشِّعار بأنه «ممارسة- كلامية أو غير كلامية- تصبغ شخصية الإنسان الممارِس، وتطبعها بطابعٍ خاص يميّزها عمّا سواها» (۱).

فالشعائر الإلهية هى معالم الطاعة للّه‌تعالى، والتى تتضمّن ممارستها أهدافاً حقيقيّة هى أهداف الشريعة التى تقودها وتدعو إلى ممارستها، كما أنّها تعطى للممارسين لها عنواناً يميّزهم عَمّن سواهم.

وتتجلّى هذه النقاط بوضوح فى جملةٍ من آيات الذكر الحكيم، مثل قوله تعالى:

۱- ولكل أمّةٍ جعلنا منسكاً ليذكروا اسمَ اللّه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام (۲).

۲- والبُدنَ جعلناها لكم من شعائر اللّه لكم فيها خير (۳).

۳- ذلك ومن يعظّم حرمات اللّه فهو خيرٌ له عند ربّه.. (۴).

۴- ذلك ومن يعظّم شعائر اللّه فإنّها من تقوى القلوب (۵).

فالتقوى هو الهدف الذى تسعى الشريعة الإسلامية لتحقيقه من خلال العمل بقوانينها، والشعائر الإلهية التى نصّت عليها آيات الذكر الحكيم هى شعائر الحج وهى من جملة أركان العبادة الإسلامية، التى ينبغى للمسلمين احترامها وتعظيمها باعتبارها من «حُرُمات اللّه»، فهى من جملة القوانين التى تحمل طابع العبادة أوّلًا وتعطى للمسلمين معلَماً من معالم شخصيّتهم المستقلّة ثانياً فهى تحمل بين جوانحها روحَ التسليم للّه،

۱- ۱ السيد محمد باقر الحكيم: الفكر الإسلامى، العدد ۱۱،ص ۱۰ دور الشعار فى النظرية الاسلامية.

۲- ۲ الحج: ۳۴.

۳- ۳ الحج: ۳۶.

۴- ۴ الحج: ۳۰.

۵- ۵ الحج: ۳۲.

ص: ۵۰

والشعور بالعزّة باللّه، والشعور بالاستقلال عن سائر الامم بشتى شرائعها ومذاهبها.

شعائر الحج فى القرآن الكريم:

تتّضح أهمية الحج وشعائره الإلهية فى القرآن الكريم من خلال:

۱- المساحة التى استوعبتها آيات الحج فى القرآن الكريم.

۲- اسلوب الطرح واسلوب الدعوة إلى إقامتها.

۳- الاهتمام البالغ بفلسفة إقامة هذه الشعائر.

۴- تقنين هذه الشعائر وبيان أحكامها بالتفصيل.

۵- الاهتمام ببيان جذورها التاريخية العريقة.

وإذا لاحظنا منهج أهل البيت عليهم السلام فيما يخص إحياء شعائر الحجّ وقارنّاه بالمنهج القرآنى وجدناه يحذو حذوه ويتمثّل خُطاه حذو القذّة بالقذّة.

أما المساحة الملفتة للنظر فهى تتوزّع على السور المكيّة والمدنيّة معاً، ولا سيما إذا لاحظنا كلّ ما يرتبط بالحجّ وتأريخه وشؤونه.

فمن السور المكية: سورة إبراهيم [الآيات ۳۵- ۳۷]، والنمل [الآية ۹۱] والقصص [الآية ۶۷]، والعنكبوت [الآيات ۲۴ إلى ۲۸] ومطلع سورة البلد ومطلع سورة التين وسورة قريش وسورة الفيل.

ومن السور المدنية: سورة البقرة [الآيات ۱۲۵- إلى ۱۲۹ و ۱۴۲ إلى ۱۵۲ و ۱۵۸ و ۱۸۹ و ۱۹۶ إلى ۲۰۳]. وسورة آل عمران [الآيات ۹۵ إلى ۹۷] وسورة المائدة [الآيات ۲ و ۹۵ إلى ۹۷]، وسورة الأنفال [الآيات ۳۴ إلى ۴۰] وسورة التوبة [الآيات ۱ إلى ۱۹ و ۲۸] وسورة الحجّ [الآيات ۲۵ إلى ۳۷].

وأمّا اسلوب العرض فهو اسلوب الحثّ والتحضيض والتأكيد والتعميم، فالخطاب فيه للناس كافة وليس للمؤمنين خاصة، قال تعالى:

۱- إنّ أوّل بيتٍ وُضع للناس لّلذى ببكة مباركاً وهدًى

ص: ۵۱

للعالَمین (۱).

۲-ولِلَّه علی الناس حجّ البیت من استطاع إلیه سبیلًا (۲)

.

۳-وإذ جعلنا البیتَ مثابةً للناس وأمناً (۳).

۴-جعل اللَّهُ الکعبة البیت الحرام قِیاماً للناس (۴)

.

۵- وأذن فی الناس بالحج... (۵).

وهناک أدوات أخری للعموم استخدمها النص القرآنی مثل قوله تعالی:

۱- ومَن یعظّم حرمات اللَّه فهو خیر له عند ربّه.

۲-ومن یعظِّم شعائر اللَّه فإنها من تقوی القلوب.

ویتجلّی التأکید فی التکرار المتنوّع، واستعمال شتی أسالیب التأکید البلاغی فی الآیات المبارکة.

ویأتی بیان حرمة البیت وأمنه وحلول البرکة فیه، واعتباره محطّة اشعاع وهدایة للعالمین بما فیه من عدّة عوامل إیجابیّة للحثّ والتحضیض والتشویق لقصده وحجّه وإحیاء شعائره.

هذا فضلًا عن النص الدالّ علی الوجوب، والنصوص المتضمّنة لبیان فلسفة الحج، وفلسفة إقامة هذه الشعائر حیث إنّها تعدّ من أسالیب الحثّ والتشویق أیضاً.

وتتکرّر فی آیات الحجّ الإشارة والتصریح إلی فلسفة الحج فی الإسلام، والحِکَم التی تحققها ممارسة شعائره ومناسکه. قال تعالی:

۱-ولکل أمةٍ جعلنا منسکاً لیذکروا اسم اللَّه علی ما رزقهم من بهیمة الأنعام (۶).

۲-والبدنَ جَعَلناها لکم من شعائر اللَّه لکم فیها خیر.. (۷).

۳-لن ینالَ اللَّهَ لحومُها ولا دماؤها ولکن یناله التقوی منکم (۸)

.

۴- کذلک سخّرها لکم لتکبّروا اللَّه علی ما هداکم (۹).

۵- وأذِنّ فی الناس بالحجِّ... لیشهدوا منافع لهم ویذکروا اسمَ

۱- ۱ آل عمران: ۹۶

۲- ۲ آل عمران: ۹۷

۳- ۳ البقرة: ۱۲۵

۴- ۴ المائدة: ۹۷

۵- ۵ الحج: ۲۷.

۶- ۶ الحج: ۳۴.

۷- ۷ الحج: ۳۶.

۸- ۸ الحج: ۳۷.

۹- ۹ الحج: ۳۷.

ص: ۵۲

اللَّه.. (۱).

۶- ذلك ومن يعظّم حُرماتِ اللَّه فهو خيرٌ له عند ربّه (۲).

۷- ومن يعظّم شعائر اللَّه فإنّها من تقوى القلوب لكم فيها منافع إلى أجلٍ مسمّى (۳).

۸- الحجّ أشهرٌ معلوماتٌ... وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى... (۴).

إن تكثيف الإضاءة على فلسفة الحج، وحِكَم ممارسة الشعائر المرتبطة به، هو أسلوبٌ متميّز فى بناء الإنسان وتربيته وصياغة تصوّراتهصياغةً تجمع بين طيّاتها روح التعبّد والتعقّل معاً من دون أن يَسلُبَ التعقُّلُ روحَ التعبّد من الإنسان العاقل، وإنّما يتسامى بتقواه ليبلغ مرتبة أُولى الألباب، فيتكامل عقلًا ويتسامى روحاً، وهو يمارس هذه الشعائر بوعى وجدٍّ واهتمام.

ويمكن تلخيص هذه الأهداف التى نصّ عليها الكتاب العزيز فيما يلى:

۱- ذكر اللَّه وحده فى كلّ حال ومجال وعلى كلّ شيء، واجتناب رجس الشرك على كلّ المستويات تصوّراً واعتقاداً وتعلّقاً وسلوكاً.

۲- تنمية روح التقوى التى بها فلاح الانسان وفوزه على أُسس التوحيد الخالص.

۳- الانتفاع من موسم الحج وشعائره على شتّى الأصعدة: اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً فضلًا عن التكامل الثقافى فى مثل هذا الموسم الفريد، والتسامى الروحى والمعنوى فى جميع لحظات هذا الموسم.

ويتفرّد القرآن الكريم باسلوبه الخاصّ لبيان قوانينه وأحكامه بياناً يتناغم مع منطق العقل ومنطق العاطفة، ويجمع بين متطلّبات العقل، متطلّبات الروح معاً.

قال تعالى:

۱) وللَّه على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلًا ومن كفر فإنّ اللَّه غنيٌّ عن العالمين (۵).

۲) وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً واتخذوا من مقام

۱- ۱ الحج: ۲۷.

۲- ۲ الحج: ۳۰.

۳- ۳ الحج: ۳۲.

۴- ۴ البقرة: ۱۹۷.

۵- ۵ آل عمران: ۹۷.

ص: ۵۳

إبراهیم مصلّی (۱).

فاللّه سبحانه- الـذی له المولویـة المطلقة وله الخلق وحقّ النعمة علی جمیع الناس- یجعل أداء هذا الواجب أداءً لحقّه، والإعراض عنه کُفراناً للنعم الإلهیـة وکفراً عملیاً بالمنعم، ولا یکون أداؤه تلبیـة لهذا الحق لحاجةٍ منه تعالی إلی أعمال عباده، بل یعود نفعه إلی الناس أنفسـهم. ومثل هذا القانون الذی ینطلق تشـریعه للناس من مصالح العباد أنفسهم، ولا یکون للمشرِّع فیه أی غرض أو مصلحة شخصیة، لایجد الانسان الطائع فی أدائه ثقلًا وحرجاً مهما کانتصعوبته.

ویأتی الاهتمام ببیان الجـذور التاریخیـة العریقة لهذه الشـعائر معلماً من معالم المنهج القرآنی؛ لإرساء قواعد هذه الفریضة فی المجتمع الإسلامی.

إن رفع إبراهیم وإسـماعیل علیهما السـلام لقواعد البیت یشـیر إلی أن بیت اللّه الحرام قد سـبق وضـعه للناس عصر إبراهیم الخلیل علیه السـلام، والاهتمام ببیان دور إبراهیم علیه السـلام وإسـماعیل علیه السـلام فی تشـیید دعائم هذا البیت العتیق وأمره بأن یؤذن فی الناس بالحجّ بعد تشیید دعائمه.

واستمرار الناس فی إقامة شعائره کرمز من رموز الحنیفیة..

لَـدلیل علی أهمیـة بیان الجـذور التاریخیـة لهذه الفریضة المبارکة، ومدی تأثیر ذلک فی إرساء قواعد الحرکة التصـحیحیة والتکاملیة، التی خطاها القرآن الکریم باتجاه تعمیق هذا التیار فی المجتمع الإسلامی الفتیّ.

أهل البیت علیهم السلام علی خُطی القرآن الکریم

لم یتخطّ أهل البیت علیهم السلام هدی القرآن الکریم فی سیرتهم وسنّتهم، التی هی تجسید وامتداد لسنّة الرسول العظیم.

إنّ ما تضـمّنته مصادر السیرة والتاریخ فیما یخصّ تعامل أهل بیت الوحی مع الحج فی مجال العمل والتطبیق، لا یقلّ روعةً وعظمةً عمّا تضمّنته کتب الحدیث من نصوصهم

۱- ۱ البقرة: ۱۲۵.

ص: ۵۴

الكثيرة حول الحج ومعالمه وفلسفته وتأريخه، وشكله ومضمونه وترامى أبعاده وعمق عرفانه، وتجلية الجانب العبادى فيه.

الحجّ فى سيرة أهل البيت عليهم السلام ونصوصهم

لقد تميّز الحج فى سيرة أهل البيت عليهم السلام العملية، وتميّزت سيرتهم فى مجال الاهتمام بالحجّ حتى ورد أنّ عبّاداً البصرى لقى الإمام على بن الحسين زين العابدين عليه السلام فى طريق مكة فقال له: يا على بن الحسين تركت الجهاد وصُعوبته، وأقبلت على الحجّ ولينه إنّ اللّه عزّوجلّ يقول: إنّ اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة يقاتلون فى سبيل اللّه...؟!

فقال على بن الحسين عليه السلام: أتمّ الآية. فقال: التائبون العابدون... الآية. فقال على بن الحسين عليه السلام: إذا رأينا هؤلاء الذين هذهصفتهم، فالجهاد معهم أفضل من الحجّ (۱). أو قال: إذا ظهر هؤلاء لم نؤثر على الجهاد شيئاً (۲).

وقد حجّ الإمام الحسن السبط خمساً وعشرين حجّة ماشياً على قدميه، وكانت النجائب تقاد بين يديه. وسُئل عن كثرة حجّه ماشياً فأجاب: إنّى أستحى من ربّى أن لا أمضى إلى بيته ماشياً على قدمى (۳).

ونقل مثل هذا عن الإمام أبى عبداللّه الحسين عليه السلام أيضاً (۴).

وأمّا زين العابدين (على بن الحسين عليه السلام) فقد كان ملازماً للحج منذصغره، وكان يحجّ ماشياً وراكباً، وكان يدعو إلى تكريم الحجّاج إذا قدموا من بيت اللّه الحرام قائلًا:

استبشروا بالحجّاج إذا قدموا وصافحوهم وعظّموهم، تشاركوهم فى الأجر قبل أن تخالطهم الذنوب (۵).

وكان إذا أراد السفر إلى بيت اللّه الحرام احتفّ به القرّاء والعلماء، حيث إنهم كانوا يكتسبون منه العلم والعرفان والحِكم والآداب حتى قال سعيد بن المسيّب: إنّ القرّاء كانوا لا يخرجون إلى مكة حتى يخرج على بن

۱- ۱ وسائل الشيعة ۱۱: ۳۲ الحديث ۳ و ۶.

۲- ۲ المصدر نفسه.

۳- ۳ حياة الإمام الحسن بن على ۱: ۳۲۷- ۳۲۸.

۴- ۴ حياة الإمام الحسين بن على ۱: ۱۳۴.

۵- ۵ حياة الإمام زين العابدين عليه السلام ۱: ۲۲۶.

ص: ۵۵

الحسین، فخرج وخرجنا معه ألف راکب (۱).

وکان یهتم علیه السلام بسنن الحج بشکل کبیر، ویُقبل علی اللَّه تعالی بکلّ إخلاص وخشیهٔ حتی إنه کان إذا أراد التلبیهٔ عند عقد الإحرام اصفر لونه واضطرب، ولم یستطع أن یلبّی، فقیل له: مالَکَ لا تُلبی؟ فیجیب وقد أخذته الرعدهٔ والفزع من اللَّه: أخشی أن أقول: لبیک فیقال لی: لا لبّیک.

وکان إذا لبّی غشی علیه من کثرهٔ خشیته من اللَّه، وسقط من راحلته، ولاتزال تعتریه هذه الحالهٔ حتی یقضی حجّه (۲).

وهناک ظاهرتان مهمّتان فی سیرهٔ أهل البیت علیهم السلام فی حجّهم:

الاولی: ظاهرهٔ کثرهٔ الدعاء وشدّهٔ الإقبال علی اللَّه تعالی بالأدعیهٔ الطویلهٔ الزاخرهٔ بالمفاهیم التربویهٔ والمعرفیهٔ العالیهٔ مثل دعاء الإمام الحسین علیه السلام المعروف بدعاء عرفهٔ، ولعلّه أطول دعاء من نوعه، ویناظره دعاء الإمام زین العابدین فی الصحیفهٔ السجّادیهٔ الخاص بیوم عرفهٔ أیضاً.

قال بشر وبشیر الأسدیان: کنّا مع الحسین بن علی علیهما السلام عشیهٔ عرفهٔ فخرج علیه السلام من فسطاطه متذللًا خاشعاً، فجعل یمشی هوناً هوناً حتی وقف هو وجماعهٔ من أهل بیته وولده وموالیه فی میسرهٔ الجبل مستقبل البیت، ثم رفع یدیه تلقاء وجهه کاستطعام المسکین وقال:

«الحمد للَّهالذی لیس لقضائه دافع، ولا لعطائه مانع، ولا کصنعهصنعصانع، وهو الجواد الواسع...

وممّا قال بعد أن دعا طویلًا وکانت دموعه قد جرت علی سحنات وجهه الشریف:

«اللهم اجعلنی أخشاک کأنی أراک، واسعدنی بتقواک ولا تشقنی بمعصیتک وخر لی فی قضائک وبارک لی فی قدرک، حتی لا أحبّ تعجیل ما أخّرت ولا تأخیر ما عجّلت، اللهم اجعل غنای فی نفسی والیقین فی قلبی والاخلاص فی عملی...

الثانیهٔ: ظاهرهٔ العرفان العمیق

۱- ۱ المصدر ۱: ۲۲۷.

۲- ۲ المصدر ۱: ۲۲۸.

ص: ۵۶

لهذه الفریضة، وتجاوز مظاهرها باتجاه باطنها، والغور فی أعماقها، فلکلّ عمل ظاهر وباطن، ولکل شعیرة مظهر وواقع، وبالرغم من أن الاهتمام بمظاهر الحجّ یحقّق أهدافاً جُلّی، وقد دعا الأئمّة علیهم السلام المسلمین إلی الاهتمام بهذه المظاهر، ولکن الأئمّة أنفسهم لم یقفوا عند حدود المظهر، بل کانوا لا- یعتبرون الحجّ حجّاً إلّاإذا نفذ الانسان إلی أعماقه. وهناک نموذج ممّا أثر عن الإمام زین العابدین علیه السلام فی هذا الصدد، وذلک فی حدیثه مع الشبلی بعد أن حجّ والتقی بالإمام علیه السلام (۱).

الهوامش:

۱- ۱ راجع العدد الرابع من مجلة میقات الحج، للاطلاع علی تفصیل الحدیث.

المدينة المنورة فضلها وقداسة ارضها

ص: ۵۸

المدينة المنورة فضلها وقداسة أرضها

محمد جواد الطبسى

المدينـة.. بلدة مقدّسة، وأرض طاهرة،.. أسـكنها اللّه تعالى أعزَّ الأنفس وأحبّها إليه رسوله الكريم.. نزلت فيها أكثر آيات القرآن.. هى دار الأبرار ودار الأخيار، هى دار الإيمان ودار الهجرة.. هى مدينـة الإسـلام وقريـة الأنصار.. هى حرم الرسول ومهاجر النبىّ والآل.. هى مـدفن النبى ومهبـط الملائكـة. فيهـا الروضـة المقدّسـة والمسـجد النبوى.. وفيهـا قبا ومراقـد أصـحاب الكساء.. هى طيبـة طابـة وجابرة ومجبورة.. فسلام على هذه التربة العطرة والبلدة الطاهرة، وسلام على مَن شرّفها وزادها قداسة.

وبعد فهذه روايات يسيرة من عشرات الروايات حول فضل المدينة المنورة، رتبناها تحت ثمانية عشر عنواناً.

۱- المدينة المنوّرة أفضل من مكّة:

وممّا يـدل على قداسـة هـذه البلدة الطاهرة أنها أفضل من مكة المكرّمة؛ لما ضـمّت أعضاء النبىّ الكريم، الذى هو أعزّ من الكعبة عند اللّه تعالى.

ص: ۵۹

وقد اختلف الباحثون حول أفضلیة المدینة علی مکّة، فمنهم من فضّل المدینة علی مکة، ومنهم من قدّم مکة علی المدینة من حیث الفضل، ولکل أدلّة ولا داعی إلی إطالة الکلام فی هذا المقال، ونکتفی بذکر ما قاله السمهودی: قد انعقد الإجماع علی تفضیل ما ضَمَّ الأعضاء الشریفة حتی علی الکعبة المنیفة، وأجمعوا بعدُ علی تفضیل مکة والمدینة علی سائر البلاد واختلفوا أیّهما أفضل، فذهب عمر بن الخطاب وابنه عبداللَّه ومالک بن أنس وأکثر المدنیین إلی تفضیل المدینة...

وحکایة الإجماع تفضیل ما ضمّ الأعضاء الشریفة نقله القاضی عیاض وکذا القاضی أبو الولید الباجی قبله، کما قال الخطیب ابن جملة، وکذا نقله أبو الیمن ابن عساکر وغیرهم مع التصریح بالتفضیل علی الکعبة الشریفة، بل نقل التاج السبکی عن ابن عقیل الحنبلی أن تلک البقعة أفضل من العرش (۱).

وأضاف السخاوی: ولاشک فی أن مواضع الأنبیاء وأرواحهم أشرف ممّا سواها من الأرض والسماء، والقبر الشریف أفضلها؛ لما تتنزل علیه من الرحمة والرضوان والملائکة التی لا یعلمها إلّامانحها، ولساکنه عند اللَّه من المحبة والاصطفاء ما تقصر العقول عن إدراکه، ویعمّ الفیض من ذلک علی الأمة، سیما من قصده وأمّه (۲).

ویکفیک ما رواه معاویة بن خدیج عن النبیصلی الله علیه و آله فی هذا المجال قال: أشهد سمعت رسول اللَّهصلی الله علیه و آله یقول: المدینة خیر من مکة (۳).

۲- المدینة المنوّرة أحبّ الأرض إلی اللَّه:

ومن فضائل المدینة المنورة أنها أرض أحبّها اللَّه عزّوجلّ واختارها لنبیه أن یکون بها سکناه ومضجعه بعد أن کان یحب مکة المکرمة.

کما روی عنهصلی الله علیه و آله أنه قال حین توجّه إلی الهجرة: اللهمّ إنک قد أخرجتنی من أحبّ أرضک إلیّ، فأنزلنی أحبّ أرض إلیک، فأنزله المدینة، فلما نزلها قال: اللّهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً واسعاً (۴).

۱- ۱ وفاء الوفاء ۱: ۲۸.

۲- ۲ التحفة اللطیفة ۱: ۴۲.

۳- ۳ وفاء الوفاء ۱: ۳۷.

۴- ۴ معجم البلدان ۵: ۸۳.

ص: ۶۰

۳- المدينة المنورة حرم رسول اللَّهصلى الله عليه و آله:

للَّه تبارک وتعالى حرم، كما أنّ لرسول اللَّهصلى الله عليه و آله ولعلى بن أبى طالب ولأهل البيت حرماً، وحرم اللَّه مكـة المكرمة وحرم رسوله المدينـة المنورة، وحرم على الكوفة، وحرم العترة الطاهرة قم المقدسة على ما روى عن الصادق عليه السلام حينما دخل عليه من أهل الرى فقال: مرحباً بإخواننا من أهل قم. فقالوا: نحن من أهل الرى.

فأعاد الكلام. قالوا ذلک مراراً وأجابهم بمثل ما أجاب به أولًا، فقال: إن للَّهحرماً وهو مكـة، وإنّ للرسولصلى الله عليه و آله حرماً وهو المدينـة، وإنّ لأمير المؤمنين عليه السلام حرماً وهو الكوفة، وإن لنا حرماً وهو بلدة قم، وستدفن فيها امرأة من أولادى تسمّى فاطمة فمن زارها وجبت له الجنّة.. (۱).

وللحرم حدود كما أنّ له حرمة، وعلى الذى يدخل الحدود يجب أن يراعى حرمته، ولكن الفرق بين حرم اللَّه وحرم رسوله هو أن ما قيل من الإحرام واجتناب الصيد وقطع الأشجار وغير ذلک من المحرمات يختصّ بمكـة المكرمة، ولا يجب مراعاة هذه المسائل فى المدينة المنورة، وإن جاء التصريح باجتناب الصيد وقطع الأشجار فيها كما فى الأحاديث المروية عنهم عليهم السلام وكما سنوافيک به إن شاء اللَّه.

حدود حرم الرسولصلى الله عليه و آله:

وأمّا حدود حرم الرسولصلى الله عليه و آله فقد روى ابن مسكان عن أبى بصير عن أبى عبداللَّه عليه السلام فى ذلک قال: حد ما حرّم رسول اللَّهصلى الله عليه و آله من المدينة من ذباب إلى واقم والعريض والنقب من قبل مكة (۲).

حكم الصيد وقطع الأشجار فى حرم الرسولصلى الله عليه و آله:

لقد سئل أهل البيت عليهم السلام عن حكم الصيد، وقطع الأشجار فى حرم الرسولصلى الله عليه و آله، فمرّة أجابوا بأنه لا يجب المراعاة، كما يجب فى الحرم المكى، واخرى فرّقوا بين الصيد وقطع الشجر، وثالثة بعدم الفرق.

۱- ۵ سفينة البحار ۲: ۴۴۶.

۲- ۶ بحار الأنوار ۹۶: ۳۷۶.

ص: ۶۱

- عن يونس بن يعقوب قال: سألت أبا الحسن موسى. يحرم عليّ فی حرم رسول اللّه ما يحرم فی حرم اللّه عزّوجلّ؟ قال: لا (۱).

- وعن الصدوق بسنده عن الحسن بن الصيقل قال: قال أبو عبداللّه كنت جالساً عند زياد بن عبيد اللّه وعنده ربيعة الرأی، فقال له زياد: يا ربيعة ما الذی حرم رسول اللّهصلی الله عليه و آله من المدينة؟ فقال له: بريد فی بريد، فقلت لربيعة: فكانت علی عهد رسول اللّه بريد؟ فسكت ولم يجبنی، قال: فأقبل علی زياد، فقال: يا أبا عبداللّه فما تقول أنت؟

فقلت: حرم رسول اللّه من المدينة من الصيد بين لابتيها، قال: وما لابتيها؟

قلت: ما أحاط به الحرار. قال: فقال لی: ما حرم رسول اللّه من الشجر؟

قلت: من عير إلی وعيرة (۲).

- وعن معاوية بن عمار قال: سمعت أبا عبداللّه يقول: ما بين لابتی المدينة ظل عاير إلی ظل وعير حرم. قلت: طائره كطائر مكة؟ قال: ولا يعضد شجرها (۳).

ولكن بملاحظة الرواية الاولی الدالة علی جواز الصيد وقطع الشجر، خصوصاً بملاحظة عدم وجود فتوی تنص علی الحرمة، لابدّ من أن تحمل الرواية الثانية والثالثة وما شابهها علی الكراهة.

۴- حبّ النبیِّ المدينة المنورة:

كان النبیصلی الله عليه و آله يحب المدينة حبّاً شديداً حتی إنّه لما كان يقدم من سفرٍ إلی المدينة، وينظر إلی جدرانها كان يحرِّك دابته من حبّها.

قال العباسی: وروينا من حديث أنس قال: لم يكن رسول اللّهصلی الله عليه و آله يقدم من سفر، فينظر إلی جدران المدينة إلّاوضع دابته من حبّها (۴).

وروی أيضاً عن جابر بن سمرة قال: كان رسول اللّهصلی الله عليه و آله: إذا قدم فنظر إلی جدران المدينة أوضع راحلته، وإن كان علی دابة حرّكها من حبّها (۵).

۱- ۷ المصدر نفسه: ۳۷۵.

۲- ۸ المصدر نفسه: ۳۷۶.

۳- ۹ المصدر نفسه.

۴- ۱۰ عمدة الأخبار: ۶۶.

۵- ۱۱ المصدر نفسه: ۸۶.

ص: ۶۲

۵- المدينة المنورة مخصوصة بكثرة الأسماء:

وسبقت هذه المدينة المقدسة سائر البلدان بكثرة الأسماء والصفات، فقد ذكر في التوراة أن للمدينة أحد عشر اسماً، فهى المدينة والمحبة والمحبوبة وطيبة وطابة والمسكينة وجابرة والمجبورة والعذراء والقاصمة (۱).

وعقد العباسي باباً خاصاً يختصّ بأسماء المدينة المنورة، وقد أنهاها إلى سبعة وخمسين اسماً، ورتبها حسب الحروف الهجائية بادئاً باثرب ومنتهياً بيندد. وقال في آخر الباب: وجدت في بعض التواريخ تعداد أسماء المدينة وهي أربعة وتسعون.

ونقل ابن زبالة: أن عبدالعزيز بن محمد الدراوردي قال: بلغني أن للمدينة في التوراة أربعين اسماً (۲).

وأمّا ما جاء على لسان النبيِّ حول أسماء المدينة فهي تسعة، كما رواه زيد بن أسلم قال: قال رسول اللّهصلى الله عليه و آله: للمدينة أسماء هي: المدينة وطيبة وطابة وسكينة وجابرة وتندر ويثرب والدار (۳).

۶- المدينة المنورة محروسة بالملائكة:

ومن فضائل هذه البلدة المقدسة أنها محفوظة ومحروسة من قبل اللّه جلّ وعلا بإرساله ملائكته؛ ليحفظوا هذه المدينة من الدجال، ولذلك فإن الدجال يدخل كلّ بلدة، بل ويدخل رعبه كلّ البلاد إلّاالمدينة المنورة.

ففي مسند أحمد في حديث عن النبيِّصلى الله عليه و آله قال: إن المدينة مشبكة بالملائكة على كلّ نقب منها ملكان يحرسانها، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال، من أرادها بسوء أذابه اللّه، كما يذوب الملح في الماء (۴).

وروى ابن النجار عن الصحيحين من حديث أنس عن النبيِّصلى الله عليه و آله، أنّه قال:

ليس من بلد إلّاسيطأُه الدجال إلّامكة والمدينة، ليس نقب من نقابها إلّاالملائكةصافين يحرسونها فينزل السبخة، ثم ترتجف المدينة ثلاث رجفات، فيخرج إليه كلّ كافر ومنافق (۵).

۱- ۱۲ المصدر نفسه: ۷۴.

۲- ۱۳ المصدر نفسه: ۵۸ و ۸۴، مرآة الحرمين ۱: ۴۰۷.

۳- ۱۴ المصدر نفسه: ۷۹.

۴- ۱۵ مسند أحمد ۱: ۱۸۳.

۵- ۱۶ أخبار مدينة الرسول: ۳۴.

ص: ۶۳

وأخرج البخاری من حدیث أبی بکر عن النبیصلی الله علیه و آله قال: لا یدخل المدینهٔ رعب المسیح الدجال، لها یومئذٍ سبعهٔ أبواب فی کلّ باب ملک (۱).

۷- ما قصد أحد أهلها بسوء إلّاأذابه اللَّه:

لقد قصد الکثیر من الظلمهٔ والطغاهٔ وأهل الفتنهٔ المدینهٔ وأهلها بسوء، ولکن أبی اللَّه إلّابذوبهم وهلاکهم لما خانوا بأهل المدینهٔ.

روی أحمد بسنده عن عامر بن سعد عن أبیه قال: قال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله:... ولا یریدهم أحد بسوء إلّاأذابه اللَّه ذوب الرصاص فی النار أو ذوب الملح فی الماء (۲).

وقال ابن النجار: وخرّج البخاری فیصحیحه من حدیث سعد بن أبی وقاص عن النبیصلی الله علیه و آله أنه قال: لا یکید أحد أهل المدینهٔ إلّاانماع کما ینماع الملح فی الماء (۳).

قلت: المراد من لا یریدهم أو لا یکیدهم إلّاأذابه ذوب الرصاص، أو انماع کما ینماع الملح فی الماء هو: أنّ الظالم إذا قصدهم وهتک حریمهم وجنی علیهم سوف لا یمهله اللَّه عزّوجلّ ویفنیه، لا أنّه المراد منه لا یقترب المدینهٔ أبداً، نعم الذی لا یدخل المدینهٔ المنورهٔ هو الدجال فقط. ویشهد علی ما نقوله ما جاء فی التواریخ من کثرهٔ الهجوم علی أهل المدینهٔ وقتلهم مرّات عدیدهٔ، کما دخلها مسلم بن عقبهٔ وقتل من قتل منهم، وجنی بحقهم ما یعجز اللسان عن بیانه:

قال إبراهیم بن علی العیاشی واصفاً ما جناه مسلم بن عقبهٔ وأذنابه الذین أرسلهم یزید بن معاویهٔ لإباحهٔ المدینهٔ: إنّ یزید أعطاهصکّاً بکأسها لیلغ فیه متی شاء، أجازه بإباحهٔ أهل المدینهٔ ثلاثهٔ أیام، وهو أجاز لنفسه الانتقام من أصفیاء اللَّه الکرام، إن وضعت السیوف فی قراباتها فإن مسلماً لم یضع بعد سیف حقده وفی یده مقبضته، لم یزل کالثور الهائج قتل من قتل من خیار هذه الامّهٔ، ولا تزال نفسه الخبیثهٔ تتشوّق إلی القتل والأذی.. قال المجد: إنّهم سبوا الذریهٔ واستباحوا الفروج، وأنه یقال لأولئک الأولاد من النساء اللاتی حملن أولاد الحرّهٔ. ویقول ابن الجوزی عن أبی قرهٔ قال هشام بن حسان: ولدت بعد الحرهٔ ألف حرّهٔ من غیر

۱- ۱۷ المصدر نفسه.

۲- ۱۸ مسند أحمد ۱: ۱۸۴.

۳- ۱۹ أخبار مدینهٔ الرسول: ۳۳.

ص: ۶۴

زوج.. (۱).

۸- إنّ غبارها شفاء من كلّ داء:

وردت روايات عديدة فى الصحاح وغيرها دالّة على قداسة هذه التربة الطاهرة، وأنها شفاء من الجذام والبرص بل من كلّ سقم، وإليك بعض ما ورد:

- روى العباسى عن محمد بن موسى بنصالح من ولدصيفى بن عامر عن أبيه عن جده قال: أقبل رسول اللّهصلى الله عليه و آله من غزاة غزاها، فلما دخل المدينة أمسك بعض أصحابه على أنفه من ترابها، فقال رسول اللّهصلى الله عليه و آله: والذى نفسى بيده، إنّ تربتها لمؤمنة، وإنّها لشفاء من الجذام (۲).

- وعن أبى سعيد الرازى الحافظ فى كتابه قال: حدّثنا عبد الرحمن بن أبى حاتم، حدّثنا سليمان بن داود، حدّثنا أبو غزية، حدّثنا عبدالعزيز بن عمران عن محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن ثابت بن قيس بن شماس عن أبيه قال: قال رسول اللّهصلى الله عليه و آله: غبار المدينة شفاء من الجذام (۳).

- وعن سعد أن رسول اللّهصلى الله عليه و آله لمّا رجع من تبوك تلقّاه رجال من المتخلفين المؤمنين، فثار غبار فخمّر من كان مع رسول اللّهصلى الله عليه و آله أنفه، فأزال رسول اللّهصلى الله عليه و آله اللثام عن وجهه وقال: والذى نفسى بيده، إنّ غبارها شفاء من كلّ داء.. (۴).

- وعن ابن النجار قال: وحدّثنا ابن زبالة عن إبراهيم بن الحارث عن أبى سلمة: أن رجلًا اتى به رسول اللّهصلى الله عليه و آله وبرجله قرحة، فرفع رسول اللّهصلى الله عليه و آله طرف الحصير، ثم وضع إصبعه التى تلى الإبهام على التراب بعدما مسّها بريقه فقال: بسم اللّه ريق بعضنا بتربة أرضنا يشفى سقيمنا بإذن ربّنا، ثم وضع اصبعه على القرحة، فكأنما حلّ من عقال (۵).

۹- دعاء النبى لذهاب الحمّى والوباء عنها:

ودعا النبيصلى الله عليه و آله لهذه المدينة الطاهرة أن يدفع اللّه عنها سقم الحمّى والوباء، بعدما كان أهلها يعانون الحمّى بأشد ما يكون.

۱- ۲۰ المدينة بين الماضى والحاضر: ۳۴۳.

۲- ۲۱ عمدة الأخبار: ۹۳.

۳- ۲۲ أخبار مدينة الرسول: ۲۸، عمدة الأخبار: ۲۷۳ و ۴۴۷.

۴- ۲۳ عمدة الأخبار: ۸۹ و ۴۴۷، وفاء الوفاء ۱: ۶۷.

۵- ۲۴ أخبار مدينة الرسول: ۲۸.

ص: ۶۵

روی السمهودی عن مسلم عن عائشهٔ قالت: قدمنا إلی المدینهٔ وهی وبیّهٔ، فاشتکی أبو بکر واشتکی بلال، فلمّا رأی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله شکوی أصحابه قال:

اللهم حبّب إلینا المدینهٔ، کما حبّبت مکهٔ أو أشد وصححها، وبارک لنا فیصاعها ومدّها، وحول حُمَّاها إلی الجحفهٔ (۱).

وعن أبی قتادهٔ أنّ النبیّصلی الله علیه و سلمصلّی بأرض سعد بأصل الحرهٔ عند بیوت السقیا ثم قال: «اللهم إنّ إبراهیم خلیلک وعبدک ونبیّک دعاک لأهل مکهٔ، وأنا محمد عبدک ورسولک أدعوک لأهل المدینهٔ مثل ما دعاک به إبراهیم لمکهٔ، أدعوک أن تبارک لهم فیصاعهم ومدهم وثمارهم، اللهم حبّب إلینا المدینهٔ کما حبّبت إلینا مکهٔ، واجعل ما بها من وباء نجم (۲).

قال السمهودی فی علّهٔ دعاء النبی بنقل الحمی إلی الجحفهٔ: لأنّها کانت دار شرک (۳).

۱۰- فضل المجاورهٔ والموت فی المدینهٔ المنورهٔ:

وممّا یدل علی قداسهٔ هذه البلدهٔ أن النبیصلی الله علیه و آله حرّض المسلمین علی المجاورهٔ والبقاء والموت فیها، وضمنصلی الله علیه و آله لمن مات فیها أن یکون شهیداً أو شفیعاً له فی یوم القیامهٔ.

قالصلی الله علیه و آله: من استطاع منکم أن یموت فی المدینهٔ فلیفعل، فإنّه من مات بها کنت له شهیداً أو شفیعاً یوم القیامهٔ (۴).

قال العباسی: ودلالهٔ هذه الأحادیث علی الحث والحض والتحریض علی الإقامهٔ بالمدینهٔ، وطلب الفوز باستیطانها، وقصد السعادهٔ بمجاورهٔ مساحتها ظاهرهٔ واضحهٔ لائحهٔ، فإنّها منبع فیض بحار أنوار الملهٔ الإسلامیهٔ، ومشرق طلوع أقمار السعادهٔ الحقیقیهٔ، والدار التی اختصّها اللَّه لهجرهٔ حبیبهصلی الله علیه و سلم، وظهور دینه، ومحل إعلامه بالحق، وإذعان الخلق، وأحبّ البقاع إلی اللَّه سبحانه، وموطن أحب الخلق إلی اللَّه، ومهبط الملائکهٔ المقرّبین، ومنزل الروح الأمین... (۵).

۱- ۲۵ وفاء الوفاء ۱: ۵۶، أخبار مکهٔ ۲: ۱۵۳ بتفاوت، أخبار مدینهٔ الرسول: ۲۷.

۲- ۲۶ عمدهٔ الأخبار: ۱۸۷.

۳- ۲۷ وفاء الوفاء ۱: ۵۶.

۴- ۲۸ معجم البلدان ۵: ۸۳، الدر الثمین فی معالم دار الرسول الأمین: ۱۴.

۵- ۲۹ عمدهٔ الأخبار: ۳۰.

ص: ۶۶

۱۱- كراهة الهجرة منها:

وممّا يـدل على قداسة أرض المدينة المنورة أنّه يكره لمن سـكنها أن يتركها ويهاجر عنها، كما روى ذلك عن النبى الكريمصـلى الله عليه و آله:

قال محجن بن الأدرع: بعثنى النبيصـلى الله عليه و آله إلى حاشى المدينة فى حاجة، فلما جئت ذهبت معه حتيصعد أحُداً، فأشرف على المدينة فقال: ويل امّك من قرية، كيف يدعك أهلك، وأنت خير ما تكونين (۱).

وعن عليصلوات اللَّه عليه أنّه قال: من خرج من المدينة رغبةً عنها، أبدله اللَّه شرّاً منها (۲).

۱۲- الصبر على الشدّة والجهد فى المدينة:

ورغب النبيصـلى الله عليه و آله حينما كان فى المدينة الصبر على الجهد والبلاء والشدّة فى المدينة المنورة، وكان يبشِّرهم على منصبر منهم أن يكون شفيعهم فى يوم القيامة.

روى ابن النجار بسـنده عن سالم بن عبداللَّه قال: سـمعت أبى يقول: سـمعت عمر بن الخطاب يقول: اشتد الجهد بالمدينة وغلا السعر، فقال النبيصـلى الله عليه و آله: اصبروا يا أهل المدينـة وأبشـروا، فإنّى قـد باركـت عليصاعكم ومدكم، كلوا جميعاً ولا تفرقوا، فأن طعام الرجل يكفى الاثنين، فمنصبر على لأوائها وشـدّتها، كنت له شـفيعاً يوم القيامـة، ومن خرج عنها رغبـةً عمّا فيها، أبدل اللَّه عزّوجل فيها من هو خير منه.. (۳).

وجاء فيصحيح مسلم عن سعيد مولى المهرى، أنه جاء إلى أبى سعيد الخدرى ليالى الحرة، فاستشاره فى الجلاء من المدينة، وشكا إليه أسـعارها وكثرة عياله، وأخبره أن لاصبر له على جهد المدينة ولأوائها فقال: ويحك لا آمرك بذلك، إنّى سمعت رسول اللَّهصلى الله عليه و آله يقول: لا يصبر وفى رواية لا يبيت أحد على لأوائها وجهدها إلّاكنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة (۴).

۱- ۳۰ تاريخ المدينة المنورة ۱: ۲۷۴.

۲- ۳۱ بحار الأنوار ۹۶: ۳۷۸.

۳- ۳۲ أخبار مدينة الرسول: ۳۲، معجم البلدان ۵: ۸۳ بتفاوت.

۴- ۳۳صحيح مسلم ۳: ۱۷۲، وفاء الوفاء ۱: ۳۹، عمدة الأخبار: ۸۶.

ص: ۶۷

۱۳- فضلصيام رمضان فی المدينة المنورة:

ورغّب النبيُّصـلی الله عليه و آله الصـيام وخصوصاًصـيام شـهر رمضان فی المدينـة المنورة، بحيثصارت هـذه من خصائص هـذه البلـدة المقدّسة.

روی السمهودی عن الطبرانی عن بلال بن الحارث قال: قال رسول اللَّهصلی الله عليه و آله:

رمضان بالمدينة خير من ألف رمضان فيما سواها من البلدان.. (۱).

وروی ابن النجار بالإسـناد عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّهصـلی الله عليه و آله:صـيام شـهر رمضان فی المدينة كصـيام ألف شهر فيما سواها (۲).

۱۴- استحباب الصوم لزائر المدينة لقضاء الحاجة:

ويسـتحب لزائر المدينـة أن يصوم ثلاثـة أيام لقضاء حوائجه، والظاهر أنّ هـذا الحكم يختصّ بالمدينـة المنورة ومشاهـد الأئمّـة لا غير؛ لحرمة الصيام فی السفر فرضاً وتطوّعاً عدا ما استثنی (۳). وإليک ما روی:

روی الشـيخ بسـنده عن: موسـی بن القـاسم عن معاويـة بن عمـار عن أبی عبـداللَّه عليه السـلام قـال: إن كان لک مقام بالمدينـة ثلاثة أيامصـمت أول يوم الأربعاء وتصـلّی ليلة الأربعاء عند اسـطوانة أبی لبابة، وهی اسطوانة التوبة التی كان ربط إليها نفسه حتی نزل عذره من السـماء، وتقعـد عندها يوم الأربعاء، ثم تأتی ليلة الخميس التی تليها ممّا يلی مقام النبیصـلی الله عليه و آله ليلتک ويومک، وتصوم يوم الخميس. ثم تأتی الاسـطوانة التی تلی مقام النبیصـلی الله عليه و آله ومصـلاه ليلـة الجمعة، فتصـلی عندها ليلتک ويومک، وتصوم يوم الجمعـة، وإن اسـتطعت أن لا تتكلّم بشـیء فی هذه الأيام إلّاما لابدّ لک منه، ولا تخرج من المسـجد إلّالحاجة ولا تنام فی ليل ولا نهار فافعل، فإن ذلک ممّا يعـد فيه الفضل، ثم احمـد اللَّه فی يوم الجمعـة واثن عليه وصل علی النبیصـلی الله عليه و آله و سلم، وسـل حاجتـک وليكن فيمـا تقول: «اللهم مـا كانت لی إليک من حاجـة شـرعت أنا فی طلبها والتماساً، أو لم أشـرع سألتكها أو لم أسألكها، فإنی أتوجّه إليک بنبيّک محمد نبی الرحمةصلی الله عليه و آله فی قضاء حوائجیصغيرها وكبيرها». فإنّک حری أن

۱- ۳۴ وفاء الوفاء ۱: ۴۳۳.

۲- ۳۵ أخبار مدينة الرسول: ۳۵.

۳- ۳۶ راجع المقنعة: ۳۵۰، التهذيب ۴: ۲۳۲.

ص: ۶۸

تقضى حاجتک إن شاء اللَّه تعالى (۱).

۱۵- فضلصلاة الجمعة فی المدینة المنورة:

روى نافع عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّهصلى الله عليه و آله:صلاة الجمعة بالمدینة کألفصلاة فيما سواها (۲).

۱۶- عود الإيمان إلى المدينة المنورة:

ومن فضائل هذه المدينة وخصائصها أن الإيمان سيعود ويأرز إليها كما تأرز الحية إلى حجرها.

روى مسلم فيصحيحه بسنده عن أبی هريرة: أن رسول اللَّهصلى الله عليه و سلم قال: إنّ الايمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى حجرها (۳).

وروى عن النبی مرفوعاً: ليعودن هذا الأمر إلى المدينة كما بدأ منها حتى لا يكون ايمان إلّابها (۴).

۱۷- استحباب التصدّق فی المدينة المنورة:

وتمتاز أيضاً عن سائر البلدان عدا مكة المكرمة، باستحباب التصدق فيها على الفقراء لمن دخلها.

وعن إبراهيم بن مهزم عمّن يرويه عن أبی عبداللَّه قال: إذا دخلت مكة فاشتر بدرهم تمراً فتصدّق به؛ لما كان منک فی احرامک للعمرة، فإذا فرغت من حجّک فاشتر بدرهم تمراً وتصدّق به، فإذا دخلت المدينة فاصنع مثل ذلک (۵).

۱۸- استحباب الغسل لدخول المدينة المنورة:

ولنختم البحث باستحباب الغسل لمن أراد دخول المدينة المنورة، كما روى عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: ينبغی لمن أراد دخول المدينة زائراً أن يغتسل (۶).

ولم يشرع الغسل إلّالقداسة هذه البلدة الطاهرة والأرض المقدّسة كما أفتى الفقهاء الكبار بذلک.

۱- ۳۷ التهذيب ۴: ۲۳۲.

۲- ۳۸ أخبار مدينة الرسول: ۳۵، وفاء الوفاء ۱: ۴۲۳.

۳- ۳۹صحيح مسلم ۱: ۱۷۷، أخبار مدينة الرسول: ۲۹.

۴- ۴۰ المدينة المنورة فی التاريخ: ۲۵.

۵- ۴۱ بحار الأنوار ۹۶: ۳۷۷.

۶- ۴۲ المصدر نفسه: ۳۷۸.

ص: ۶۹

قال يحيى بن سعيد: ويستحب الغسل لدخول المسجد وزيارة النبيِّصلى الله عليه و آله (۱).

وقال العلّامة الحلّى: والغسل عند دخولها وزيارة فاطمة عليها السلام... (۲).

وقال المحقّق الحلى: يستحب الغسل لدخولها وزيارة النبيصلى الله عليه و آله استحباباً مؤكّداً (۳).

ولاشك فى أن للمدينة المنورة فضائل اخر كما يظهر من أسمائها، ولكن تركنا ذكرها مخافة الإطالة والإسهاب.

الهوامش:

۱- ۴۳ الجامع للشرايع: ۲۳۱.

۲- ۴۴ قواعد الأحكام: ۹۱.

۳- ۴۵ المختصر النافع: ۹۸.

ص: ۷۰

تحديد قرن المنازل

ص: ۷۱

تحدید قرن المنازل

من المعلوم الـذی لاـ شـک فیه ولاـ ریب أنّ المیقات هو قرن المنازل، وإن وقع الإختلاف فی أنه میقات لأهل نجـد أو لأهل الطائف، وإنمـا قصـدنا المیقـات الـذی وقته رسول اللّهصـلی الله علیه و آله، فـإنه قـد یطلق المیقـات علی مکـان الإحرام، وإن کان بالمحاذاهٔ لا بـالتوقیت؛ ولهـذا ورد فی عبارهٔ بعض الکتاب أنّ السـیل میقات أهل نجـد، ووادی محرم میقات أهل الطائف (۱) مـع أنه ذکر أنّ قرن المنازل هو المسـمی الآن بالسیل الکبیر (۲)، والمقصود من هـذا البحث هو تعیین قرن المنـازل ومکـانه، هل هو الواقع فی وادی محرم قریباً من الهدی، أو هو المسمی الیوم بالسیل الکبیر، أو کلاهما واقعان فی وادی قرن المنازل الذی هو المیقات کما ذکر بعضهم؟

هـذا الاختلاـف والالتبـاس الـذی حصل فی هـذا المیقات، حصل بسـبب تقـدم العهـد حیث تغیرت أسـماء کثیر من المناطق، ونسـیت أسـماؤها المعروفـهٔ سابقـاً، وحـدثت لهـا أسـماء جدیـدهٔ بحیث خفیت علی عامـهٔ النـاس، ووجود طریقین بین مکـهٔ والطائف. وهـذان الطریقان- کما ستعرف- قدیمان مذکوران فی کتب

۱- ۱ أودیهٔ مکهٔ- عاتق بن غیث البلادی: ۸ و ۹

۲- ۲ أودیهٔ مکهٔ- عاتق بن غیث البلادی: ۱۸۰

ص: ۷۲

المتقدمين، وإن تغيرت بعض مساراتهما إلا أنهما يمرّان بمكان الإحرام القديم كما سوف يتبين..

إن الاختلاف فى أيهما الميقات شائع بين الناس كما يظهر من استفتآءاتهم للفقهاء، بل هو ظاهر أيضا عند بعض الكتاب، ولهذا فإنّ تحديد الميقات لا يخلو من مشقة، ونحتاج إلى جمع أكبر عدد من القرائن، التى يحصل منها الاطمئنان، ونحن هنا سنحاول أولًا تحديد مكانى الإحرام وهما السيل ووادى محرم، كما هما الآن من أقوال المعاصرين، ثم نشرع فى ذكر القرائن التى تعيِّن لنا الميقات الذى أحرم منه رسول اللّهصلى الله عليه و آله.

التعريف بالسيل الكبير

قرن المنازل قرية فى أسفل (۱) وادى قرن المنازل على الطريق بين مكة والطائف المار بالنخلة اليمانية، وتشرف على قرية البهيتة (البوباة قديماً) الواقعة فيصدر نخلة.

ويظهر من البلادى فى أودية مكة (۲) أن وادى قرن المنازل يقع بين وادى قرن جنوبا ووادى بعج شمالًا، ويقع قرن بين قرن المنازل وبين وادى محرم.

ويبعد وادى السيل عن مكة مسافة ۷۸ كيلو متراً من بطن الوادى و ۷۵ كيلو متراً من المكان الذى يحرم منه المعتمرون (۳).

وقال البلادى (۴): قرن المنازل وهو ما يعرف اليوم باسم السيل، بلدة عامرة على الطريق بين مكة والطائف المار بالنخلة اليمانية، وبها مرصلى الله عليه و آله فى غزوة الطائف ولا زال واديها يسمى قرناً.

وتقع النخلة اليمانية (اليمانية) غرب قرن، بينه وبين يدعان (جدعان) ويصب فيها يدعان من الغرب وهى تصب فى قرن، ويصب وادى دحنا من الشرق وطريق الطائف المار بالسيل يمرّ على الشرايع، ثم يدعان ذات اليسار، ثم النخلة اليمانية ثم السيل (۵).

۱- ۳ اطلاق الأعلى والأسفل هنا بملاحظة مسيل الوادى فإن وادى قرن يسيل من جبال السراة غرب الطائف مارّاً بوادى محرم ثم قرن ثم السيل الكبير ثم بعج

۲- ۴ أودية مكة- عاتق بن غيث البلادى: ۸، ۹ و ۴۶۱

۳- ۵ فى مواقيت الحج والعمرة المكانية: ۷۲

۴- ۶ أودية مكة- عاتق بن غيث البلادى: ۱۸۰

۵- ۷ انظر: أودية مكة- عاتق بن غيث البلادى: ۵۲ و ۳۶۱ و معجم البلدان- ياقوت الحموى :۵ ۷۷۲

ص: ۷۳

التعريف بوادى محرم

وادى محرم وهو المكان الذى يحرم منه الحجاج المارين بالهدا، يسيل من الجبال الواقعة بين جبال غفار غربا وجبل الغمير شرقا، ويقع جنوب وادى قرن فى لحف جبل كرا، ويليه وادى قرن من الشمال ووادى الغدير من الجنوب، ومن الجنوب الشرقى يقع وادى مسرة ثم الطائف، ومن الغرب تقع قرية الهدى على الطريق إلى مكة (۱).

ويظهر من بعضهم أن وادى محرم هو أعلى وادى قرن، كما أنّ قرن المنازل هو أسفله (۲).

وطريقه يمرّ بجبل كرا ثم وادى نعمان ثم عرفات، كما سيأتى فى ذكر طرق الطائف إلى مكة.

القرائن التى تحدّد وتعين قرن المنازل

هنا سنشرع فى ذكر القرائن، التى يستفاد منها فى تعيين محل قرن المنازل وتعينه.

الأول: أقوال العلماء والمحققين فى أن قرن المنازل هو السيل:

رشدى الصالح ملحس (۳): قرن المنازل فى طريق نجد واليمن من جهة السراة ويسمى اليوم السيل.

عبد الجبار وعبد العزيز الرفاعى (۴): ثم سارت السيارة وبعد ساعتين هبت ريح باردة فقال الشيخ: أقبلنا على السيل الكبير وهو الذى كان يعرف قديماً بقرن المنازل وفيه يحرم القادمون من الطايف ونجد إلى مكة.

الشيخ محمد بن الشيخ عبداللّه آل عيثان المتوفى فى ۲۶/ ۱۲/ ۱۳۳۱ ه: نقل الشيخ فرج آل عمران فى الأزهار الأرجية (۵) قال: سمعت من الحاج محمد بن حسين المؤمن الإحسائى المتوفى يوم الأربعاء ۲۳/ ۴/ ۱۳۶۳ ه أنه حجّ مع العلّامة الشيخ محمد بن الشيخ عبد اللّه آل عيثان المتوفى ۲۶/ ۱۲/ ۱۳۳۱ ه وكان حجهم

۱- ۸ انظر: أودية مكة- عاتق بن غيث البلادى: ۸ و ۴۶۱- أخبار مكة- الأزرقى ۲: ۱۳۰.

۲- ۹ تقدم بيان الأعلى والأسفل.

۳- ۱۰ تعليقة على أخبار مكة للأزرقى ۲: ۱۳۰

۴- ۱۱ المطالعة السعودية: ۷۲

۵- ۱۲ الأزهار الأرجية: ۸: ۱۴۰

ص: ۷۴

علی الأباعر، ولما وصلوا العشیرة أراد الحجاج أن یحرموا منها فمنعهم الشیخ محمد قائلا: المیقات الصحیح هو وادی السیل، وهو الذی وقته رسول اللَّه لإهل الطائف، فأخروا احرامهم إلیه.

الشیخ فرج العمران- الأزهار الأرجیة (۱): وفی ضحی الیوم المؤرخ (الثلاثاء التاسع عشر من الشهر، أی ۱۹ رجب ۱۳۹۲ ه) وصلنا محرم الطائف، وهو المسجد الکائن موقعه فی قرن المنازل المعروف بوادی السیل.

وقال (۲): وفی عصر الیوم المؤرخ وصلنا محرم الطائف وهو قطعة من وادی السیل أی قرن المنازل، وهو أحد المواقیت التی وقتها رسول اللَّه لأهل الآفاق، وقد وقت قرن المنازل لأهل الطائف ومن یمرّ به من أهل الآفاق، فاغتسلنا منها غسل إحرام العمرة التمتعیة.

وقال (۳): السبت الثانی عشر رجب ۱۲۸۸: وفی ضحی الیوم المؤرخ وصلنا محرم الطائف، فاغتسلنا غسل إحرام العمرة المفردة، وصلینا رکعتین نافلة الإحرام، ثم أحرمنا ونحن فی المسجد الکائن موقعه فی قرن المنازل المعروف بوادی السیل.

وقال (۴): المحرم المعروف الآن بالسیل هو أحد المواقیت التی وقتها رسول اللَّه لأهل الآفاق، وهو المعروف بقرن المنازل الذی وقته لأهل الطائف، وهو علی مرحلتین من مکة من جهة الشرق.

وقال بعد ذلک: أقول: من ملاحظة مجموع ما ذکرنا لا ینبغی التشکیک فیصحة الإحرام من وادی السیل، وأنه هو قرن المنازل، ولیت شعری ماوجه الإحرام من العشیرة بعد الإحاطة بما ذکرنا، ولعلّهم یزعمون أنه من باب الاحتیاط الذی لا یخلو هنا من الاختباط، واللَّه الهادی إلی سواء الصراط؟!

الشیخ سلیمان بن الشیخ عبداللَّه بن الشیخ محمد بن عبد الوهاب (۵) قال: فإذا وصلت إلی المیقات الذی وقته رسول اللَّه لأهل نجد وهو قرن المنازل (السیل)...

۱- ۱۳ الأزهار الأرجیة: ۴۱: ۸۴۴

۲- ۱۴ الأزهار الأرجیة: ۲۱: ۳۰۱

۳- ۱۵ الأزهار الأرجیة: ۸: ۷۷۲

۴- ۱۶ الأزهار الأرجیة: ۸: ۱۴۰

۵- ۱۷ تحفة الناسک بأحکام المناسک ط ۱۳۶۴ ه- ط مکة المکرمة: ۶

ص: ۷۵

محمدطاهر الکردی (۱): ومیقات المتوجه من نجد ونجد الیمن ومن الطایف قرن بفتح القاف وسکون الراء ویقال لها قرن المنازل، وهی علی مرحلتین من مکة لنجد، وهی تعادل السیل الکبیر. یحرم منه أهل نجد الآن، وقد توهم بعضهم أن قرن المنازل هوقرن الثعالب ولیس بصحیح، بل هما موضعان، فقرن الثعالب قریب من عرفات ولیس من المواقیت، وقرن المنازل هو الموازی للسیل الکبیر هو المیقات المعروف.

قال حمد الجاسر (۲): قرن هو قرن المنازل محل الإحرام، ویعرف الآن باسم السیل الکبیر فیه قریة

وقال (۳): وقرن المنازل یعرف باسم (السیل).

البلادی (۴): فإذا انحدر سمی السیل وهو میقات أهل نجد، والمرحلة الثانیة من مکة علی نظام القوافل القدیمة عن طریق نخلة الیمانیة.

وقال (۵): قرن المنازل علم معروف مشهور فی کتب الأدب، وهو ما یعرف الیوم باسم (السیل الکبیر)، بلدة عامرة علی الطریق بین مکة والطائف المار بنخلة الیمانیة، وهی میقات أهل نجد، وبها مرّصلی الله علیه و آله فی غزوة الطائف، ولا زال وادیها یسمی قرناً.

وقال (۶): [البوباة] وهی تعرف الیوم بالبهیتة، تقع فیصدر نخلة الیمانیة، تخرج منها علی السیل الکبیر وهو میقات أهل نجد، وکان یعرف بقرن المنازل.

عبد الملک دهیش (۷): وأصل نخلة واد رأسه من البوباة (البهیتة الیوم) عند بلدة قرن المنازل (السیل الکبیر) إلی قریة الزیمة.

وقال الفاکهی (۸): وقرن المنازل وهو وقت من الأوقات، التی وقتها رسول اللّهصلی الله علیه و آله...، وقال دهیش فی الحاشیة (۹): یعرف الیوم بالسیل الکبیر وقد اقیم فیها مسجد کبیر یحرم منه مَن مرّ علی هذا الطریق طریق الطائف من أهل نجد وغیرهم، وتبعد عن مکة ۸۰ کم وعن الطائف.

۱- ۱۸ التاریخ القویم لمکة وبیت اللّه الکریم ۴: ۸۸۲ المطبوع سنة ۱۳۸۵ ه

۲- ۱۹ حاشیته علی کتاب المناسک للحربی: ۶۴۵

۳- ۲۰ حاشیته علی کتاب المناسک للحربی: ۳۵۲

۴- ۲۱ أودیة مکة- عاتق بن غیث البلادی: ۹

۵- ۲۲ أودیة مکة- عاتق بن غیث البلادی: ۱۸۰

۶- ۲۳ معالم مکة- عاتق بن غیث البلادی: ۴۴.

۷- ۲۴ تعلیقة علی کتاب أخبار مکة للفاکهی- عبد الملک بن دهیش ۵: ۹۸.

۸- ۲۵ أخبار مکة- الفاکهی ۵: ۱۰۰

۹- ۲۶ حاشیة أخبار مکة للفاکهی- عبد الملک بن دهیش ۵: ۱۰۰

ص: ۷۶

مساعد بن قاسم الفالح (۱): المیقات الثالث: قرن المنازل،... وهو میقات لأهل نجد، ویحرم منه الآن حجاج المشرق، الذین یسلکون الطریق البری المعبد، وقد اشتهر هذا المیقات الآن باسم السیل الکبیر، ویتصل هذا الوادی بوادی محرم المسمی أیضا قرناً، والذی یمرّ به الطریق المسمی کرا المتّجه إلی مکۀ.

مجلۀ الفیصل (۲): میقات أهل الطائف (قرن المنازل) وهو المسمی الآن ب (السیل الکبیر).

فوائد متممۀ:

کان والدی رحمه اللَّه کما نُقل عنه یحرم من السیل، ولما سافرت أول عمرۀ وهی سنۀ ۱۴۰۹ ه، وکنت فی حملۀ الحاج عیسی بن إبراهیم بن سلطان، فأرانی المسجد الذی کان یحرم منه والدی (رحمه اللَّه) أیام کان یأتی للعمرۀ، وهو مسجدصغیر قدیم، ولیس فیه مرافق، وقد أغلق بعد أن افتتح المسجد الکبیر، وکان القیمُ علیه رجلًا مسنّاً جدّا، لا یقل عمره عن الثمانین بحسب تخمینی، وقد أخبرنی، أنّ أباه أخبره: أن هذا المکان یسمی قرناً، وکان یری الحجاج منذ کانصغیراً یحرمون منه، وکانت هذه بدایۀ بحثی وتتبعی لمعرفۀ هذا المیقات، الذی هو محل ابتلاء بالنسبۀ لنا، واختلاف بین مشائخنا حفظهم اللَّه وسدّدهم.

قال الشیخ فرج (۳): فی موسم سنۀ ۱۳۶۵ ه سافرنا إلی الحجاز علی السیارات مقدمین مکۀ علی المدینۀ، وکان سائق السیارۀ التی أنا فیها رجلًا من القصیم اسمه عبد الکریم القرزعی عارفاً بالطرق بصیراً بالمسافات، ولما قربنا من الطریق الذی یسلکه أهل الطائف إلی مکۀ، سألته عن میقات أهل الطائف فأجاب هو وادی السیل، فسألته ثانیا: هل لهم میقات آخر؟ فأجاب: لا میقات لهم سواه.

فی سنۀ سافرت مع بعض الاخوان إلی العمرۀ، وکنت فی کلّ عمراتی أحرم من السیل، ولم یکن لنا قصد بأن نذهب إلی وادی محرم القریب من الهدی لو لا أنه

۱- ۲۷ کتاب مواقیت الحج والعمرۀ المکانیۀ مساعد الفالح: ۲۶

۲- ۲۸ عدد ۱۶۸ ذو الحجۀ ۱۳۱۲ ه- یونیو ۱۹۲۲ ه

۳- ۲۹ فی الأزهار الأرجیۀ: ۸.

ص: ۷۷

کـان معنـا رجـل من بنی جمرة، قـال لی: أنا لا أحرم إلا من المکان الـذی یحرم منه فلان، فقصـدنا وادی محرم، ثم رجعنا إلی السـیل واحرمت، وأمرت الجماعـة التی معی بالإحرام من السـیل، وقد کانت هناک لافتة کتب علیها میقات قرن المنازل (السـیل الکبیر)، بینما اللآفتـة التی فی وادی محرم لم یکتب علیهـا قرن المنـازل بل کتب علیها: میقات وادی محرم، فقط. ولما أنصـرنا فی مکـة ذهب بعض الشـباب ولعله للشک الـذی راودهم فیصـحة إحرامهم یسألون العلماء الـذین رأوهم یحاضـرون فی الحرم، أخبرنی أحدهم قال: ذهبت وسـألت أحـدهم فقلت له: مـا تقول فی میقات القادم علی طریق الطائف من أین یحرم؟ من الهـدی أم من السـیل قال: یحرم من أیهما ویجزیه فکلاهما محرم، قال: فسألته؟ وأیهما قرن المنازل الذی وقته رسول اللّهصلی الله علیه و آله: قال هو السیل.

قال: وذهبت إلی الحلاق الکائن فی أسـفل المبنی الـذی کنا نسـکنه، فرأیت الرجل الـذی یعمل فیه، وکان من الباکسـتان، کبیر السـن یجید العربیة تماما کأنه عربی الأصل، فقلت له: أراک تتکلم العربیة بفصاحة فکم مضی لک فی مکة؟ قال:

أربعون سـنة وأنا أعمل فی مکـة قال: فسألته عن المیقات، فقال: کان الناس یحرمون من السـیل وهو قرن المنازل، حتی فتـح طریق کرا الجدید فترکوا الناس سلوک طریق السیل؛ لوعورته وعدم قبول أصحاب السیارات الذهاب علیه.

وأخبرنی السـائق الـذی کـان یـذهب معنا واسـمه حبیب من أهل الطائف مثل هـذا، وهو أنّ الطریق القـدیم هو طریق السـیل، ولما فتح طریق الطائف فی عهـد الملک فیصل سـلک الناس طریق الهـدی لسـهولته وترکوا طریق السـیل لأنه غیر معبـد، ثم وجدت هذا الکلام لبعض الکتاب کالکردی وغیره کما سیمر أثناء البحث.

القائلین بأنّ قرن المنازل هو الهدا:

العیاشی فی رحلته (۱): ذکر طریقه إلی الطـائف علی طریق الهـدا قـال: وسـلکنا مع طریق الساقیـة التی تأتی من الجبل إلی عرفات، ثم إلی المشاعر ثم إلی مکة وهی

۱- ۳۰ مقتطفات من رحلة العیاشی ماء الموائد- حمد الجاسر: ۱۰۷

ص: ۷۸

صاعدهٔ مع وادی نعمان، فلم نزل نسایرهصاعدین إلی أن قربنا من جبل کرا... [إلی أن قال]: وسلکنا فی شعاب ذات میاه غزیرهٔ ونبت ملتف إلی أن خرجنا علی قرن الثعالب الذی هو میقات أهل نجد.

وقال فی رجوعه من الطائف (۱): وخرجنا منه علی طریقنا التی مررنا علیه ذهابا، ووصلنا قرن الثعالب الذی هو میقات أهل نجد.

ولم یذکر أنه قرن المنازل بل قرن الثعالب، ولم یرد فی روایات التوقیت اسم قرن الثعالب، وإنما ذکره بعض اللغویین کما ذکرنا وقد بینا فیما سلف خطأه، وهذا یکشف عن أن العیاشی الذی هو من أهل المغرب، زار الأماکن المقدسهٔ للحج فکتب رحلته، ولعله لم یر تلک الأماکن إلا مرّهٔ واحدهٔ، فهو لا یعرف الأماکن باتقان، فلا یمکن الاعتماد علی قوله فی مقابل أقوال أهل تلک الدیار العارفین بالأماکن، وقد قال المثل: (أهل مکهٔ أدری بشعابها).

تحدید قرن المنازل کما ذکره القدماء:

۱-صبح الأعشی (۲): ذکر فی طریق مصر إلی مکهٔ قال: قال ابن خربوذ: ثم من مکهٔ إلی بئر ابن المرتفع، ثم إلی قرن المنازل قریهٔ عظیمهٔ، وهی میقات أهل الیمن للحج منه یحرمون.

ومنه یستفاد أنّ قرناً واقعهٔ بین مکهٔ وبئر ابن المرتفع، وبئر ابن المرتفع ذکرها الفاکهی (۳) قال: وبئر ابن المرتفع التی فوق الأنصاب علی طریق العراق، وتعرف ببئر ابن المرتفع الیوم لرجل یقال له ابن حوس.

واحتمل دهیش أنها بئر البرود. (۴)، وعلی أی حال فإن بئر ابن المرتفع واقعهٔ فی طریق العراق عند الأنصاب، وهذا یناسب کون قرن المنازل هو السیل لا الهدا.

۲- إنّ قرن المنازل واقع عند النخلهٔ الیمانیهٔ

معجم البلدان ومراصد الاطلاع (۵): النخلهٔ الیمانیهٔ تصب من قرن المنازل

۱- ۳۱ مقتطفات من رحلهٔ العیاشی ماء الموائد- حمد الجاسر: ۱۱۳

۲- ۳۲صبح الأعشی- أبو العباس القلقشندی ۵: ۴۳

۳- ۳۳ أخبار مکهٔ- الفاکهی ۴: ۱۱۷

۴- ۳۴ قال دهیش فی حاشیهٔ أخبار مکهٔ للفاکهی: ۱۱۷، ویغلب علی ظنی أنها هی بئر البرود؛ لأنها فی طریق العراق، ولأنها مطویهٔ بحجارهٔ منحوتهٔ جیدهٔ العمارهٔ؛ لأنها أعذب المیاه کما ذکر الفاکهی، وقال أیضاً: ولا یزال حواس یطلق علی واد عند البرود، ویصب فی المغمس وعلی منطقهٔ قرب بئر البرود یقال لها خریبات حواس، وهذا مما یدعم ما ذهبنا إلیه فی بئر ابن المرتفع. إن الذی یبعد کلام دهیش أنّ الفاکهی قد ذکر بئر البرود قبلها مما یدل علی عدم اتحادهما.

۵- ۳۵ معجم البلدان- یاقوت الحموی ۵: ۲۷۷- مراصد الأطلاع- عبد المؤمن البغدادی ۳: ۱۳۶۴

ص: ۷۹

وهو علی طریق الیمن.

الفاکهی (۱): وقرن المنازل وهو میقات أهل نجد واقع فی النخلة الیمانیة.

المصباح المنیر(۲): ویقال نخلة بالإفراد أیضاً، وهما نخلتان أحدهما النخلة الیمانیة بوادی یأخذ إلی قرن والطایف

وقال الشاعر (۳):

وما أنسی من الأشیاء لا أنسی مجلساً لنا مرّة منها بقرن المنازل

بنخلة بین النخلتین بکیتنا من العین عند العین برد المراجل ومما ذکرناه یظهر أن قرن المنازل واقع فی النخلة الیمانیة أو قربها، ولا یمکن أن یکون هو الذی فی وادی محرم؛ لأنه بعید عن النخلة الیمانیة الواقعة فی شمال مکة علی طریق العراق شرق حنین (الشرایع)، والذی یقع فی طریق النخلة الیمانیة هو السیل الکبیر فهی واقعة بینه وبین الشرائع، لتوضیح ذلک لا بد من بیان موقع النخلة الیمانیة.

النخلة

نخلة وادیان لهذیل، أحدهما یقع علی شمال بستان ابن عامر (۴) وهو النخلة الشامیة، والآخر أسفل البستان إلی یمینه، ویجتمعان ببطن مر وسبوحة، ویفصل بینهما جبل طویل یقال له دائة (۵)

النخلة الشامیة:

وادٍ علی لیلتین من مکة یصب من الغمیر (۶) وتأخذ إلی ذات عرق (۷) وتصب بالیمامة علی بستان ابن عامر، وعنده مجتمع النخلتین، وتجتمع مع النخلة الیمانیة فی بطن مر وسبوحة (۸).

وقال أبو زید الکلابی (۹): هی ذات عرق، وأما أعلی نخلة ذات عرق فهی لبنی سعد بن بکر، الذین أرضعوا رسول اللّهصلی الله علیه و آله وهی کثیرة النخل وأسفلها بستان ابن عامر، وأخرها أوطاس (۱۰).

۱- ۳۶ أخبار مکة- الفاکهی ۵: ۱۰۰

۲- ۳۷ المصباح المنیر- الفیومی: ۵۹۷

۳- ۳۸ الأغانی- أبو الفرج الإصفهانی ۱: ۱۹۸

۴- ۳۹ بستان ابن عامر: مجتمع النخلتین والعامة یسمونه بستان بن عامر، وهو غلط قال ابن قتیبة: یقولون بستان ابن عامر وهو بستان ابن معمر فهو الذی یعرف ببطن نخلة، وأما بستان بن عامر فهو موضع آخر قریب من الجحفة.

۵- ۴۰ معجم البلدان- یاقوت الحموی ۵: ۲۷۷- مراصد الأطلاع- عبد المؤمن البغدادی ۳: ۱۳۶۴- أودیة مکة- البلادی: ۹، ۱۰، ۱۶۳، ۱۶۴

۶- ۴۱ الغمیر موضع بین ذات عرق والبستان- معجم البلدان ۴: ۲۱۳

۷- ۴۲ سبوحة واد یصب من نخلة الیمانیة علی بستان ابن عامر معجم البلدان وموقعها کما یظهر من بعض الخرائط شمال مکة أعلی من سرف وبین بطن مر والجموم.

۸- ۴۳ معجم البلدان- یاقوت الحموی ۵: ۲۷۸

۹- ۴۴ معجم البلدان- یاقوت الحموی ۱: ۲۸۱، ۴: ۱۰۸.

۱۰- ۴۵ سولة: وهی عین جاریة بنخلة أسفل من الزیمة عند مصب وادی سبوحة فی النخلة الیمانیة، وسولة والزیمة قریتان فی نخلة

الیمانیـة ولیس فی نخلـة غیرهما من الحیاة وقال محمـد بن قریـة: مرتعی من بلاد نجلة بالصـیف بکناف سولة والزیمة والزیمة تبعد ۵۴ کیلو متراً علی طریق الطائف، وهی المرحلـة الأولی علی نظام القوافل القـدیم من مکـة إلی الطائف، والمرحلة الثانیة هی السـیل الکبیر قرن المنازل– انظر: معجم البلدان– یاقوت الحموی ۳: ۲۸۵– أودیة مکة– البلادی: ۱۰.

ص: ۸۰

النخلة الیمانیة:

وادٍ یصب من قرن المنازل، ویصب فیه یدعان، یجتمع مع النخلة الیمانیة فی بطن مر وسبوحة.

وقال أبو زید الکلابی: إحدی النخلتین یجتمع فیها حاج الیمن وأهل نجد، ومن جاء من قبل الخط وعمان وهجر ویبرین، فیجتمع حاجهم بالبوباءة وهی أعلی نخلة، ومنها الزیمة وسولة (۱)قال محمد بن إبراهیم بن قریة (۲): مرتعی من بلاد نخلة بالصیف باکناف سولة والزیمة.

ویمرّ بها الطریق من مکة علی الشرائع (حنین) والسیل الکبیر، وقد حدّدها دهیش (۳) بأنها بین البهیتة (البوباة قدیماً) والزیمة، فتکون البوباة أعلاها من جهة السیل).

ویظهر من قول المسیب بن علس، یذکر رحیل سامة بن لوی إلی عمان (۴):

فشد أمونا بأنساعها بنخلة إذ دونها کبکب یظهر أن (کبکب) (۵) واقع جنوب نخلة، کما یظهر من بعض الخرائط أنّ وادی الصدر (صدرعرنة) ووادی الکفو یقعان جنوبها.

ویظهر من الباحثین المعاصرین (۶) فی بیان النخلتین إضافة إلی ما ذکره المتقدمون:

إنّ النخلة الشامیة تقع شمال غرب الطائف وشمال شرق مکة، وهی ملتقی وادی بعج بوادی الزرقاء، وتسمیها العامة وادی المضیق، وتسمی أیضاً وادی اللیمون؛ لکثرة ما فیه من اللیمون، وتلتقی بها النخلة الیمانیة من الجنوب الشرقی أسفل جبل داءة، ویسمی حینئذ وادی الزبارة، وتأخذ النخلة الیمانیة مساقطها الشمالیة أعلاها من وادی الخر من البهیتة (البوباة قدیماً) قریب السیل، ویمرّ بها طریق الطائف القدیم، فیأخذ حنیناً ثم یدعان ذات الیسار، وهو أیضاً طریق نجد ثم نخلة ثم قرن المنازل، ویبعد المضیق عن مکة ۵۴ کیلو مترا علی طریق حاج

۱- ۴۶ معجم البلدان- یاقوت الحموی ۳: ۲۸۵

۲- ۴۷ حاشیة الفاکهی عبد الملک دهیش:؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

۳- ۴۸ دلیل الطرق السعودیة- زکی فارسی:

۴- ۴۹ أودیة مکة- البلادی: ۹، ۱۰، ۱۶۴، ۱۶۳

۵- ۵۰ تعلیقة علی المناسک للحربی- حمد الجاسر: ۴۱۶

۶- ۵۱ تعلیقة علی المناسک للحربی- حمد الجاسر: ۴۱۶

ص: ۸۱

العراق (۱۴۱ م).

وقال الجاسر (۱): إنّ النخلة الشامیة أعلاها ذات عرق، والیمانیة أعلاها قرن المنازل (السیل).

ویصبّ فی النخلة الیمانیة من الجنوب واد یسمی حراض أسفل الزیمة، وهو غیر حراض الذی یقع شمال السیل الکبیر. (۲).

والمتحصل أن النخلة الیمانیة واقعة شمال شرق مکة، جنوب النخلة الشامیة وغرب قرن المنازل وشرق وادی حنین (الشرایع)، وأما الجنوب فکما ذکرنا أنه یظهر من بعضهم (۳) أن جنوبها وادی الکفو ووادیصدر عرنة (وادی الصدر) وکبکب وحراض الجنوبی. ویمرّ بها طریق الطائف ماراً بقرن المنازل ثم النخلة الیمانیة ثم یدعان ثم الشرائع ثم مکة.

وإذا تحدّد موضع النخلة الیمانیة یتبین أنّ طریق الهدی الذی یمرّ علی کرا، ثم وادی نعمان، ثم عرفات لا یمرّ علی النخلة الیمانیة، ولا یتصل وادی محرم بوادی نخلة، وحتی علی دعوی أن قرناً یمتد من جبل کرا حتی البستان کما سنذکره، فإن تحدیدهم لقرن المنازل الذی هو المیقات هو أسفل الوادی من جهة الشمال الواقع علی طریق العراق قریبا من أوطاس وبستان ابن عامر، کما هو ظاهر من کلام القدماء، ونذکر لک کلام الحربی (۴) تأکیداً لهذه الدعوی؛ لئلا تکون دعوی بلا بینة ولا برهان.

ذکر فی طریق الیمن إلی مکة:... ثم العائب وقرن إلی نخلة وهو البستان.

وفی معجم البلدان (۵): قال البطلیوسی: فأما بستان ابن معمر فهو الذی یعرف ببطن نخلة.

وما ذکره معجم البلدان (۶): أن البستان مجمع النخلتین.

ومن هذا یتبین: أن قرن المنازل هو السیل لا الهدی.

۳- الطریق الذی سلکه رسول اللّه فی ذهابه إلی غزوة الطائف، وکذا عند

۱- ۵۲ تعلیقة علی المناسک للحربی- حمد الجاسر: ۴۱۶

۲- ۵۳ أودیة مکة- البلادی: ۲۶۱- ۱۰

۳- ۵۴ معالم مکة- البلادی- ۳۰۰- أودیة مکة البلادی: ۴۶۱

۴- ۵۵ المناسک- إبراهیم الحربی: ۵۴۶

۵- ۵۶ معجم البلدان- یاقوت الحموی ۱: ۴۱۴

۶- ۵۷ معجم البلدان- یاقوت الحموی ۱: ۴۱۴

ص: ۸۲

رجوعهصلی الله علیه و آله منها:

المغازی (۱): وسار رسول اللّهصلی الله علیه و آله من أوطاس فسلک علی نخلة الیمانیة ثم علی قرن ثم علی الملیح، ثم علی بحرة الرغاء من لیّة.

وفی السیرة النبویة (۲): سلک رسول اللّهصلی الله علیه و آله علی نخلة الیمانیة ثم علی قرن ثم علی الملیح ثم علی بحرة الرغاء من لیة... ثم سلک فی طریق الضیقة إلی نخب.

وفی معجم البلدان (۹۴۱ م): بحرة: موضع من أعمال الطائف قرب لیة، قال ابن إسحاق: انصرف رسول اللّهصلی الله علیه و آله من حنین علی نخلة الیمانیة ثم علی قرن ثم علی الملیح ثم علی بحرة الرغاء من لیّة.

وفی تاریخ ابن جریر (۳): سلک إلی الطائف علی حنین ثم علی نخلة ثم قرن ثم الملیح ثم علی بحرة الرغاء من لیة.

والملیح أسفل السیل الصغیر (۴) ولیة وادی یقع شرق وجنوب الطائف (۵)، وبحرة الرغاء تقع کما یظهر من کلام البلادی (۶) جنوب الطائف، وقال البلادی (۷):

ولا زالت ملیح وبحرة الرغاء ولیّة تعرف بأسمائها إلی الیوم.

ویستفاد من هذه الروایة أنّ قرن المنازل واقع بین النخلة الیمانیة والملیح، وهذا الطریق إنما یناسب طریق السیل دون طریق الهدی وأنّ قرن المنازل هو السیل ولیس وادی محرم، وذلک لأنه لا یستقیم أن یمرّ من نخلة إلی وادی محرم فیصل إلی قرب الطائف ثم یرجع شمالًا إلی الملیح، ثم ینحرف إلی الجنوب ثم یأتی نخب.

وقال البلادی (۸): وهذه هی طریق رسول اللّهصلی الله علیه و آله حین غزا الطائف، فقد أخذ علی حنین ثم علی نخلة الیمانیة ثم علی ملیح أسفل السیل الصغیر الیوم، ثم التف حول الطائف من الشمال والشرق، ثم أتاه من الجنوب حیث نزل بحرة الرغاء من لیّة، ثم عاد إلیه متجهاً شمالًا، وهی من الخطط العسکریة الممتازة.

وقال الجاسر (۹): وهذا هو طریق الطائف الذی یمرّ بالشرائع، وأعلاه وادی

۱- ۵۸ المغازی: ۴۲۹

۲- ۵۹ السیرة النبویة لابن هشام ۴: ۴۲۱

۳- ۶۰ معجم البلدان- یاقوت الحموی ۱: ۶۴۳

۴- ۶۱ تاریخ الطبری

۵- ۶۲ معالم مکة البلادی: ۳۰۰

۶- ۶۳ أودیة مکة- البلادی: ۲۱۰

۷- ۶۴ أودیة مکة- البلادی: ۲۱۰

۸- ۶۵ معالم مکة- البلادی: ۳۰۰

۹- ۶۶ معالم مکة- البلادی: ۳۰۰

ص: ۸۳

حنین ثم نخلهٔ الیمانیهٔ وهی معروفهٔ بأسفلها قریهٔ الزیمهٔ، وبأعلاها البوباهٔ (البهیتهٔ) وقرن المنازل یعرف باسم السیل (۱).

طریق الرجوع من غزوهٔ الطائف:

المغازی (۲): خرج رسول اللّهصلی الله علیه و آله من الطائف فأخذ علی دحنا ثم علی قرن المنازل ثم علی نخلهٔ حتی خرج إلی الجعرانهٔ.

وفی السیرهٔ لابن هشام (۳): ثم خرج رسول اللّه حین انصرف من الطائف علی دحنا حتی نزل الجعرانهٔ.

ویستفاد من هذا أنّ قرن المنازل واقع بین دحنا والنخلهٔ الیمانیهٔ، ودحنا ذکرها الحموی (۴) وقال: إنها من مخالیف الطائف وقد مرّ بها رسول اللّهصلی الله علیه و آله.

وذکر دهیش (۵) أنها واد یصب فی قرن من الشرق وتقع شمال رحاب ب (۲) کیلو متر، وبینهما قریهٔ ریحهٔ، ثم ذکر أنها تبعد عن الطایف ۴۲ کم شمالًا.

۴- الطرق بین مکهٔ والطائف: کما هی مذکورهٔ من القرن الثانی والثالث الهجری حتی الآن تدلنا علی أنه هناک طریقان بین مکهٔ والطائف فقط، هما الطریقان الموجودان حالیا: أحدهما طریق قرن المنازل والآخر هو طریق الهدا.، وسنذکر لک هذه الطرق؛ لیتبین لک أی الطریقین هو الذی یمرّ علی قرن المنازل:

الحربی (۶): حدثنی محمد بن عبد المجید بن الصباح العثمانی قال: إذا أردت أن تخرج من عرفهٔ علی جبل یقال له کرا، یظهر علی حرهٔ کثیرهٔ المنابت یقال لها: الهدهٔ ومن الهدهٔ إلی الطائف.

وله طریق آخر علی موضع یقال له: زیمهٔ. ینفرد من مشاش، ثم قرن المنازل وهو الموضع الذی وقته رسول اللّهصلی الله علیه و آله لأهل نجد حین قال: (یهل أهل نجد من قرن) ثم من قرن المنازل إلی الطائف، وهذا الطریق ثلاثهٔ أیام، والطریق الأول یومان. انتهی کلام الحربی.

أقول: إنّ الحربی الذی عاش فی القرن الثانی والثالث ذکر الطریقین، وهما کما

۱- ۶۷ تعلیقته علی المناسک للحربی: ۳۵۳.

۲- ۶۸ فی مرآهٔ الحرمین ۱: ۶۲، ۷۲: ذکر بحرهٔ الواقعهٔ فی طریق جدهٔ قال: وبحرهٔ وتسمی بحرهٔ الرغاء علی یسار المیمم مکهٔ... ثم نقل عن زاد المعاد فی هدی خیر العباد فی غزوهٔ الطائف: ثم خرج رسول اللّه من الطائف إلی الجعرانهٔ، ثم دخل محرماً بعمرهٔ فقضی عمرته ثم رجع إلی المدینهٔ، وقال بعد ذلک: والطائف فی الجنوب الشرقی لمکهٔ والجعرانهٔ بینهما لکنها أقرب إلی مکهٔ، فکیف یتفق مع ذلک أنه مرّ ببحرهٔ منصرفه من غزوهٔ الطایف مع أنها غربی مکهٔ، ولا تقل المسافهٔ بینهما عن ثلاثین میلًا وبین الجعرانهٔ ومکهٔ حوالی عشرهٔ أمیال، إنا لذلک نقف موقف الشک فیما رواه ابن هشام ونقله عنه کثیر من المؤرخین حتی یأتینا الیقین. أقول: والعذر لصاحب مرآهٔ الحرمین فیما خلط فیه، وما دعاه إلی التشکیک فی کلامصاحب السیرهٔ- مع أنه لم یشکک فیه المؤرخون من أهل مکهٔ کالأزرقی والفاکهی ولا غیرهم- هو أنصاحب مرآهٔ الحرمین لیس من أهل مکهٔ، فهو کالعیاشی وغیره من الحجاج الذین لا یتمکنون من معرفهٔ الأماکن وتختلط علیهم الأسماء.

۳- ۶۹ المغازی: ۹۳۹

۴- ۷۰ السیرهٔ النبویهٔ ۴: ۱۳۰

۵- ۷۱ معجم البلدان- یاقوت الحموی ۲: ۴۴۴

۶- ۷۲ حاشیهٔ کتاب الفاکهی ۵: ۱۰۰، ۱۰۱

ص: ۸۴

هو واضح مما تقدم أنهما الطريقان الموجودان، فذكر أولا طريق الهدا الذى يمر على الهدة (۱) وجبل كرا وذكر أنه يومان، ولم يذكر أنه يمرّ على قرن ولا أنه محل إحرام.

ثم ذكر الطريق الثانى وهو طريق السيل، الذى يمرّ على الزيمة ومشاش (۲) وقال: إنه يمرّ على قرن المنازل، وقال: إنه الموضع الذى وقته رسول اللَّهصلى الله عليه و آله لأهل نجد حين قال (يهل أهل نجد من قرن).

الفاكهى (۳) فى ذكره لحدود الحرم، ذكر طريق الهداصلى الله عليه و آله فقال: ومن طريق الطائف على طريق عرفة من بطن نمرة على أحد عشر ميلًا ومن طريق العراق على ثنية خل بالمقطع على سبعة أميال. (۴)

إبراهيم باشا (۵): ذكر فى عين زبيدة الواقعة فى حنين: فلما بلغ ذلك أمّ جعفر زبيدة زوجة الرشيد، أمرت بإجراء عين حنين (عين زبيدة)، ومنبع هذه العين فى ذيل جبل شاهق يقال: (طاء) بين جبال سود عاليات تسمى جبال الثقبة فى طريق الطايف.

أقول: هذا طريق السيل الذى يمرّ من حنين، وعين زبيدة هذه، التى فى حنين غير عين زبيدة الواقعة فى وادى نعمان، التى تنبع من جبل كرا فى طريق الطائف الآخر، فإنه قال فى نفس الصفحة:

وكذلك أمرت بإجراء عين وادى النعمان إلى عرفة، وهى عين منبعها فى ذيل جبل كرا، وهو جبل شامخصعب المرتقى من أسفله إلى أعلاه، ومسيرة نصف يوم وبعده أرض الطايف.

وذكر طريق السيل أيضاً (۶): ومن الشرق على طريق الطائف مكان يقال له:

الجعرانة، أحرم منه النبيّصلى الله عليه و آله مرجعه من الطائف بعد فتح مكة.

وذكر طرق الطائف (۷) عنصادق باشا (باختصار):

وبلدة الطائف فى الجنوب الشرقى لمكة، ولها طريقان يقطع أقصرهما فى ۱۸ ساعة فسلكنا الطويلة لسهولتها على الاخرى، فسرنا ۲۰ دقيقة مبحرين

۱- ۷۳ المناسك للحربى: ۳۵۶

۲- ۷۴ قال الجاسر فى تعليقته على كتاب المناسك: ۳۵۶، الهدة وتسمى هدة هذيل قديماً هى فى قمة جبل كرا، وأصبحت الآن بلدة ذات قصور كثيرة لسراة الناس بعد تعبيد طريق كرا.

۳- ۷۵ مشاش: قال الجاسر فى التعليقة على كتاب المناسك: ۴۵۶، مشاش: الموضع الذى أجرت فيه زبيدة عينها الأولى، وأضافت إليها عين حنين بالشرائع والبرود، وهو مجمع طرق حجاج العراق ونجد واليمن بقرب أنصاب الحرم، ويبعد عن مكة بما يقارب عشرة أميال.

۴- ۷۶ أخبار مكة- الفاكهى ۵: ۹۸

۵- ۷۷ قال الجاسر: الأنصاب فى الطريق الشمالى من جبل نمرة قديمة واضحة، لكن طريق الطائف تحول اليوم إلى طريقين آخرين غير هذا الطريق: طريق جبل كرى أخذ يميناً ليمرّ على درب اللآحجة قديماً ثم يستمر فيمر بقرب الحسينية والعابدية السلفين قديماً ويلتقى الطريق القديم والجديد فى وادى نعمان وسياتى ذكر العلمين اللذين هما حد الحرم على طريق فى كلامصاحب مرآة الحرمين عند ذكره لطريق الهدى.

۶- ۷۸ مرآة الحرمين- ابراهيم رفعت باشا ۱: ۲۱۰.

۷- ۷۹ مرآة الحرمين- ابراهيم رفعت باشا ۱: ۵۲۲.



ص: ۸۵

مشرقين إلى جبل حراء المشهورة بجبل النور، ونزلنا بجوار ساقية، وعند الغروب سرنا وعطفنا يساراً من جبل النور تاركين منى يميننا، سالكين طريق السيل أو اليمانية مبحرين مشرقين، حتى وصلنا إلى بئر البرود فاسترحنا قليلًا، ثم سرنا مشرقين ساعتين فى طريق يمثل نصف دائرة، ولجنا بعدهما مدخل جبال السولة، وبعد نصف ساعة استرحنا ببقعة بين الجبال، وفى الساعة ۱۰ والدقيقة ۴۵ من ليلة الأربعاء، شرعنا فيصعود قليل، وبلغنا أعلى الجبل الساعة ۱۱ والدقيقة ۳۰، وسرنا فى هبوط مهبط كثرت الأحجار فى منحدره إلى مكان فسيح بين جبال، وفى الساعة ۱۲ والدقيقة ۲۰ من يوم الأربعاء وصلنا بقعة فسيحة بها زرع وجنات تحيط بها الأسوار وفيها نخيل وليمون أزوجاً شتى وبعض فواكهها لما تنضج، وينبوع فى الجبل تنحدر منه المياه يسمونه نهراً، وهذا المكان يسمى وادى اليمانية، وبعد الغروب سرنا ساعتين ونصفاً ومررنا بالسولة، وفى الساعة ۱۲ ليلًا نزلنا بمحل متسع... وفى يوم الخميس ۳ رمضان الساعة ۱۰ رحلنا وسرنا بينصخور مرتفعة وعقباتصعبة حتى الساعة الثالثة والنصف من ليلة الجمعة، وبتنا بمحل يقال له بنية أو كوجك دره، وهناك بئر تسمى بئر عاب، وفى الساعة ۱۰ من يوم الجمعة تابعنا السير، وبعد مضى نصف ساعةصعدنا عقبة حجرية أفضت بنا إلى مستو فسيح به أشجار وسرنا إلى الجنوب، وفى الساعة الثانية مررنا بالجديرة، وفى الساعة الرابعة بأمّ حمص، وفى الساعة السادسة بمحل يسمى الجيم، وفى الساعة ۷ والدقيقة ۴۰ وصلنا الطائف.

أقول: هذا الطريق طريق السيل، وإن لم يذكر مروره بالسيل، إلا أنه ذكره فى أول كلامه حيث قال: (سالكين طريق السيل أو اليمانية)، وطريق السيل هو طريق اليمانية، كما أنه ذكر مروره ببئر البرود والسولة ووادى اليمانية

وقال (۱): والطريق الآخر، قالصادق باشا: بعد إقامتى بالطائف جملة أيام، رغبت فى العودة إلى مكة وأعددت البغال اللازمة للسفر فيصباح يوم الخميس

۱- ۸۰ مرآة الحرمين- ابراهيم رفعت باشا ۱: ۴۴۳.

ص: ۸۶

۱۷ رمضـان؛ لأنـى عزمت على سـلوك طريق الكرا، الـذى لاـ يصـلح للسـير فيه سوى البغـال، وفى الساعـة العاشـرة رحلنـا من الطائف منتهجين سبيل الكرا مابين الشـمال والغرب، وبعد ربع ساعة دخلنا بين جبال واجتزنا جملة محاجر، فأرض مرملة تحفّ بها الجبال ذات اليميـن وذات الشـمال، وفى الساعـة ۱۰ والدقيقـة ۵۵صعـدنا إلى محجر بين جبـال حجريةصـماء، ثم هبطنـا إلى طريـق مسـوى يسـمى بالجميرات أو الجبال الحمر، وفى الساعة ۱۲ والدقيقة ۵صعدنا إلى محجر آخر، ثم هبطنا ثمصعدنا فوق تلال متعددة، وبعد عشر دقائق غرّب الطريق، وبعـد ۷ دقائق هبطنا إلى أرض واسعة، ونزلنا بها بجوار بئر تسـمى بئر العسـكر عذبـة المياه،صـلينا عندها المغرب وتابعنا المسير الساعة ۱۲ ونصفاً، وبعد ۵ دقائق مررنا بمجرصـعب وجملة أخوار، وبعد عشر دقايق مررنا بحدايق وبيوت فى وادى محرم، وفى الساعة ۲ والدقيقـة ۱۰ نفـذنا من عقبـة كأداءصـعبة المرتقى لعلوهـا وكثرة أحجارهـا، ولهـذا لاـ يمكن أن يمرّ منهـا إلّافرد فرد، ومرور التختروان من هذا الطريق متعذر، وبعد أن علوناصـخوراً وانثنى الطريق عدة انثناءات إلى الساعة ۳ والدقيقة ۱۰ حيث وصلنا الهدة، وهو أعلى الجبـل وهنـاك بيوت وبساتين وفواكه.. وفى الساعـة ۹ والدقيقة ۳۰ ليلًا سـرنا راكبين، وبعـد ۵ دقـائق مررنا بـدرب الجمال على اليمين، وتركناه لكونه خاصاً بسـير الإبل، وبعد ۳ دقـايق إبتـدا النزول من الجبل فى درب ضيقصـناعى غير منتظم كثير الانعطاف، وفى الساعة ۹ والدقيقة ۴۵ مررنا بعين جاريـة من الجبل فى حوض مبنى وتتـدفق منه إلى الصـخور.. وفى الساعة ۱۱ مررنا بماء جار عذب، وفى الساعـة ۱۱ والدقيقـة ۲۵ اجتمع الـدربان، وفى الساعـة ۱۲ والدقيقـة ۴۸ وصـلنا الكرا آخرصـعوبة فى الجبـل، وبعـد أن مكثنا قليلًا لتصـليح الأحمال سـرنا، وكانت الساعة واحدة وربعاً من يوم الجمعة، وكان السـير بانحدار خفيف وفى الساعة ۲ والدقيقة ۲۵ نزلنا بقعة مرملة تحيط بها الجبال، فملنا نحو الجنوب الغربى، وفى الساعة ۳ والدقيقة ۱۰ وصلنا قهوة شداد، وفى الساعة ۱۰

ص: ۸۷

و ۱۵ دقیقـة وصـلنا وادی النعمـان، وعلی الیمین مبـدأ بنـاء مجری عین زبیـدة، وفی الساعـة ۱۱ والدقیقـة ۸ وصـلنا قهوة عرفات، وبعد الإستراحـة قمنا الساعة ۱ من لیلة السـبت، وبعد ۵۰ دقیقـة بلغنا جامع نمرة بعرفات، وفی الساعـة ۲ والدقیقة ۱۰ مررنا بین العلمین، وفی الساعة ۴ لیلًا دخلنا مکة المبارکة.

أقول: هـذا الطریق هو طریق الهـدا ولم یذکر أنه مرّ علی قرن ولا النخلة الیمانیة، کما أنه ذکر مروره بجامع نمرة بعرفات وبین العلمین، اللذین هما حدود الحرم، واللذین مرّ ذکرهما فی کلام الفاکهی، ومنه یتبین أنه نفس الطریق الذی ذکره الفاکهی لم یتغیر.

العیاشی ذکر طریق الهدا (۱)

وقد خرجنا إلیها بعد العشاء علی طریق الحاج إلی منی ثم مزدلفة ثم إلی بسـیط عرفة،... ثم ارتحلنا من هناک قرب طلوع الفجر سلکنا مع طریق الساقیـة، التی تأتی من أصل الجبل إلی عرفات ثم إلی المشاعر ثم إلی مکـة، ومنها تأتی المیاه إلی مکة، وهذه من عمل بنی العباس.. وهی منصـدقات زبیـدة بنت جعفر المنصور، هیصاعـدة مع وادی نعمان وهو وادی عظیم أفیـح منحدر من جبل نجد، فلم نزل نسایرهصاعدین إلی أن قربنا من جبل أکری فعدلنا یمینا مع بعض تلک الهضاب،..

فلما زالت الشـمس وتوضّأنا للصـلاة، أخـذنا فیصـعود الجبل العظیم، الـذی لا یماثله فی عظمته جبل من جبال تهامة... ورأینا القرود به تصیح وتثب فی أعالی تلک الصـخور،.. ثم ارتحلنا من ذلک المکان قربصلاة الصبح وهبطنا عقبة هناک هی درن التی طلعناها بکثیر إلا أنها وعرة، سلکنا فی شعاب ذات میاه غزیرة ونبت ملتف إلی أن خرجنا علی قرن الثعالب الذی هو میقات أهل نجد... وإزاءها قریة ذات مزارع وأشجار... جاوزناها قرب الطلوع سلکنا بین تلول هناک فیصعود وهبوط واستواء إلی أن وصلنا بلدة الطائف.

وقال (۲): وخرجنا منه لیلة السبت قریباً من نصف اللیل علی طریقنا، التی

۱- ۸۱ مرآة الحرمین- ابراهیم رفعت باشا ۱: ۱۵۳.

۲- ۸۲ مقتطفات من رحلة العیاشی- حمد الجاسر: ۱۰۷.

ص: ۸۸

مررنـا علیها ذهاباً، ووصـلنا قرن الثعالب الـذی هو میقات أهل نجـد بعـد طلوع الفجر، ونزلنا حتی توضّأنا وصـلینا، وأحرمت من هناک بعمرة... ثمصـلینا الصـبح فی المیقات وذهبنا ومررنا علی القهوة، التی بتنا بها قبل، وعنـد طلوع الشـمس انحدرنا مع العقبة الکؤود عقبة أکری وتعجبنا منصـعود إبل أهل ذلک البلد فیها وهبوطها بأحمال الفواکه الثقیلة.. وما وصلنا القهوة التی بسفح الجبل حتی اشتد النهار وحمی وطیس الهجیر،... وما وصلنا وادی نعمان الأراک إلا بعد العصر، وسایرناه مع العشی مسایرة الخل الرقیق... إلی أن وصلنا القهوة الـتی هی علی حدّ بسیط مـن عرفـات بیـن العشـائین، ونزلنـا بهـا فی أرغـد عیش حـول عیـن مـن الساقیـة تجری علی وجـه الأـرض، وصلیناصـلاة العشاء وتعشـینا ثم أغفینا إغفاءة، ثم ارتحلنا قریباً من ثلث اللیل الآخر ومررنا بنمرة ثم بالمأزمین ثم بجمع ثم ببطن محسر کلّ ذلک لیلًا فطلع الفجر ونحن بمنی....

هـذا الطریق هو طریق الهـدا الـذی یمرّ بوادی نعمان وجبل کرا وعرفات ونمرة، وهو کما ذکره الفاکهی والحربی لم یتغیر، إلا أنه ذکر مروره بقرن الثعـالب وقـال: إنه میقـات أهـل نجـد. وهو اشـتباه کمـا مرّ فی بیـان قرن الثعـالب أنه لیس المیقـات، وأن المیقات هو قرن المنازل المار بالنخلـة الیمانیـة، وهـذا الطریق الذی ذکره لا یمرّ بالنخلة الیمانیة، کما أنه قد أخطأ فی موارد أخری، منها أنه سـمی جبل کرا ب (أکری)، وقال فی زبیـدة: إنها ابنـة جعفر المنصور، وذکر الهـدی ولـم یذکر اسـمها لعله لم یعرفها، وسـمی جبال السـراة بجبال نجد، والسبب فی ذلک أنه رجل مغربی غیر عارف بأسماء الأماکن.

البلادی: وکان طریق الطائف القدیم یأخذ حنیناً ثم یدعان ذات الیسار وهو أیضاً طریق نجد، کلّ هذا قبل فتح جبل کرا.

وقال (۱): وبعد قلیل یأتیه من الجنوب الشـرقی وادی کبیر ذو روافد عدیدة یسمی نخلة الیمانیة، وقد أطلق علیه أخیرا اسم الیمانیة، وبه عینان جاریتان هما

۱- ۸۳ مقتطفات من رحلة العیاشی- حمد الجاسر: ۱۰۷.

ص: ۸۹

الزیمة التی یمرّ بها طریق الطایف القدیم، وسولة أسفل منها.

وقال: (۱) فإذا انحدر سمی السیل وهو میقات أهل نجد والمرحلة الثانیة من مکة علی نظام القوافل القدیمة عن طریق نخلة الیمانیة.

وقال (۲): الشرائع عین فی وادی حنین تبعد عن المسجد الحرام ۸۲ کیلو متراً وکانت أعمر منها الآن عندما کان طریق الطائف یمرّ بها.

والبلادی ذکر طریق السیل الذی یمرّ علی النخلة الیمانیة ووادی حنین ویدعان، وقال: إنه الطریق القدیم، کما ذکر أنه طریق الطائف ونجد قبل فتح طریق کرا.

الکردی (۳): مدینة الطائف أعظم مصیف فی الحجاز، وأهل مکة لا یستغنون عن الطائف فی الصیف مطلقاً، وللطائف طریقان: طریق قدیم وهی عن طریق السیل، وهی طریق الیمانیة، فبین مکة والطائف عن هذا الطریق بالجمال ثلاثة أیام ولا تزال السیارات إلی الیوم تسیر فی هذا الطریق، أما سیر الجمال والدواب فقد بطل سیرها.

وللطائف طریق قدیم عن طریق الهدا بفتح أوله وثانیه، وطریق الهدا یمرّ من عرفات فشداد فالکر (بضم الکاف وتشدید الراء) فجبل کرا بفتح أوله وثانیه فالهدا (بالفتح) فعلو وادی محرم فبجرة قرن بفتح أوله وسکون ثانیة فجبجب فمسرة فمعشی فالطائف.

فتکون المسافة بین مکة والطائف عن طریق کرا الجدید حوالی ۸۵ کیلو متراً.

ثم إنّ الحکومة افتتحت طریقاً جدیداً بین مکة والطائف عن طریق کرا، افتتحها الملک فیصل بن عبد العزیز آل سعود فی الیوم الثالث من شهرصفر سنة ۱۳۸۵ ه، وهذا الطریق الجدید یمرّ من عرفات فشداد فالکرا فالهدا فوادی محرم فبحرة قرن فجباجب فمسرة فمعشی الطائف، فطریق کرا الجدید هو المشی فی نفس

۱- ۸۴ أودیة مکة- البلادی: ۵۲.

۲- ۸۵ أودیة مکة- البلادی: ۱۰.

۳- ۸۶ أودیة مکة- البلادی: ۹.

ص: ۹۰

جبل کرا، وکلّ الجبل ملفات مسَفلۀ بالإسفلت.(۱)

وقد مر فی التعلیقۀ رقم (۱۶۶) ما ذکره الجاسر فی تعلیقته علی کتاب المناسک للحربی: أنهما یلتقیان فی وادی نعمان، فالتغیر حصل فی بدایته من جهۀ مکۀ فالطریق القدیم یمرّ علی عرفۀ من بطن نمرۀ، والطریق الجدید أخذ یمین اللآحجۀ حتی یمرّ بقرب الحسینیۀ والعابدیۀ.

ونستخلص من هذه الأقوال أموراً:

الأول: أنّ کلا ـ الطریقین قدیمان ومعروفان، وما ورد فی بعض کلمات المتأخرین والمعاصرین من تعبیرهم عن طریق السیل بالطریق القدیم؛ فلعله لکونه قبل تعبیده وفتح طریق کرا الجدید کان مهمولًا، ثم بعد فتح الطریق أهمل الأول وکثر سلوک الثانی لأنه طریق حدیث معبد.

الثانی: أن الذین ذکروا الطریقین سواء کانوا من القدماء أو من المتاخرین لم یشیروا إلی کون الهدا أو وادی محرم هو قرن المنازل، حتی ولا أنه میقات أو موضع إحرام أو طریق للحاج.

الثالث: کنا قد عرفنا مما تقدم أن قرن المنازل یمرّ علی النخلۀ الیمانیۀ وحنین ویدعان، والطریق الذی یمرّ علیهما هو طریق السیل الکبیر، وموضع الإحرام علی هذا الطریق هو السیل الکبیر.

الرابع: تصریحهم أن قرن المنازل هو واقع علی الطریق الأول وهو الطریق المسمی بطریق السیل.

الخامس: أن الطریق الثانی یمرّ علی وادی نعمان والهدا وجبل کرا، وهی مواضع معروفۀ قدیماً، ولم یشر أحد ممن ذکرها أنها من منازل الحاج ولا واقعۀ فی طریق الحاج، ولم یذکر أحد ممن ذکر الهدا إنها المیقات ولا واقعۀ فی طریقه.

وسنذکر لک ما ذکره أصحاب المعاجم فی الهدا ووادی نعمان وجبل کرا.

۱- ۸۷ التاریخ القویم لمکّۀ وبیت اللَّه الکریم ۲: ۷۲، المطبوع سنۀ ۱۳۸۵ ه.

ص: ۹۱

مصادر البحث:

الأزهار الأرجية- الشيخ فرج العمران (ت)

أخبار مكـة فى قـديم الـدهر وحـديثه- عبـد اللّه بن محمـد بن إسـحاق الفاكهى- تحقيق عبد الملك بن عبداللّه بن دهيش- ط الثانية ۱۴۱۴ ه، ۱۹۹۴ م- نشر دار خضر للطباعة والنشر- بيروت.

أخبار مكـة وما جاء فيها من الآثار- أبو الوليد محمد بن عبد اللّه بن أحمد الأزرقى- تحقيق رشدى الصالح ملحس- ط الثالثة ۱۴۰۲ ه ۱۹۸۳ م- نشر دار الأندلس- بيروت.

إرشاد السارى إلى مناسك ملا على القارى.

أطلس الطرق السعودية ودليل السياحة- زكى محمد على فارسى- ط الأولى ۱۴۱۵ ه، ۱۹۹۵ م،

الأغانى- أبو الفرج الأصفهانى.

الأمّ- محمد بن إدريس الشافعى.

أودية مكة المكرمة- عاتق بن غيث البلادى- نشر دار مكة- ط الأولى ۱۴۰۵ ه- ۱۹۸۵ م

تاج العروس

التاريخ القويم لمكة وبيت اللّه الكريم- محمد طاهر الكردى- ط الأولى ۱۳۸۵ ه.

تاريخ الطبرى

تحفة الناسك بأحكام المناسك- سليمان بن عبد اللّه بن عبد الوهاب- ط ۱۳۶۴ ه- مكة المكرمة.

الجواهر- الشيخ محمد حسن النجفى- ط دار الكتب الإسلامية قم ۱۳۷۳ ه

حاشية أخبار مكة للفاكهى- عبد الملك بن عبد اللّه بن دهيش [مع كتاب

ص: ۹۲

أخبار مكة الفاكهى].

حاشية أخبار مكة للأزرقى- رشدى الصالح ملحس-] مع كتاب أخبار مكة للأزرقى.

حاشية الجامع الصحيح

حاشية كتاب المناسك للحربى- حمد الجاسر [مع كتاب المناسك].

الروض المعطار- محمد بن عبد المنعم الحميرى (ت...)- ط مكتبة لبنان.

الحدائق الناضرة- الشيخ يوسف آل عصفور- ط جماعة المدرسين- قم

رياض المسائل- السيد على العاملى- ط جماعة المدرسين ۱۴۱۵ ه

السيرة النبوية- ابن هشام

شرح السيوطى على النسائى- السيوطى

صحاح اللغة-

صبح الأعشى- أبو العباس القلقشندى- ط وزارة الثقافة والإرشاد القومى- مصر

فقه الإمام الصادق- محمد جواد مغنية

القاموس المحيط- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى- ط الأولى- دار إحياء التراث العربى- بيروت- ۱۴۱۲ ه- ۱۹۹۱ م

كشف اللثام-- الطبعة الحجرية

لسان العرب- ابن منظور- ط الأولى الجديدة المحققة- بيروت ۱۴۱۶ ه- ۱۹۹۵ م

مختار الصحاح

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع-صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى- تحقيق على محمد البجاوى- ط الأولى ۱۳۷۴ ه، ۱۹۵۵ م- نشر دار المعرفة للطباعة والنشر- بيروت

ص: ۹۳

مرآة الحرمین- اللواء إبراهیم رفعت باشا- ط الأولی- مط دار الکتب المصریة- القاهرة سنة ۱۳۴۴ ه ۱۹۲۵ م

المصباح المنیر- أحمد بن محمد بن علی المقری الفیومی ط الثانیة ۱۴۱۴ ه- نشر دار الهجرة- إیران

معالم مکة التاریخیة- عاتق بن غیث البلادی- نشر دار مکة- ط الثانیة ۱۴۰۳ ه- ۱۹۸۳ م

معجم البلدان- یاقوت بن عبد اللَّه الحموی- ط دار إحیاء التراث العربی- بیروت

معجم متن اللغة- أحمد رضا

معجم مقاییس اللغة

المغازی

المغرب- المطرزی

المطالعة السعودیة- عبد الجبار الرفاعی

کتاب المناسک وأماکن طرق الحج ومعالم الجزیرة- إبراهیم بن إسحاق الحربی تحقیق حمد الجاسر- نشر دار الیمامة للبحث والترجمة- الریاض.

مقتطفات من رحلة العیاشی (ماء الموائد)- لعبد اللَّه بن محمد العیاش (۱۰۹۰ ه)- حمد الجاسر- ط الأولی ۱۴۰۴ ه، ۱۰۸۴ م- نشر دار الرفاعی- الریاض

مواقیت الحج والعمرة المکانیة- مساعد بن قاسم الفالح- ط الأولی ۱۴۱۳ ه- ۱۹۹۳ م نشر مکتبة المعارف- الریاض

میقات الحج (مجلة)- عدد ۵- السنة الثانیة ۱۴۱۷ ه

النهایة- ابن الأثیر

ص: ۹۴

الهوامش:

ص: ۹۵

ص: ۹۶

ص: ۹۷

الفور والتراخی فی فریضة الحج

ص: ۹۸

الفور والتراخی فی فریضهٔ الحج

محسن محمّد

إنّ الأحكام الشـرعیهٔ تبتنی علی كلٍّ من الأمر والنهی، اللـذین بهما یتمّ التفریق بین ما أرادته الشـریعهٔ المقدسهٔ من حلالٍ، وما وضّحته من حرام ونهت عنه، وبالتالی یتسنی للمكلّف- إذا ما عرف ذلک- الخروج عن عهدهٔ التكالیف الشرعیهٔ، التی ترتبت علیه بحكم كونه مسلماً مطیعاً منقاداً لتعالیم السماء.

والبـابُ الوحیـد إلی ذلـک هو الطاعـهٔ، التی تتحقق بامتثاله أوامر اللَّه تعالی وبانتهائه عمّا نهی عنه، وإلّا عُـدّ عاصـیاً یسـتحق العقاب فی الدنیا وفی الآخرهٔ.

والـذی یعنینا ویهمنا فی هـذه المقالـهٔ المختصـرهٔ- التی أحاول أن ابعـدها مهما أمكن عن التطویل فی ذكر الخلافات العریضهٔ، التی لا ینجو منها أی موضوع سواء أكان اصولیاً أم فقهیّاً أو...- هو الأمر دون النهی، وبالذات الأمر المطلق دون المعلّق علی شـیء سواء أكان هذا الشیء شرطاً أوصفهٔ.. وما یدور حوله من أنّه مبنیٌّ علی الفور أو التراخی أو لا یعنی هذا

ص: ۹۹

ولا ذاک، وإنما هو لطلب الحقیقـة والماهیـة فقط، أو أنّه یـدل علی القـدر المشترک بین الفور والتراخی.. ثم الانتقال بعـد ذلک ببیان موجز إلی واحد من آثار هذه المسألة وهو:

فریضة الحج، وهل هی مبتنیة علی الفور أو علی التراخی، والتعرض إلی أقوال الفرق الإسلامیة وآراء فقهائها فی هذا الخصوص.

فقد اتفقت کلمة الفقهاء وأهل اللغة علی أن الأمر یدل علی الوجوب إذا ما خلا من القرینة، التی قد تصرفه وتبعده عن الوجوب، الذی هو حقیقة فیه.

لغةً «الأمر حقیقة فی الإیجاب بمعنی الإلزام وطلب الفعل وإرادته جزماً».

وشرعاً «الأمر حقیقة شرعیة فی الوجوب، الذی یترتب علی مخالفته استحقاق الإثم والعقاب» (۱).

قال تعالی: (أفعصیت أمری) (۲)

ولا معصیة بلا وجوب: (فلیحذر الذین یخالفون عن أمره) (۳)

.

فالذم والتحذیر والتهدید والوعید.. کلها تتوجه لمن أعرض وتولی عمّا وجب علیه أداؤه.. وکما أن ذیل الآیة هو الآخر (.. أن تصـیبهم فتنـة أو یصـیبهم عـذاب ألیم) یبین أنّ الفتنـة والعـذاب الألیم یترتبان علی مخالفـة الأمر. وهـذا قد یُعدّ أدلّ نصٍّ علی أن الأمر یقتضـی الوجوب.

قـال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله: «لولاـ أن أشق علی أمتی لأمرتهم بالسواک عنـد کلّصـلاة» فلولا تفیـد انتفاء الأمر لوجود المشـقة، وانتقل إلی الندب حیث لا مشقة فیه. والأمر هنا للإلزام والوجوب لو وقع.

والوجوب ثابت للأمر- سواء أکان ثبوته بالوضع أم بالانصـراف لغلبـة الاسـتعمال- ولا یحمل علی النـدب إلّابقرینة، هذا وإن الوجوب أیضاً ثابت للأمر سواء أکان الأمر مطلقاً أم کان مقیداً بوقت معین أو معلقاً علی شرط أوصفة.. ولکن الأمر المطلق افرد دون غیره؛ لأنه محل النزاع والخلاف فی مسألة الفور

۱- ۱ سعد الدین التفتازانی، انظر اصول الفقه الإسلامی: ۲۲۱.

۲- ۲ طه: ۹۳.

۳- ۳ النور: ۶۳.

ص: ۱۰۰

والتراخى اللذين هما محل كلامنا.

الفور لغةً: مِن فار يفور فوراً وفوراناً، وهو مأخوذ من قولهم: فار الماء يفور فوراً: أى خرج من الأرض متدفقاً، ومن فارت القدر أى اشتدّ غليانُها، وسارع ما فيها إلى الخروج..

ثم استعمل فى الحالة التى لا بطء فيها..

فالفور: العجلة والسرعة، ولهذا يعبّر بالفور عن الغضب والحدّة؛ لأن الغضبان يسارع إلى البطش بمن غضب عليه، وهو مصدر؛ يعبر به عن أول الوقت، فيقال: أتيتُ من فورى، ورجعتُ من فورى، وفعلتُ ذلك من فورى، وفوراً وفور وصولى، أى فى الوقت نفسه أو فى أول الوقت، وقبل سكون الحالة أو الأمر الذى أنا فيه، والذى لا يتحمل الابطاء ولا التراخى.

وفى الآية (.. ويأتوكم من فورهم..) أى من وقتهم أو ساعتهم.. (۱).

وأما اصطلاحاً: فالمقصود بالفور هو: كون الأداء فى أول أوقات الإمكان (۲) أو المبادرة إلى تنفيذ الأمر بمجرد سماع التكليف مع وجود الإمكان، وإلّا كان المكلّفُ مؤاخَذاً.

التراخى لغةً: مصدر تراخى من رخا... رخاءً: أى اتسع فهو رخو، ورخِي الشيء رُخاً ورُخاءً أيصار رِخواً وليناً ومنه الآية (فسخرنا له الريحَ تجرى بأمره رُخاءً حيث أصاب) أى تجرى لينةً طائعةً..

ويُقال: أرخى له العِنانَ أى خلّاه وشأنه.. وتراخى: فتر، وتأخر، وتباطأ، ولهذا يقال: تراخى عن الأمر: أى تقاعد وتقاعس عنه.

وتراخت السماء: أبطأت بالمطر..

وتراخى ما بينهما: تباعد.. فيقال: إن فى الأمر تراخياً، أى: امتد زمانه، وفى الأمر تراخى، أى: إن فيه فسحةً وامتداداً.. (۳).

وأما اصطلاحاً: فهو كون الأداء متأخراً عن أول وقت الإمكان إلى مظنة الفوت (۴).

أو تخيير المكلف بين الأداء فوراً عند سماع التكليف، وبين التأخير إلى

۱- ۱ آل عمران: ۱۵، وانظر مادة: فور فى المصباح وفى لسان العرب والقاموس المحيط والمنجد والمعجم الوسيط...

۲- ۲ انظر التعريفات للجرجانى مادة فور، واصول الفقه الإسلامى ۱: ۲۲۹ للزحيلى.

۳- ۳ انظر مادة: رخو فى لسان العرب، والقاموس والمحيط والمصباح المنير والمنجد والمعجم الوسيط...

۴- ۴ انظر كشّاف مصطلحات الفنون ۳: ۵۹۴.

ص: ۱۰۱

وقت آخر مع ظنّه علی أدائه فی ذلک الوقت (۱).

وأخیراً فالفور إذن ضد التراخی بالضبط.

المراد من الفوریة:

وهل تلک الفوریـة لغةً هی المطلوبة بعینها، أی أن یبادر المکلّف من فوره، ویُسـرع لامتثال ما أُمر به بلا أدنی تأخیر، وإلّا لا یعدّ ممتثلًا بل یعدّ عاصیاً یستحق العقاب؟

وهل التراخی لغةً هو المطلوب أیضاً بکلّ معانیه التی ذکرت؟

الـذی یظهر أن هاتین الکلمتین اسـتخدمتا فی علم الاصول والفقه لا بمعناهما اللغوی الحقیقی بدقته وصـرامته وشدته. فالفوریة لا تعنی المبادرة بشـکل دقیق لمعنی السـرعة والتعجیل وبلا فصل بین الأمر والامتثال، فتسـبب بذلک احراجاً لیس للمکلف قدرة علیه، وبالتالی قد یصدق علیه أنه تکلیف بما لا یطاق..

ولا التراخی اسـتعمل بشـکله الممتد السـمح، الذی لا یقف عند حدٍّ معین، وبالتالی یکون تضـییعاً للأمر ولأهمیة التکلیف وللغرض منه وللمصالح المترتبة علیه وعلی امتثاله.. فلا ذاک ولا هذا، بل المطلوب هو ما تعارف علیه العرف وما اطلق علیه بالفوریة العرفیة، التی لا تعنی بحال الشـدة والصـرامة فی التلبیـة والامتثال کما هو معنی الفوریـة لغة، ولا تعنی التسـیب الذی یؤدی إلی تفویت الغرض کما هو معنی التراخی لغة.

فإذا ما أتی المکلف بامتثال الأمر فوراً فوراً وبلا أدنی تراخٍ فقـد عدّ ممتثلًا واسـتحق الأجر کلّه والثواب کلّه. وإذا تباطأ وتأخر وإن کان لزمن قلیل فقـد عـدّ عاصـیاً یجب إنزال أقسـی عقوبة به. لا، لیس هذا هو المطلوب، ولیست الشـریعة سـیفاًصارماً علی الناس أبداً، وهو یتنـافی مع کونهـا رحمـةً للعالمین وکونها الشـریعة السـهلة السـمحاء.. فالفوریـة العرفیـة تلک هی الحلّ الأسـمی لمعنی الفور، فإذا قال المولی لعبده: افعل کذا، فعل ولو بعد

۱- ۱ اصول الفقه الإسلامی للزحیلی ۱: ۲۲۹.

ص: ۱۰۲

حین- بشرط أن لا- یترتب علی هذا تفویت للغرض- فقد امتثل واستحق الأجر والرضا. وإذا قال له: افعل کذا، فلم یفعل فی زمن یتناسب وذلک الأمر وهدفه ولغته ولحنها کان للمولی أن یقول له: لِم لم تفعل؟ وکان له الحقّ فی تقریعه بل وفی عقوبته؛ لأن عدم فعل العبد وعدم امتثاله یسبب- قطعاً- تفویتاً لمراد المولی وتضییعاً للملاک أو للمصلحهٔ.

ثم إنّ العرف یمیز بین أوامر تتطلب الإسراع والتعجیل فی امتثالها وإلّا یفوت الغرض منها، وبین أوامر یحتاج امتثالها إلی التأخیر وقتاً ما لإعداد المقدمات التی یکتمل بها ذلک الامتثال، فالأول مثل قول السید لعبده: اسقنی الماء. کان المراد به الفور بقرینهٔ أنطلب الشرب عادهً- والعادهٔ حاکمهٔ- عند الحاجهٔ إلی الماء. والثانی مثلقول السید لعبده: سافر إلی المکان الفلانی، فلابدّ- کی یتم السفر- من تهیئهٔلوازمه.. فالأوامر- إذن- تختلف من حیث لغتها ولحنها وغرضها ...

و بالتالی تحتاج إلی وقت- قد یطول وقد یقصر- لتنفیذها.

فالصحیح- إذن- أن کلّاً من الفور والتراخی یبنی علی المتعارف، ولا یصح التأخیر الذی یدخل تحت الإمال وقلهٔ الاعتناء، کما یصح مع عدم القرینهٔ علی الفور.

تحریر محلّ النزاع

ثمّ إن هذه الفوریهٔ وهذا التراخی، وکون الفعل یدلّ علی أی منهما أو لا- یدل.. وقع النزاع فیه بین الأصولیین من الفریقین قدیماً وحدیثاً علی مذاهب یمکن حصرها فی ثلاثهٔ، وکلُّ فریق أو مذهب جاء بأدلته علی مختاره، نأتی علی ذکر ما تیسّر لنا منها بشکل مختصر؛ لنصل إلی أحد منا شئ أو آثار هذه النزاع، وهو أداء فریضهٔ الحج، یقول الدکتور الزحیلی: ومنشأ الخلاف کلامهم فی الحج، هل هو علی الفور أو التراخی؟ وکذا غیره.. (۱) وقبل التعرض لذلک لابدّ لنا من أن نحرّر محلّ النزاع أولًا بمقدمات، فنقول:

۱- ۱ اصول الفقه الإسلامی للدکتور الزحیلی ۱: ۲۳۰.

ص: ۱۰۳

إن الأوامر أربعة أقسام:

۱- الأمر المطلق: وهو الخالى من أى قرينة أو قيد..

۲- الأمر المؤقت: أى المقيد بوقت ثابت محدّد ومعين، له أول وله آخر؛ كالصيام الذى يمسك فيه المكلّف طيلة الوقت ويستغرق جميع أجزائه.

۳- الأمر المعلّق على شرط:

مثل (وإن كنتم جنباً فاطهروا) (۱)

.

وغالباً ما يأتى مستعملًا مع أدوات الشرط.

۴- الأمر المعلّق عليصفة:

مثل: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما..) (۲)

، (الزانية والزانى فاجلدوا كلَّ واحد منهما مئة جلدة) (۳)

.

وقد اتفقت كلمتهم على أن الأمر المطلق أى الأول- دون الأوامر الثلاثة الأخرى- هو محلُّ النزاع. كما أن هذا النزاع يتمّ عند مَن يذهب إلى أن مطلق الأمر لا يقتضى التكرار كالشيخ المفيد وتبعه الشيخ الطوسى..

وغيرهما الكثير من العامة والخاصة.

أما على مذهب القائلين باقتضائه للتكرار، فإن الفورية تعدّ من ضروريات الأمر، ولأنه يستغرق الأوقات كلّها بالفعل المأمور به (۴).

بعد هذا نقول: إن أقوال الفرق الإسلامية يمكن درجها تحت النقاط التالية:

۱- المالكية والحنابلة فى ظاهر المذهب والكرخى من الحنفية وبعض الشافعية قالوا: إن مطلق الأمر أى المجرد عن قرينة الفور أو التراخى هو للفور- ومعنى الفور..: الشروع فى الامتثال عقب الأمر من غير تأخير ولا فصل، وقد نسب الشيرازى للكرخى أن مذهبه عدم الفورية.

۲- الحنفية على الصحيح من المذهب: إن مطلق الأمر على التراخى، فلا يثبت حكم وجوب الأداء على الفور بمطلق الأمر.

ومعنى التراخى.. تأخير الامتثال عن وقت الأمر زمناً يمكن إيقاع الفعل فيه فصاعداً. وهو مختار أعيان المعتزلة كالقاضى عبد الجبار،

۱- ۱ المائدة: ۶.

۲- ۲ المائدة: ۳۸.

۳- ۳ النور: ۲.

۴- ۴ وتتميماً للفائدة نقول: إن الجميع متفقون على أنه لا ريب فى أن الخطاب لو كان مقيداً بقرينة تقتضى التكرار، وجب فيه التكرار كما لو قال:صلِّ أبداً وكذلك لو كان الخطاب مقيداً بقرينة تفيد المرة الواحدة، حمل على الفعل مرّة واحدة، وإنما الخلاف فيما إذا ورد الخطاب مطلقاً فإنه يمكن أن نقسّم آراء الفقهاء والمتكلمين فى هذه الصورة إلى أربعة وهى: ۱- الأمر بالشىء لا يقتضى الفعل إلّامرة واحدة ولا يحمل على ما زاد إلّابدليلٍ. ۲- الأمر بظاهره يقتضى تكرار الشىء أبداً، أى لو توجّه الأمر بشىء، فإن على المكلّف

أن یکرّره مـدّة حیاته بشـرط الإمکان.. نأمل أن نتناول فی المقالـة القادمة «المرّة والتکرار» وهو موضوع اصولی وعلاقته بفریضه الحج. ۳- الوقف: وقـد اختلفوا فی معنی الوقف ومفهومه، فـذهب جماعـة إلی أنهم توقفوا فی الصـیغة المطلقـة فی مقـدار الفعـل حـتی یقوم الـدلیل علی المرة أو الکلی أو علی مقدار معلوم. وقال الشـریف المرتضـی الذریعة ۱: ۱۰۰: «أراد المرّة بلا شک، وما زاد علیها لسـتُ أعلم هـل أراده أو لم یرده. فأنا واقف فیما زاد علی المرّة لا فیها نفسـها». ۴- الأمر بالشـیء لا یقتضی التکرار، حیث یعتقدون أن الأمر إنمـا یفیـد طلب الماهیّـة مـن دون دلالـة علی الوحـدة أو الکـثرة، ولکـن بمـا أن الطبیعـة لاـ تحصـل فی الخـارج إلّاباِحضارهـا مرّة واحـدة،صـارت المرة من ضـروریات الإتیـان بالمـأمور به، وإلّا فإن الأمر لا یـدل بـذاته علی المرة أو التکرار. فإن مختار الشـیخ المفید قدس سـره التذکرة: ۳۰ وتبعه علی ذلـک الشـیخ الطوسـی، هو أنه «لاـ یجب ذلک أکثر من مرّة واحـدة، ما لم یشـهد بوجوب التکرار الدلیلُ» أما الشـریف المرتضـی، فقد ذکرنا رأیه انظر فی هذا الهامش کله مع أصـحاب الأقوال: العدة فی أصول الفقه للشیخ الطوسی- الهامش: ۱۹۹- ۲۰۰.

ص: ۱۰۴

وابن حزم الأندلسی، وقد ذکر هذا القول البیضاوی ونسبه لقوم، واختاره السرخسی فی أصوله.

وقـد اسـتدل هؤلاـء بـأن هنـاک فرقاً بین الأمر المقیـد والأمر المطلق، فإن قول القائل لخادمه: «افعل کـذا الساعـة» یوجب الائتمار علی الفور، وهـذا أمر مقیـد، وقول القائـل: «افعل» مطلق، وبین المطلق والمقیـد مغایرة ومنافاة، فلا یجوز أن یکون حکم المطلق ما هو حکم المقیـد، فیما یثبت التقییـد به؛ لأن فی ذلک إلغاءصـفة الإطلاق، وإثبات التقیید من غیر دلیل، ولیس فی الصـیغة الآمرة المطلقة ما یدل علی التقیید، فی وقت الأداء، فیکون علی التراخی کالأمر بالکفارات وقضاء الصوم والصلاة.

۳- الشافعیة علی الراجح: إن الأمر المطلق لا یفید الفور ولا التراخی.

وقد استدل هؤلاء؛ بأن ورود الأمر مع الفور، ومع عدمه، ویصح تقییده بالفور وبالتراخی، فیجعل حقیقة فی القدر المشترک، وهو طلب الإتیان بالمأمور به، منعاً من الاشتراک والمجاز.

وقـد رجـح بعضٌ أن الأـمر لا یـدل بـذاته علی الفور أو التراخی، بل یسـتفاد ذلک من القرائن، فمن قال لغیره: «اسـقنی» کان المراد به الفور بقرینـة أن طلب الشـرب عادة یکون عنـد الحاجـة إلی الماء، وإذا کان المأمور به مطلقاً عن الوقت کالزکاة والحج وقضاء الصوم والصـلاة، وأداء الکفـارات، فیجوز فیه التـأخیر، ولکن المبـادرة إلی الفعـل أولی وأحوط، قبل مباغتـة الموت، وانتهاء الأجل قبل الأداء لقوله تعالی: (فاستبقوا الخیرات) (۱)

.

الإمامیة:

- ذهب فریق منهم إلی أن فعل الأمر المطلق مبنیّ علی الفور والتعجیل کالشـیخ المفید والشـیخ الطوسی وأبو الحسن الکرخی المتکلم الفقیه..

- فیما ذهب السید المرتضی إلی أنه مشترک بین الفور والتراخی، أی

۱- ۱ انظر فی هذا کله: الموسوعة الفقهیة- مصطلح أمر، واصول الفقه الإسلامی للزحیلی، الأمر، والآیة البقرة: ۱۴۸.

ص: ۱۰۵

مشترک لفظی وضع بوضعین، لهذا یحتاج إلی دلیل؛ لکی یعین لنا المراد منه: الفور أو التراخی.

- بینما ذهب فریق ثالث إلی أن الفعل المطلق أی الأمر لیس فیه دلالة علی الفوریة ولا علی التراخی، بل کلّ ما فیه هو دلالته علی مطلق الفعل أی علی طلب حقیقته أو طبیعته ومن غیر فهم شیء من الأوقات والأزمان (۱).. وأن کلّاً من الفور والتراخی أمران خارجیان عن تلک الطبیعة، أو أن الفور والتراخی منصفاته، التی هیصفات متقابلة، فلا دلالة له علیهما؛ لأن الموصوف بالصفات المتقابلة لا یدل علی واحد معین منها.

هذه خلاصة الآراء الثلاثة، والأقوی فیها والمشهور الثالث الذی علیه أکثر العلماء ومنهمصاحب الشرائع المحقق الحلی، والعلّامة الحلی وصاحب المعالم وغیرهم (۲).

أدلة القائلین بالفوریة:

لقد وجدتُ أن هناک أدلة مشترکة بین الإمامیة وباقی المذاهب الإسلامیة الأخری نکتفی بها ونوجزها وأجوبتها بما یلی:

* إنّ اللّه سبحانه وتعالی ذم إبلیس حینما امتنع عن السجود لآدم علیه السلام بقوله: (... ما منعک ألا تسجد إذ أمرتک) (۳)

. فلو لم یکن الأمر للفور لما استحق إبلیس الذم.

والجواب: أن هذا الأمر بالسجود لم یکن بذاته یدل علی الفور، وإنما لتقیّد الأمر بالوقت المحدّد وهو قوله تعالی: (فإذا سویتُه ونفختُ فیه من روحی فقعوا له ساجدین) (۴)

. کما فیه قرینتان أُخریان تدلان علی الفور، إحداهما:

الفاء فی قوله فقعوا، والفاء لغة تفید التعقیب، والثانیة: فعل الأمر نفسه:

فقعوا له ساجدین، فالفعل اذن لا یدل بذاته فی الآیة: (ما منعک ألّا تجسد إذ أمرتک) علی الفوریة بل بالقرائن وبالتالی فالآیة لا تصلح دلیلًا علی الفور.

* قوله سبحانه وتعالی:

۱- ۱ انظر الواقیة فی اصول الفقه للفاضل التونی: ۷۸.

۲- ۲ معالم الدین للعاملی الجباعی: ۱۵۰- ۱۵۲، العدة للطوسی ۱: ۸۵.

۳- ۳ الأعراف: ۱۲.

۴- ۴ الحجر: ۲۹.

ص: ۱۰۶

(وسارعوا إلی مغفرة من ربّکم) (۱)

.

فالمغفرة فعل اللَّه تعالی، والمراد إیجاد سببها، إتیان الواجبات وترک المحرمات وعلی قول: المسارعة بالتوبة والندامة التی هی واجبة بحکم العقل، ولیس المراد منها الأفعال الخارجیة من الواجبات والمستحبات (۲) فتجب المسارعة والتعجیل إلی فعل المأمور به وهو سبب المغفرة، وتتحقق هذه المسارعة وتصدق إذا اتصفت بالفوریة.

والجواب: أن هذه الآیة لا تعین علی الفوریة أبداً، وإنما تدل علی التراخی؛ لأن المسارعة لا تتحقق ولا تصدق إلّاإذا کان الوقت موسعاً أو کان هناک مستحب، أما إذا کان هناک واجب وبالذات إذا کان مضیقاً فلا تتصور المسارعة وفضلها، وإنما هو امتثال لابدّ منه، ولیس فیه اختیار ومبادرة یوجب الثناء والمدح.

* بما أن النهی طلب ویفید الفور، فأیضاً الأمر طلب مثله وبالتالی یفید الفوریة. إضافةً إلی أن الأمر بالشیء یقتضی النهی عن ضده «کما فیصلِّ معناه لا تترک الصلاة»، وبما أن النهی یفید الفوریة وهذا من المسلمات، کما فی لا تسرق، فالأمر أیضاً- قیاساً- یقتضی الفوریة.

الجواب:صحیح أن النهی یفید الفور وإلا- یفقد غرضه وهو دفع المفسدة. ولکن قیاس الأمر علیه قیاس مع الفارق، حیث إنّ الأمر لا یفید التکرار هذا أولًا. وإنّ القیاس خاصة فی باب اللغة باطل ثانیاً، وثالثاً أن النهی یفید الفوریة إذا کان مستقلًا کما فی «لا تغتب» بعکس النهی الوارد فی ضمن الأمر الذی لم تثبت الفوریة له، وبالتالی فالنهی تابع له.

ثمّ هناک فرق بین الأمر المقید والأمر المطلق، فإن المولی إذا قال لعبده: «اسقنی الماء» فإن هذا مقید بالحاجة إلی شرب الماء، التی لا تتحمل التأخیر، أو قال له: افعل الشیء الفلانی الآن، فتجب المبادرة من المکلّف إلی أن یمتثل کلًاّ منهما، فهذا حال الفعل المقید. أما المطلق مثل

۱- ۱ آل عمران: ۱۳۳.

۲- ۲ محاضرات فی اصول الفقه- الفیاض، من تقریرات السید الخوئی.

ص: ۱۰۷

(افعل) فبینه وبین المقید منافاة ومغایرة، ولهذا لا یصح أن یکون حکم المطلق حکم المقید وهو الفور؛ لأن فی هذا إلغاءً لصفة الاطلاق وإثبات التقیید من غیر دلیل..

بعد أن اطلعنا عن أدلة القائلین بالفوریة وأدلة الرافضین لها وقد تجلّت فی إجاباتهم علی تلک الأدلة، التی یمکن أن تکون أدلتهم علی عدم الفوریة، بل علی أن الأمر المطلق یدل علی طبیعی الفعل أو ماهیته وحقیقته فقط، وأن هذه الطبیعة قد تتحقق بالفور وقد تتحقق بالتراخی من أدلة خارجیة. ننتقل إلی رأی السید المرتضی:

رأی السید المرتضی:

ویبدو أن السید فی رأیه هذا قد تفرّد به فی دائرة الفقه الإمامی، فی حین وجدتُ فی المذهب الشافعی من یذهب المذهب نفسه (۱).

یقول السید: إنّ الأمر المطلق مشترک بینهما (۲) أی بین الفور والتراخی، فیتوقف فی تعیین المراد منه علی دلالة تدل علی ذلک.

ومعنی هذا أن الأمر وضع بوضعین، مرة وضع ویُراد منه الفور، واخری وضع ویراد منه التراخی کما هو شأن الألفاظ المشترکة الأخری عند اطلاقها، ویحتاج إلی دلیل خارجی لتمییز أی المرادین مطلوب.

وقد استدل السید المرتضی علی مختاره بدلیلین:

الأول: أن الأمر قد یرد فی القرآن واستعمال أهل اللغة، ویُراد به الفور، وقد یرد ویراد به التراخی، وظاهر استعمال اللفظة فی شیئین، یقتضی أنها حقیقة فیهما، ومشترکة بینهما.

أی أنه استعمل مرةً وأرید به الفوریة، کما استعمل أخری وأرید به التراخی، واستعمال اللفظ فی مرادین أو معنیین حاله حال استعمال اللفظ الواحد فی معنی واحد ومراد واحد، فإنّ الأصل فی الاستعمال هذا الحقیقة.

واجیب عن ذلک بأن هذا یتم إذا فقد الدلیل علی المجاز، أما إذا وجد

۱- ۱ اصول الفقه الإسلامی، للدکتور الزحیلی ۱: ۲۳۱.

۲- ۲ الذریعة ۱: ۱۳۲، معالم الدین للجباعی: ۱۵۸- ۱۱۵۹.

ص: ۱۰۸

الدلیل هذا، فلا نستطیع أن نتمسک بقاعدة الأصل فی الاستعمال الحقیقیة.

ثم إن الأمر مستعمل فیما هو أعمّ من الفوریة والتراخی کالقدر المشترک..

فلابدّ من انضمام شیء آخر، لتفهم منه الخصوصیة المرادة کوجود القرینة، وإنما یقتضی أن یکون حقیقة فیهما إذا کان مستعملًا بمجرده دون شیء آخر.

یقولصاحب المعالم: إن الذی یتبادر من اطلاق الأمر لیس إلّاطلب الفعل، وأما الفور والتراخی فإنهما یفهمان من لفظه بالقرینة.

الثانی: أنّه یحسن- بلا شبهة- أن یستفهم المأمور- مع فقد العادات والأمارات- هل أرید منه التعجیل أو التأخیر؟ والاستفهام لا یحسن إلّامع الاحتمال فی اللفظ.

أی أن المولی لو أمر عبده بشیء، فهنا یجوز للعبد أن یسأل، أَتریده فوراً أم لا؟ کما أنه یصح للمولی أن یجیب عبده بأنی أرید فوراً أو علی التراخی.. فهذا دلیل علی أن الأمر وضع لکلیهما، ولیس لواحد منهما وإلّا لا یصح الاستفهام.

والجواب بأن العبد إنما سأل مولاه لاحتمال أن یکون هذا الأخیر أراد المعنی الحقیقی أو المجازی من طلبه.

یقولصاحب المعالم: ویکفی فی حسن الاستفهام، کونه موضوعاً للمعنی الأعم، إذ قد یُستفهم عن أفراد المتواطی لشیوع التجوّز به عن أحدهما فیقصد بالاستفهام رفع الاحتمال.

ولکن یمکننا أن نقول: إذا لم یتبادر من الفعل المطلق إلّاطلب الحقیقة، فلماذا الاستفهام؟

ثم إنه وحسب مقدمات الحکمة أن العاقل ما یریده یقوله، ویقوله بوضوح، فلا داعی منه لهذا الخلط أو الغموض فی الطلب الذی یؤدی للسؤال.

کما أن من النادر أن یقع مثل هذا الاستفهام أترید الحقیقة أو المجاز، أترید الأسد الحقیقی أم الرجل الشجاع؟

هذا وأن السؤال قد یقع حتی

ص: ۱۰۹

یرفع الغموض عن طلب المولی الذی قد یکون یرید طلب طبیعة الفعل وحقیقته، لا فقط المعنی المجازی أو الحقیقی أو الفور أو التراخی..

وأخیراً فإن الراجح هو أن الأمر المطلق لا یدل علی الفور ولا علی التراخی، بل إن کلیهما یستفادان من قرائن وأدلة خارجیة لا من الفعل بذاته، وعلی هذا أکثر العلماء..

بعد هذه النبذة عن الفور والتراخی والنزاع فیهما، ننتقل إلی معرفة ما إذا کانت فریضة الحج التی هی سبب من أسباب هذا الاختلاف فی الآراء؛ حول الفور والتراخی لنری ما إذا کان فرضها أو وجوبها یقتضی الفوریة فی أدائها أم التراخی.

علماً أن من أسباب هذا النزاع و آثاره أموراً آخری کأداء الزکاة و قضاء الصوم والصلاة .. وهل کل واحدة من هذه وجبت علی الفور أو التراخی؟

الإمامیة:

مع أنّ الخلاف وقع بین فقهاء الإمامیة- کما بیناه- فی مسألة أن الأمر المطلق یدل- بذاته- علی الفور أو التراخی، أو لا یدل علی هذا ولا ذاک، وإنما یدلّ علی حقیقة الفعل فقط، ولیس فیه دلالة علی الفوریة أو التراخی لا بحسب مادته ولا بحسبصیغته، وهما خارجان عنه، أو هو مشترک لفظی وضع للفور وللتراخی، ویحتاج إلی دلیلٍ لتمییز المراد منهما.. إلّا أنهم اتفقوا علی أن فریضة الحجّ إذا ما توفرت شرائطها واستقرت تجب علی الفور.

المراد بالفوریة فی فریضة الحج:

هو أنه یجب علی المکلف- الذی تحقّقت استطاعته، واستقر علیه الحجّ- الإتیان بالحج والمبادرة إلیه فی أول عام استطاعته، ولیس له تأخیره عنه، فالتأخیر- مع توفر الشرائط- یعدّ معصیةً کبیرةً موبقةً (۱)، وإن حجّ بعد ذلک، وکان حجّه مجزیاً.

والظاهر أن المراد من وجوب الفوریة والتعجیل بأداء الحج حتی لا یقع المکلّف فی تلک المعصیة إذا ما

۱- ۱ الجواهر ۱۷: ۲۲۴، فی حالة حصول الاستخفاف المؤدی إلی الترک، وکما فی مهذب الأحکام للسبزواری ۱۲: ۱۷.

ص: ۱۱۰

تراخی وتباطأ فی أدائه لفریضة الحج، لا عدمصحة الحج منه فی الزمن المتراخی أی فی السنوات التالیة لعام استطاعته.

وإذا اطلعنا علی أدلة القائلین بالفور- علی تقدیر تمامیتها- فهی لا تدل علی أکثر من العصیان بالتأخیر، لا علی عدم الصحة.

إذن یجب علی المکلف- الذی ترک أداء فریضة الحج فی عام استطاعته أو أخّرها- أن یبادر لأدائها فی العام الثانی وهکذا. فالفوریة أو المبادرة والتعجیل تبقی تلاحق المکلف فی کلّ سنة ما دام لم یؤدِ الفریضة، التی استقرت علیه بسبب استطاعته.

وقد قامت علی ذلک أدلتهم، التی لا یخلو بعضها من مناقشة وردٍّ بینهم:

القرآن الکریم:

(.. وللَّه علی الناس حجُّ البیت من استطاع إلیه سبیلًا ومَن کفر فإنَّ اللَّهَ غنی عن العالمین) (۱)

.

فاللام فی قوله تعالی (وللَّه) هی لام الإیجاب والإلزام، ومع کونها کـذلک، فقـد أکد کلّ من الایجاب والإلزام ب (علی) التی هی من أوکد ألفاظ الوجوب عند العرب، فإذا قال العربی: لفلان علیَّ کذا، فقد وکده وأوجبه.

إذن ذکر اللَّه تعالی الحج ووجوبه بأبلغ ألفاظ الوجوب.. (۲).

والوجوب المذکور علی الفور ولا یجوز معه التأخیر.. والذی یدل علی أنه علی الفور عموم قوله تعالی:

(وسارعوا إلی مغفرة من ربّکم) أی ما هو سبب المغفرة، والحجّ کذلک (۳).

ونظراً لأن الوجوب فی هذه الآیة مشـروط بالاسـتطاعة أو متعلق علی الاسـتطاعة فهو لیس أمراً مطلقاً حتی یدخل فی النزاع الدائر- کما ذکرنا- حول کونه یـدل علی الفور بـذاته أو لا، أو أنه یـدل فقط علی الماهیـة.. فهو إذن خارج عن محل النزاع وبالتالی یمکن اتصافه بالفوریة لأنّه مقیّد.

* (وأتموا الحجَّ والعمرةَ) (۴)

۱- ۱ آل عمران: ۹۶.

۲- ۲ الجامع لأحکام القرآن ۴: ۱۴۲.

۳- ۳ کنز العمال- کتاب الحج ۱: ۲۶۶.

۴- ۴ البقرة: ۱۹۲.

ص: ۱۱۱

والأمر للوجوب، ویدل علی طلب الماهیة.

الروایات:

۱- قولهصلی الله علیه و آله: «مَن وجب علیه الحجُّ فلم یحج فلیمت یهودیاً أو نصرانیاً» وقد أتی بفاء التعقیب ورتّب الوعید وهوصریح فی الفوریة (۱).

۲-.. عن أبی عبداللّه علیه السلام: قال اللّه تعالی: (وللّه علی الناس حجّ البیت من استطاع إلیه سبیلًا) قال: هذه لمن کان عنده مال وصحة، وإن کان سوّفه للتجارة فلا یسعه، وإن مات علی ذلک فقد ترک شریعة من شرائع الإسلام إذا هو یجد ما یحجّ به..

۳-.. عن معاویة بن عمار قال:

سألت أبا عبداللّه علیه السلام عن رجل له مال ولم یحجّ قط، قال: هو ممّن قال اللّه تعالی: (ونحشره یوم القیامة أعمی) قال: قلت: سبحان اللّه، أعمی؟! قال:

أعماه اللّه عن طریق الحق. وفی روایة:

عن طریق الجنة، وفی روایة: عن طریق الخیر.

۴-.. فقال: لا عذر له، یسوّف الحج، إن مات وقد ترک الحجّ فقد ترک شریعة من شرائع الإسلام.

۵-.. عن أبی بصیر قال: سألت أبا عبداللّه علیه السلام عن قول اللّه عزّوجلّ:

(ومَن کان فی هذه أعمی فهو فی الآخرة أعمی وأضل سبیلًا) قال:

ذلک الذی یسوّف الحج، یعنی حجة الإسلام، حتی یأتیه الموت. وغیر هذه من الروایات فی الوسائل باب وجوب الحج مع الاستطاعة علی الفور، وتحریم ترکه وتسویفه.

* ثمّ إنّ وجوب الحج علی الفور من المرتکزات عند المتشرعة المهتمین بالشریعة وأحکامها، وهم یذمّون من یترک الحج أول عام استطاعته من دون عذر. وهذا الارتکاز یصلح دلیلًا تاماً لو ثبت اتصاله بزمن المتشرعة، الذین عاشوا فترة المعصومین علیهم السلام وهو بالتالی یکشف عن التلقی عن الإمام المعصوم.

* ثم إن العقل یحکم علی المکلف بلزوم تفریغ ذمته فوراً من فریضة الحج، التی استقرت علیه بعد أن

۱- ۱ کنز العرفان- کتاب الحج.

ص: ۱۱۲

توفرت شرائطها التی منها الاستطاعة خاصة مع احتمال الموت الذیسیحول بینه وبین أدائه للفریضة وقد یفاجئه فی أی وقت .. وهذا الدلیل وإن کان تاماً فی نفسه إلّاأنه لا ینطبق علی تمام المدعی وهو وجوب الفوریة فی الحج ولو مع العلم بالبقاء والتمکن من الحج فی العام القابل، والدلیل لا یقتضی ذلک.

* الإجماع، ولأنه إجماع مدرکی، وقد عُلم مدرک المجمعین، وبالتالی یمکن الاستناد إلی المدرک نفسه، فالإجماع هذا لیس بحجة.

* وجوب الاستنابة دلیل علی أن وجوب الحج فوری فی أول عام الاستطاعة، وقد دلت الروایات علی وجوبها علی المکلف إذا ما توفر له العذر من مرض أو عجز، وعلم بعدم زواله.

أما لو علم بزوال العذر فیجوز له التأخیر. فدلیل وجوب الاستنابة لیس علی اطلاقه یصلح دلیلًا علی ما یُراد من فوریة الأداء.

* عدم جواز نیابة مَن استقر علیه الحج، فلو کان الحج علی التراخی ولم یکن فوریاً؛ لجاز لمن وجب علیه الحج أن ینوب عن غیره، ویؤخر حجّه الواجب إلی سنة أخری.

*.. عن معاویة بن عمار، عن أبی عبداللّه علیه السلام فی رجلصرورة مات ولم یحج حجة الإسلام، وله مال: قال: یحج عنهصرورة لا مال له (۱).

* الحج البذلی وروایاته الظاهرة فی وجوب الإتیان به فوراً وفی عام البذل، منها:

عن محمد بن مسلم، قال: قلت لأبی جعفر علیه السلام: فإن عرض علیه الحج فاستحیی؟ قال: هو ممن یستطیع الحج، ولم یستحیی؟ ولو علی حمار أجدع أبتر، قال: فإن کان یستطیع أن یمشی بعضاً ویرکب بعضاً فلیفعل.

لقد تحققت الاستطاعة بالبذل وهو أحد مصادر تحققها، وبالتالی وجب الحج علی المکلف المبذول له، فلماذا لا نلحقه بالحج الواجب

۱- ۱ الوسائل- أبواب النیابة.

ص: ۱۱۳

والمبادرة إلی أدائه فوراً؟ فقد وجدت مَن یقول بالفصل بینه وبین الحج الواجب بالأصل، وبالتالی لا یعدّه دلیلًا علی فوریة الحج کباقی الأدلة.

أقوال الفرق الإسلامیة:

لقد استدل فقهاء المذاهب الإسلامیة علی کون الحج مبتیّاً علی الفور أو التراخی- کلّ حسب طرقه الخاصة واجتهاده- من الأدلة الخارجیة کالروایات، لا من فعل الأمر ذاته. وهذا ما نراه فی قراءتنا لأقوالهم الآتیة.

- الشافعیة:

فقد ذهبوا إلی جواز تأخیر الحج وأنه مبنی علی التراخی، قال الشافعی: یجب الحج وجوباً علی التراخی، ولیس علی الفور، وبهذا نفسه قال کلّ من الأوزاعی، والثوری، ومحمد بن الحسن والشیبانی، واحتجوا بما یلی:

* أن آیة الحج (وأتموا الحجّ والعمرة..) نزلت سنة ست بعد الهجرة، وأنّ النبیصلی الله علیه و آله تمکن من الحج سنة ثمان وسنة تسع للهجرة، حیثُ حجّ النبیصلی الله علیه و آله بأزواجه وحجّ معه أصحابه. فدلّ هذا علی جواز تأخیر الحج.

إذن فقد تمسک القائلون بالتراخی وعدم فوریة فریضة الحج بأن آیة الحج: (ولِلّه علی الناس حجّ البیت...) نزلت فی السنة السادسة للهجرة، ولم یبادر الرسولصلی الله علیه و آله إلی أداء هذه الفریضة، وإنّما أخّرها إلی السنة العاشرة لا الثامنة أو التاسعة، فأدّاها مع زوجته وجمع عظیم من أصحابه فی حجّة الوداع، التی التحق بعدها رسول اللّهصلی الله علیه و آله بالرفیق الأعلی. ثم الآیة مطلقة عن تعیین الوقت، والفور تقیید للنص ولا دلیل علیه...

أقول: وقد اجیب عن ذلک بأجوبة متعددة:

۱) أنه قد حجّ سابقاً وبالتالی فهذه لیست حجة واجبة علیه حتی یبادر إلیها، وإنما هی مستحبة.

۲) أنه لم یستقر علیه الحج لعدم استطاعته.

ص: ۱۱۴

۳) أنه قـد هادن قريشاً (أهل مكـهٔ) بأنه لا يأتی إليهم. ولما نزلت آيهٔ الحج سار حتی وصل الحديبيهٔ، فصدّوه، وحينئذ حلق وأحلّ. وقد ردّ هـذا بأنه كان قبل عام الفتـح، ولا يتم بعـده، فإنهصـلی الله عليه و آله قـد فتـح مكـهٔ فی شـهر رمضان من السـنهٔ الثامنهٔ للهجرهٔ. ولم يحجصـلی الله عليه و آله فی هذه السـنهٔ ولا حتی فی السـنهٔ التاليهٔ لها وهی التاسـعهٔ، التی حجّ فيها الإمام علی عليه السـلام مع جمع من المسلمين وأدی عن الرسولصلی الله عليه و آله آيات أول سورهٔ براءهٔ.

۴) أن تأخيره لعلّه كان لأجل دورات النسیء وهو تأخير حرمهٔ الشهور الحرم (ذو القعدهٔ وذو الحجهٔ والمحرم ورجب) أو شهر منها إلی شهر آخر أو شـهور أخری وهو مـا كـانت الجاهليـهٔ تفعله قـال تعالی: (إنّما النسـیءُ زيادهٔ فی الكفر يُضلّ به الـذين كفروا يُحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطِئوا عدّهٔ ما حرم اللَّهُ فيحلوا ما حرّم اللَّه...) (۱)

.

لهذا فإن مسألهٔ عدم حج النبی لا تخلو من تأمل.

ثم إنّ آيتی الحج (وللَّه علی الناس حج البيت..) و (وأتموا الحج والعمرهٔ) لا يقتضـيان أن يكون امتثال الحج الواجب علی الفور أو فی زمنٍ معينٍ، وإنما يقتضيان إيجاب الشیء وإيجاده فقط، فلفظهٔ افعل تقتضی هذين الأمرين دون التراخی أو الفور.

* أن المكلف إذا أخره من سنهٔ استطاعته إلی السـنهٔ التاليـهٔ أو أكثر، ثم قام بالحج، فإنه يعدُّ مؤدياً للحج، وليس قاضـياً له، وعلی هذا إجماع الفقهاء. ولو أن التأخير كان حراماً، أو فات وقته؛ لكان حجّه قضاءً لا أداءً.

وقاسوا ذلك علی منصليصـلاهٔ الظهر بعد فوات وقتها، فإنصلاته تكون قضاءً لها وليس أداءً كما فی وقتها، لفوات وقتها أو لأن تأخيرها عن وقتها حرام.

* أما الروايهٔ (من أراد الحج فليتعجّل) فإنها مع ضعفها، فإن الأمر

۱- ۱ التوبهٔ: ۳۷.

ص: ۱۱۵

بالتعجيل إذا أراد المكلف ذلك، فعلّق التعجيل على إرادته، وما دام هذا الأمر معلقاً فهو خارج عن كونه على الفور؛ لأن الفورية أو التراخى يختصّان بالفعل المطلق كما ذكرنا ذلك.

ثم لو كان على الفور لما أخرهصلى الله عليه و آله بعد وجوبه.

و إذا ما أردنا عدم ترك هذا الحديث فليس لنا إلّا أن نقول: إنه أمر يرادبه الندب ...

ومع قولهم بالتراخى فإنهم يقولون: إن المستحب لمن وجب عليه الحج أن يُسارع فى فعله، ودليلهم فى هذا:

۱- قوله تعالى: (واستبقوا الخيرات).

۲- لأنه إذا أخره عرّضه للفوات بحوادث الزمان، فكان الحزم والاحتياط المبادرة إلى فعله متى توافرت شرائط وجوبه وأدائه (۱) وبه قال الأوزاعى والثورى والقاضى أبو على.

ومع أن وجوب الحج عند الشافعية على التراخى، إلّاأنهم قالوا أيضاً: إنّ من وجب عليه الحج، وتمكن من أدائه فمات بعد ذلك ولم يحج، فإنه يموت عاصياً على القول الأصح فى مذهبهم؛ لأنه إنما جاز له تأخير الأداء وأنه لا يأثم بشرط سلامة العاقبة، وبشرط العزم على أداء الفريضة فى المستقبل، وإمكان قيامه بالحج قبل وفاته، فلو خشى العجز أو خشى هلاك ماله حرم التأخير، فإن لم يفعل كان مفرطاً، فيكون عاصياً. أما التعجيل بالحج لمن وجب عليه فهو سنة عند الشافعى ما لم يمت، فإذا مات تبين أنه كان عاصياً من آخر سنوات الاستطاعة (۲).

- الحنفية والحنابلة والمالكية وبعض الظاهرية:

وقد قالوا إن الحج مبنيٌّ على الفور واحتجوا بما يلى:

۱- قوله تعالى: (ولِلَّه على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلًا) فهذا أمر بالحج، والأمر يقتضى الوجوب على الفور.

۱- ۱ المجموع ۷: ۸۲، شرح المهذب ۷: ۸۵.

۲- ۲ انظر الأمّ ۲: ۱۱۷- ۱۱۸، المجموع ۷: ۹۰.

ص: ۱۱۶

۲- ثمإنالاحتجاج بأن النبیصلی الله علیه و آله لم یحج بعد نزول آیة الحج إلّابعد سنة أو سنتین. والجواب: لأن مکة کانت دار شرک، فکان ممنوعاً عنها.

۳-.. عن ابن عباس قال: قال رسول اللّهصلی الله علیه و آله: «مَن أراد الحجّ فلیتعجّل».

وفی هذا الحدیث دلیل علی أن الحج واجب علی الفوریة.

۴- روی البیهقی عن أمامة عن النبیّصلی الله علیه و آله قال: «مَن لم یحبسه مرضٌ، أوحاجةٌ ظاهرة، أو سلطان جائر، ولم یحج، فلیمت إن شاء یهودیاً أو نصرانیاً».

۵- روی ابن ماجة فی «سننه» عن النبیّصلی الله علیه و آله أنه قال: «مَن أراد الحج فلیتعجّل..».

۶- ذکر الترمذی حدیثاً عن علی بن أبی طالب: من ملک زاداً وراحلة تبلغه إلی بیت اللّه ولم یحج، فلا علیه أن یموت یهودیاً أو نصرانیاً.

وإن ضعف الترمذی هذا الحدیث لوجود هلال بن عبد اللّه وهو مجهول عنده، إلّاأن الجمهور استدلوا به علی الوجوب الفوری للحج.

۷- ولأن المکلف لو مات، ولم یکن قد حجّ، لم یخل من أحد أمرین:

* إما أن یکون آثماً.

* وإما أن لا یکون آثماً.

فإن قلنا بالثانی، فقد أسقطنا بقولنا هذا وجوب الحجّ، حیث إن الإثم یتأتی عند ترک الواجب، والذی لا یترتب علیه الإثم هو ترک المندوب، فالحجّ إذن مندوب ولیس بواجب.

وإن قلنا: إن المکلف یأثم، فقد سلمنا بأن الحج واجب علی الفور.

فمن تحقق الحجّ علیه فیعام فأخرهیکون آثماً وإذا أداه بعد ذلک کان أداءً لاقضاء وارتفع الإثم.

کما أن هناک بعض الحنفیة قالوا:

إنّ الأمر بالحج یحتمل الفور ویحتمل التراخی. وعندهم أن الحمل علی الفور أحوط؛ لأن هذا یدفعه إلی المسارعة فی أداء واجب الحج، فإن کان علی الفور فقد عملبالواجب، وإنکان علی التراخی، فلایضرّه

ص: ۱۱۷

تعجله فى أدائه (۱). فالاحتياط فى أداء الفرائض واجب، فلو أخّر الحج عن السنة الأولى، فقد يمتدّ به العمر، وقد يموت فيفوت الفرض، وتفويت الفرض حرام فلهذا يجب على الفور من باب الاحتياط.

الهوامش:

۱ – ۱ المغنى ۳: ۲۴۱– ۲۴۲، البدائع ۲: ۱۱۹، شرح سنن أبى داود ۵: ۱۵۷، وانظر أيضاً الموسوعة الفقهية لوزارةالأوقاف والشؤون الدينية ۱۷: ۲۴.

ص: ۱۱۸

ص: ۱۱۹

الحج فی الادب العربی مختارات شعریة

ص: ۱۲۰

الحج فى الأدب العربى مختارات شعرية

إعداد محمّد على المقدادى

عيد الأضحى المبارك

أحمد الغزاوى

(عيدٌ) به تتضاعفُ الأفراحُ ومناطُه الأجسام والأرواحُ

أضحى (الحجيج) به سعيداً هانئاً يزهو به الإمساء والإصباحُ

يستقبل الغفران فيه مكبّراً وتفيض منه (مشاعر) وبِطاحُ

ظفروا بعفو اللَّه واعتصموا به فى كلّ ما هو طاعةٌ وفلاحُ

وكأنما هم فى المناسك كلّها أرجٌ يطيب نسيمه الفواحُ

بالحمد والشكران للَّهالذى هو للعباد الواهب المنَّاحُ يتهافتون على الحطيم وزمزم فى نشوة منها القلوبُ تراحُ

وقلوبهم من بهجة خفَّاقة كادت تطير وما لهنّ جناحُ

وتلجّ بالتوحيد من أعماقها وتُبكتُ الإلحاد وهو لقاحُ

تخشى من الأوزار وهى محيطة بالأرض والأخطار وهى جراحُ

ص: ۱۲۱

وتطوفُ بالبيت الحرام مثابةً ترجو النجاةَ وللهدى تمتاحُ

وكأنما الأنفاس منها جِذوة من فرط ما عبثت بها الأتراحُ

نزلت بها الأحداث وهى كوارث شتى ومنها القهر والأقراحُ

اللَّه أكبر ما تألَّق كوكبٌ وانجابَ ليل واستهلَّ صباحُ

ولينعم الحجاج بالفوز الذى هو فى المعاد ذخيرة ورباحُ

ولينصرنَّ اللَّهُ كلّ موحّدٍ وله الهدى فى العالمين سلاحُ لبيك

حسين عرب

لبيك ياربَّ الحجيج، جموعه وفدت عليك ترجو المثابة فى حماك، وتبتغى الزلفى لديك

لبيك والآمال والإفضال، من نُعمى يديك لبّى لك العبد المطيع، وجاء مُبتهلًا إليك ***

هذى الجموعُ تَدفَّقت منها المسالك والبطاحْ قطعوا لك الغبراءَ، والدأماءَ، واجتازوا الرياحْ

متضرّعين إليك، مُستهدين، يرجون السَّماحْ لبيك فى الليل البهيم، وفى الغدوِّ وفى الرَّواحْ ***

هذا الصباح يضجّ بالتهليل، يتبعه الدعاء هذا السماء يَضِجُّ بالتكبير، يبعَثُهُ الرجاء

فى الأرض تلبية تفيض بها القلوب إلى السماء لبيك فى حرّ الهجير وفى الصباح وفى المساء

ص: ۱۲۲

بینَ المضارب فی البِطاح، وفی حمی البیت الحرام عند الُمحَصَّبِ أو بأرجاء الحطیمِ أو المقام

مُهَجٌ وأرواحٌ تطوف بها کما طافَ الحَمام لبیکَ تسألک الهدایة والعنایة والسلام ***

سبحانک اللهم یا حامی حِمی البیتِ الأمین یا مُسبِلَ الرَّحَمات، تغسل من خطایا المذنبین

إیّاک نعبدُ مخلصین، وما بغیرک نستعین لبیک سَبَّحْنا بحمدک، فاهدِنا نهج الیقین ***

یا کاشف الضُّرِّصفحاً عن جرائِمنا لقد أحاطت بنا یاربُّ بأساءُ

نشکو إلیک خطوباً لا نُطیق لها حَملًا ونحنُ بها حقاً أحقّاء

زلازلٌ تخشعُ الصُّمُّ الصِّلابُ لها وکیف تقوی علی الزلزال شمّاء

أقام سبعاً یرجُّ الأرض فانصدعت عن منظرٍ منه عینُ الشمسِ عشواء

بحرٌ من النار تجری فوقَه سفُنٌ من الهضاب لها فی الأرض إرساء

ترمی لها شرراً کالقَصْرِ طائشةً کأنَّها دیمةٌ تنصبُّ هطلاء

ص: ۱۲۳

تنشق منها بیوتُ الصخرِ إن زفَرَت رُعباً وترعد مثلَ السَّعفِ أضواء

منها تکاثف فی الجوِّ الدُّخانُ إلی أن عادت الشمسُ منه وهی دهماء

قد أثَّرت سعفةً فی البَدرِ لفْحتُها فلیلةُ التِّمِّ بعد النور لیلاء

تحدَّتِ النَّیِّرات السبعَ ألسُنُها بما تلاقی بها تحت الثری الماء

وقد أحاطَ لظاها بالبروج إلی أن کادَ یُلحقها بالأرض أهواء

فیالها آیةٌ من معجزاتِ رسو ل اللَّه یعقلُها القوم الألبَّاء

فباسمک الأعظم المکنونِ إن عظُمَت منّا الذنوبُ وساءَ القلب أسواء

فاسمح وهَبْ وتفضَّل بالرضی کرماً واصفح فکلٌّ لفرطِ الجهلِ خطّاء

فقومُ یُونس لما آمنوا کشف الت - عذیب عنهم وعمَّ القومَ نعماء

ونحنُ أمّةُ هذا المصطفی ولنا منه إلی عفوِکَ المرجوِّ دعّاء

هذا الرسول الذی لولاه ما سلکت محجةٌ فی سبیل اللَّه بیضاء

ص: ۱۲۴

فارحم وصلِّ على المختارِ ما خطبتْ على عُلا منبرِ الأوراق ورقاء ***

دار الحبیبِ أحقُّ أن تهواها وتحنُّ من طرَبٍ إلى ذکراها

وعلى الجفونِ متى هممْتَ بزَوْرةٍ یاابن الکرامِ علیک أن تغشاها فلأنتَ أنتَ إذا حللتَ بطیبةٍ وظلَلْتَ ترتَعُ فی ظلالِ رُباها

مغنْى الجَمال مُنَى الخواطِرِ والتی سلَبَتْ عقولَ العاشقین حُلاها

لا تَحسب المِسکَ الزکیَّ کتُربِها هیهاتَ أینَ المِسکُ من رَیَّاها!

طابَتْ فإن تَبْغِ التَّطیُّبَ یا فتى فأدم على الساعات لَثْمَ ثَراها

وابشِرْ ففی الخبرِ الصحیح مُقرَّراً أنَّ الإلهَ بطابةٍ سمَّاها

واختَصَّها بالطَّیِّبین لِطیبها واختارها ودَعا إلى سُکناها

لا کالمدینةِ منزلٌ وکفى لها شَرفاً حلولُ محمَّدٍ بفناها

حظیَتْ بهجرةِ خیرِ من وَطِئَ الثَّرى وأجلِّهم قدراً فکیفَ تَراها

ص: ١٢٥

كلُّ البلادِ إذا ذُكِرْنَ (١) كأحْرُفٍ فى اسم المدينةِ لا خَلَت معناها

حاشا مُسمَّى القُدْسِ فهى قريبةٌمنها ومكةَ إنّها إيّاها

لا فرقَ (٢) إلا أنَّ ثَمَّ لطيفةً مهما بَدَتْ يجلُو الظلامَ سَناها

جزم الجميعُ بأنَّ خيرَ الأرضِ ما قدْ حاطَ ذاتَ المصطفى وَحَوَاها

ونَعَمْ لقدصدَقوا بساكِنها عَلَتْ كالنفسِ حينَ زَكَتْ زكا مأْوَاها

وبهذه ظَهرتْ مزيَّةُ طيبةٍ فغدَتْ وكلُّ الفضلِ فى معناها

حتى لقد خُصَّت بروضةِ جنَّةٍ اللَّهُ شرَّفها بها وحبَاها

ما بينَ قبرٍ للنبيِّ ومنبرٍ حيّا الإلهُ رسولَه وسقَاها

هذى محاسِنُها فهل من عاشقٍ كَلِفٍ شحيحٍ باخِلٍ بنواها

إنِّى لأرهبُ من توقُّعِ بينِها فيظلَّ قلبى موجَعاً أوَّاها

ولقلَّما أبصرتُ حالَ مودِّعٍ إلا رَثَتْ نفسى له وشجاها

١- ١ فى الوفاء وسبل الهدى «ذكرت».

٢- ٢ فى الوفاء «لا غرو».

ص: ۱۲۶

فَلَكَمْ أراكم قافِلينَ جماعةً فى إثرِ أُخرى طالبينَ سِواها

قَسَماً لقد أذكى فؤادى بينكم ناراً وفجَّرَ مُقلَتى ميَّاها

إن كان يُعجزُكم طِلابُ فضيلةٍ فالخيرُ أجمعُه لدى مثواها

أو خِفتُمُ ضرَّاءَها (۱)فتأمَّلوا بركاتِ بُلغتها فما أزكاها

أُفٍّ لِمَن يبغى الكثير لشهوةٍ ورفاهةٍ لم يدْرِ ما عُقباها

والعيش ما يكفى وليس هو الذى يُطغى النفوسَ ولا خسيسَ مُناها

ياربِّ أسأل منك فضلَ قناعةٍ بيسيرها وتحبَّباً لِحِماها

ورضاكَ عنِّى دائِماً ولزومَها حتى تُوافى مُهجتى أُخراها

فَإنِ الذى أعْطَيتَ نفسى سُؤلها وقَبلتَ دعْوتَها فيا بُشراها

بجوار أوفى العالمينَ بذمَّةٍ وأَعزِّ منْ بالقُرْب منه يُبَاهى

مَن جاء بالآياتِ والنورِ الذى داوى القلوب من العَمى (۲) فشفاها

۱- ۱ فى الوفاء وسُبل الهدى ضراً.

۲- ۲ قال محقق تحقيق النصرة: فى نسخة آ والأصل: الأذى.

ص: ۱۲۷

أوْلی الأنام بخُطَّةِ الشَّرف التی تُدعی الوسیلةَ خیرُ من یُعطاها

إنسانُ عَینِ الکونِ سرُّ وجوده (۱) «یس» إکسیرُ المحامدِ «طه» (۲)

حَسبی فَلَسْتُ أفی بذکرصفاتِه ولو أنَّ لی عَددَ الحصی أفواها (۳)

کَثُرتْ محاسنُه فأعَجزَ حصرها وغَدتْ وما نُلقِی لها أشباها

إنِّی اهتدیتُ من الکتاب بآیةٍ فعلمتُ أنَّ عُلاهُ لیس یُضاهی

ورأیتُ فضلَ العالمینَ مُحدَّداً وفضائلُ المختارة لا تتناهی

کیف السبیلُ إلی تَقَصِّی مدح مَن قال الإلهُ له- وحسبُک جاها-

إنّ الَّذینَ یُبایعونک إنَّما- فیما یقولُ- یُبایعون اللَّه؟!

هذا الفخارُ فهل سمعتَ بمثلِهِ واهاً لنشأتهِ الکریمةِ وَاها!

صلُّوا علیهِ وسلِّموا؛ فبذلِکُم تهدی النفوسُ لرُشْدِها وغِنَاها (۴)

صلّی علیه اللَّه غیرَ مُقَیّدٍ وعلیه من برکاتِهِ أنماها

۱- ۱ انظر مجموع الفتاوی ۱۱: ۹۴- ۹۸.

۲- ۲ انظر الریاض الأنیقة فی شرح أسماء خیر الخلیقةصلی الله علیه و سلم ۳۰، ۲۰۴، ۲۷۲ ودلائل النبوة للبیهقی ۱: ۱۵۸، ۱۵۹ حیث ذکرهما رحمه الله فی أسمائهصلی الله علیه و سلم، والإشارة للحافظ مغلطای، وقد حققته والحمد للَّهوحده، وانظر الدر المنثور أیضاً عند الآیتین، من سورة طه، یس، واللَّه أعلم.

۳- ۳ فی التحقیق «أفداها» ولعله من المطبعة.

۴- ۴ فی التحقیق «وعناها» بالعین المهملة، ولعله من المطبعة أیضاً.

ص: ۱۲۸

وعلی الأکابرِ آلهِ سُرُجِ الهُدی أحِبْ (۱) بعترتِهِ ومَنْ والاها

وکذا السَّلامُ علیهِ ثمَّ علیهم وعلی عصابتهِ التی زَکَّاها

أعنی الکِرامَ أُولی النُّهی أصحابَهُ فِئهٔ التُّقی ومَن اهتدی بِهُداها

والحمدُ للَّهالکریمِ وهذهِ نجَزَتْ وظنِّی أنَّهُ یرضاها الهوامش:

وأزواجُهُ أُمهاتُهم امُّ سلمهٔ

۱- ۱ فی سبل الهدی، والفضائل «أکرم».

ص: ۱۲۹

وأزواجُهُ أُمهاتُهم امُّ سلمهٔ

حسن الحاج

إنّ الكتابهٔ عن امّ المؤمنین امّ سلمهٔ وحیاتها المضیئهٔ، كتابهٔ عن أطهر بیت عرفته الدُّنیا، وأعظم مكانصنعته السماء وباركته.. وكیف لا یكون كذلك وقد رعته یدُ الغیب؛ لیكون مبعث الطهر كلّه ونبع الخیر كلّه، ومصدر العطاء كلّه، ومشعلًا للهدایهٔ، ومدرسهً للخُلق الكریم والأدب الرفیع وقدوهً ورحمهً للعالمین...

لقد كان هذا البیت مأوی الرسالهٔ ومهبط الوحی، ومنزل القرآن ومبعث النور، الذی حملهصاحب هذا البیت رسول اللّهصلی الله علیه و آله الذی وصفه اللّه تعالی فی كتابه الكریم: وإنّك لعلی خُلق عظیم فكان هذا الخُلق یواكب البیت الأوّل للدین الجدید.. وصارت عفته محطّ اعجاب مَنْ حوله وصار القدوهٔ لهم والاسوهٔ الحسنهٔ قربوا أم بعدوا عنه. ولما یتركه من آثار خطیرهٔ- إذا ماعصفت حوله المغریات..

علی مسیرهٔ الرسالهٔ والرسالیین.. تولته السماء، وراحت تُرسل آیاتها الكریمهٔ مبینهٔ أهمیهٔ هذا البیت ومرشدهٔ نساءه إلی مكانتهنّ ودورهنّ الرسالی ووظیفتهنّ. وفی الوقت الذی ضاعفت السماء العذاب لمن تأتی منهنّ بفاحشهٔ، جعلت الأجر مرّتین

ص: ۱۳۰

لعملهنّ الصالـح؛ لخطورة تواجـدهنّ فى هـذا الـبيت وأنّهنّ القـدوة، التى يجب أن تكونصالحـة، والاـسوة التى يجب أن تتحلّى بـأرقى درجات الإيمان و الخلق الكريم..

يانساء النبىّ من يأتِ منكنّ بفاحشـة مبيّنـة يضاعف لها العـذاب ضـعفين.. ومن يقنت منكُنّ للّهورسوله وتعملصالحاً نؤتها أجرها مرّتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً (۱)

.

ثمّ راحت السـماء تبيّن مكانتهنّ، وخطورتهم وتكاليفهن ما دامت قد ارتبطت حياتهنّ بهذا البيت الكريم نساءً لرسول اللّهصلى الله عليه و آله: يانساء النبىّ لسـتنّ كأحدٍ من النساء إن اتقيتنّ فلا تخضعن بالقول فيطمعُ الذى فى قلبه مرض وقلن قولًا معروفاً وقرن فى بيوتكنّ ولا تبرجن تبرجَ الجاهليةِ الاولى وأقمنَ الصلاةَ وآتينَ الزكاةَ وأطعنَ اللَّه ورسوله (۲)

وكان لابدّ لهذا الطهر ولتلكَ العفة من ستر فكان الحجاب ياأيُّها النبىُّ قل لأزواجكَ.. يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ.. (۳)

.

لقـد كانت امُّ سـلمة أوّل نساء هـذا البيت- بعـد امّ المؤمنين خديجة بنت خويلد- رضوان اللَّه عليها- وعياً لدورها الرسالى، كما كانت أكثر نساء النبى التزاماً بهذا كلّه وأسـرعهنّ طاعة للَّهورسوله، وعاشت حياتها الإيمانية ومسؤوليتها الرسالية ووظيفتها الشرعية على أكمل وجه حتّى وفّقت لأن تكون أفضل نسائهصـلى الله عليه و آله وأصدقهنّ وأخلصهنّ فى تحمّل أمانة هذا البيت الكريم ورسالته.. بعد أن قُدر لها أن تكون من نسائهصلى الله عليه و آله، وعاشت فى كنفه، وظلّت فى بيته كأتقى نسائه وأفضلهنّ بعد خديجة رضوان اللَّه عليها طهارةً وعفّـةً وإيماناً وجهاداً وعلماً.. فقـد راحت تتغـذى من علمهصـلى الله عليه و آله وأدبه وسـنّته، وتسـتقى من مصـدر الوحى الذى مافـارق منزلهـا.. وبرزت امّياً للمؤمنين بنصّ القرآن الكريم وهو وسـام منحته السـماء.. وحفظت امُّ سـلمة ذلـكَ ورعته ووعته مسؤوليةً كُبرى، وراحت تكثر الشكر للَّهتعالى على هذه النعمة.. مما جعلها مثلًا أعلى فى إيمانها وعبادتها وورعها.. فنالت بذلكَ حبّ اللَّه تعالى وحبّ رسولهصلى الله عليه و آله وأهل بيته

۱- ۱ سورة الأحزاب: ۳۱.

۲- ۲ سورة الأحزاب: ۳۲- ۳۳.

۳- ۳ سورة الأحزاب: ۵۹.

ص: ۱۳۱

الطیبین، والمؤمنین جمیعاً علی مرّ الأجیال.

لقد کانت أمّ سلمهٔ تری هذه الامومهٔ تکلیفاً عظیماً ومسؤولیهٔ کبیرهٔ لها حقوقها وعلیها واجبات کثیرهٔ لا بدّ من رعایتها، فکانت بحقّ أمّاً للمؤمنین بحنانها وشفقتها ورعایتها لهم واهتمامها بهم وخوفها علیهم وحرصها لهم ...

لقـد کانت- وکما عودتنا فی حیاتها المبارکهٔ- المبادرهٔ إلی کلّ مایرضـی اللَّه تعالی ورسوله ولم تتطاول علیهصـلی الله علیه و آله أبداً طیلهٔ حیاتها معه، کما تطاولت علیه بعضُ نسائه، وکان هذا سـبباً لأذیتهصـلی الله علیه و آله، فحینما رأی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله أنّ بعض نسـائه کنّ یخلقن لهُ المتـاعب، ومطـالبتهنّ بالنفقـهٔ والزینـهٔ حتی ورد قول بعضـهنّ لهُ: لعلّـک تری أنّک إن طلقتنا أن لا نجد الأکفاء من قومنا یتزوجوننا.. وهذا الموقف دفع رسول اللَّهصـلی الله علیه و آله إلی أن یعتزلهنّ تسعهٔ وعشرین یوماً، فکان موقفهنّ هذا سبباً لنزول آیهٔ التخییر یاأیُّها النبیّ قل لأزواجکَ إن کُنتنّ تردن الحیاهٔ الدُّنیا وزینتها فتعالینَ امتعکنّ واسرحکنّ سراحاً جمیلًا وإن کنتنّ تردن اللَّه ورسوله والدار الآخرهٔ فإنّ اللَّه أعدّ للمحسناتِ منکنّ أجراً عظیماً (۱)

.

فبادرت هنا امُّ سـلمهٔ قائلهً: قد اخترتُ اللَّه ورسوله، فنالت بذلکَ سـبق الاختیار هذا وفضـله وأجره.. ثمّ قامت بعدها بقیهٔ نسائهصلی الله علیه و آله، فعانقنه وقلنَ مثل الـذی قالت امُّ سـلمهٔ، ولم تتخلف عن هـذا إلّاواحـدهٔ وهی فاطمـهٔ بنت الضـحّاک، فإنّها اختارت الـدّنیا، ففارقها رسول اللَّهصلی الله علیه و آله وبقیت فی شقاء طول حیاتها (۲).

فی بیتٍ کریم:

هند (وقیل رملهٔ وهو ضـعیف) بنت سـهیل أبی أمیهٔ بن المغیرهٔ بن عبد اللَّه بن عمر بن مخزوم القرشیهٔ، وکان أبوها جواداً کریماً سخیاً، عرف بـذلکَ فی الجاهلیـهٔ ولقبته العرب بزاد الرکب حین کـان هـذا اللقب لاـ یُطلق إلّـاعلی ثلاثـهٔ أو أربعـهٔ أشـخاص، راحت الأمثال تضرب بجودهم، وسارت بذلکَ الرکبان، کان هو أحدهم. فإذا ماکان أحدهم فی سفر فإنّ رفقاء سفره مهما کثروا یتحمّل عنهم

۱- ۱ سورهٔ الأحزاب: ۲۸- ۲۹.

۲- ۲ البحار ۲۲: ۲۰۴، المیزان فی تفسیر الآیهٔ.

ص: ۱۳۲

زادهم وطعامهم طيلة الرحلة التی جمعتهم، ويرفض أن يحمل رفقاؤه شيئاً من ذلک.

قالصاحب لسان العرب فی مادة زود (۱)..

وأزواد الركب من قريش أبو أمية بن المغيرة، والأسود بن المطلب بن أسد ابن عبد العزى، ومسافر بن أبی عمرو بن أمية، وكانوا إذا سافروا، فخرج معهم الناس، فلم يتخذوا زاداً معهم، ولم يوقدوا، يكفونهم ويغنونهم. وهناک من يقول:

إنهم أربعة، فأضاف زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد (۲) أمّا أمّها فهی عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالک بن جذيمة أو خذيمة بن علقمة الكنانية من قبائل بنی فراس الأشراف الأمجاد. وعلقمة جدّها كان يلقب بجذل الطعان، وذكرته كتب التأريخ بأنه رجل كريم يعطی ولا يبخل، يجود ولا يمنع.

وهناک من يقول: إنّ أمّها هی عاتكة بنت عبد المطلب بن عبد مناف عمّة رسول اللّهصلی الله عليه و آله. وقال آخر: إنّها ليست بنت عاتكة هذه وإنمّا هی بنت زوجها.

وعلى فرض كونها بنتاً لعاتكة بنت عبد المطلب أو بنتاً لزوج عاتكة فهی اخت لكلّ من عبد اللّه وزهير ابنی عمة رسول اللّهصلی الله عليه و آله ...

كما أنّها اخت لعمار بن ياسر الصحابی الجليل من الرضاعة، وكانت قد تزوجت أخاً لرسول اللّهصلی الله عليه و آله من الرضاعة أرضعتهما ثويبة، مولاة أبی لهب وترباً له وابن عمته برّة بنت عبد المطلب، وأحد أشراف بنی مخزوم رأياً وشجاعةً وكرماً وجوداً، من المسلمين الأوائل وممن هاجر الهجرتين وهو أبو سلمة عبد اللّه بن عبد الأسد بن هلال بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم، وكان ذاک قبل أن يمنّ اللّه تعالى عليها لتكون أمّاً للمؤمنين بنصّ القرآن الكريم، بعد أن تلطّف اللّه تعالى عليها لتكون زوجة لحبيبه رسول اللّهصلی الله عليه و آله.

وكانت- كما يقول الذهبی- من أجمل النساء، وأشرفهنّ نسباً.

۱- ۱ ابن منظور فی لسان العرب ۴: ۱۸۱. وغيره من مصادر التاريخ.

۲- ۲ ذكر ذلک فی الهامشصاحب كتاب نساء أهل البيت عن المحبر ۱۳۷ وعن المنمق: ۳۶۸- ۳۶۹.

ص: ۱۳۳

قالت امُّ المؤمنين عائشة- عن جمال امّ سـلمة-: «لمّا تزوّج رسول اللَّهصـلى الله عليه و آله «امّ سلمة» حزنتُ حزناً شديداً لما ذكر لنا من جمالها، فتلطفتُ حتى رأيتها، فرأيتُ أضعاف ماوُصفت به».

إذن فكلّ من أصلها العريق ومنبتها الكريم أضفى على حياتهاصفات عظيمة وخلقاً كريماً واكبها طيلة حياتها المباركة وميّزها عن غيرها من النساء..

يقول عنها أحمد خليل جمعة في موسوعته القيمة (نساء أهل البيت): لو أَلقينا الأضواء على حياة امّ سلمة قبيل الإسلام؛ لألفينا أنّها امرأة ذات شرف وطهر في أهلها، وذات نسب مُعرِقٍ في المعالي، ومنبتٍ كريم حسيب في قومها بنى مخزوم، ثمّ هي بعد ذلكَ كلّه، ابنة واحد من كرماء قريش، وأنداهم كفّاً، وأجودهم عطاءً، فأبوها زاد الركب أحد الأجواد الذين سارت الأمثال والركبان بالحديث عن جودهم، فكانوا إذا سافروا، وخرجَ معهم الناس، لم يتخذوا زاداً معهم، ولم يوقدوا ناراً لهم، فيكفونهم ويغنونهم.

ولا ريب أنّ هند بنت أبي اميّة، قد تأثرت بهذه البيئة الكريمة، التي عاشتها في مطلع فجر حياتها، وأرت مارأت من مكانة أبيها وكرامته وكرمه بين الناس، فلا عجب أن تكون هي الاخرى، ذات يد معطاء، ونفسصافية، تعرف مكامنَ الرحمة، فتفجّر البّر في نفوس الناس تفجيراً (۱).

إسلامها وهجرتها:

في بداية نور الإسلام ورغم عناد الوليد بن المغيرة، زعيم بني مخزوم، أسلمت امُّ سلمة وزوجُها.. وبعد ما ثارت حفيظة مشركي مكة وعظم غيضهم واشتد أذاهم للمسلمين، هاجرت معه إلى الحبشة فكانا أوّل المهاجرين، فنالت بذلكَ وسام أولى المهاجرات.

يقول النووي في تهذيبه نقلًا عن ابن الأثير: أوّل مهاجرة من النساء امُّ سلمة (۲). ومـاإن عادت وزوجها إلى مكّة من الحبشة مكان هجرتها الأولى حتى

۱- ۱ أحمد خليل جمعة- نساء أهل البيت: ۲۲۵- ۲۲۶.

۲- ۲ تهذيب النووي ۲: ۳۶۲.

ص: ۱۳۴

استعدا للهجرة مرّة اخرى إلى المدينة بعد أن توفى أبو طالب عمّ رسول اللّهصلى الله عليه و آله وحاميه، فعادت بذلكَ قريش إلى اضطهاد المسلمين، فصدر أمر رسول اللّهصلى الله عليه و آله بالهجرة إلى المدينة، فكان زوجها أبو سلمة أوّل المهاجرين حيث هاجر قبل بيعة العقبة بسنة، وقد حلّت مصيبة مؤلمة بهذه الاسرة الكريمة.

تقول الرواية عن امّ سلمة:

قالت: لما أجمع أبو سلمة على الخروج الأوّل إلى المدينة رحّل لى بعيره، ثمّ حملنى عليه وحمل معى ابنى سلمة فى حجرى، ثمّ خرجَ يقود بى بعيره، فلما رأته رجال بنى المغيرة.. قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسكَ غلبتنا عليها، أرأيتَصاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذونى منه، وغضب عند ذلك بنو عبد أسد، رهط أبى سلمة، قالوا: لا واللّه لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها منصاحبنا، فتجاذبوا ابنى سلمة بينهم، حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو أسد، وحبسنى بنو المغيرة عندهم، وانطلقَ زوجى أبو سلمة إلى المدينة، ففرقَ بينى وبين زوجى وبين ابنى. فكنتُ أخرج كلّ غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكى حتى أمسى، سنة أو قريباً منها، حتى مرّ بى رجل من بنى عمّى أحد بنى المغيرة، فرأى مابى فرحمنى، فقال لبنى المغيرة: ألا تحرجون من هذهِ المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها؟ فقالوا لى: ألحقى بزوجك إن شئتِ، وردّ بنو عبد الأسد عند ذلك ابنى.

فارتحلتُ بعيرى، ثمّ أخذتُ ابنى فوضعته فى حجرى، ثمّ خرجتُ اريد زوجى بالمدينة، ومامعى أحد من خلق اللّه.. حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة [وكان مشركاً] أخا بنى عبد الدار، فقال: إلى أين يابنت أبى اميّة؟

قالت: فقلتُ: أريد زوجى بالمدينة.

ص: ۱۳۵

قال: أوما معک أحد؟

فقلتُ: لا واللّه إلّااللّه وابنی هذا.

قال: واللّه مالک من مترک.

فأخذ خطام البعیر، فانطلقَ یهوی بی، فواللّه ماصحبتُ رجلًا من العرب قط أری أنه کان أکرمَ منه، حتی أقدمنی المدینهٔ.

فلما نظر إلی قریهٔ بنی عامر بن عوف بقباء قال: زوجک فی هذهِ القریهٔ- وکان أبو سلمهٔ بها نازلًا- فأدخلیها علی برکهٔ اللّه. ثمّ انصرف راجعاً إلی مکّهٔ، وهنا کانت تقول امُّ سلمهٔ: واللّه ماأعلمُ أهل بیت فی الإسلام أصابهم ماأصاب آل أبی سلمهٔ، ومارأیتُصاحباً قطّ أکرم من عثمان بن طلحهٔ، وهناک روایهٔ أخری تحمل کلاماً آخر لها تقول فیه:

«فواللّه ماصحبت رجلًا من العرب قط أکرم منه، ولا أشرف منه، کان إذا بلغ منزلًا من المنازل ینیخ بعیری، ثم یستأخر عنی، حتی إذا نزلت عن ظهره واستویت علی الأرض، دنا الیه وحطّ عنه رحله، واقتاده إلی شجرهٔ وقیده فیها ... ثم یتنحی عنی إلی شجرهٔ أخری فیستریح جوارها، فإذا حان الرواح، قام إلی بعیری، فإذا رکبت، أخذ خطامه وقاده. (وقد أسلمَ فی الحدیبیهٔ وهاجر إلی المدینهٔ، ثم شهد فتح مکّهٔ، وتسلمّ مفتاح الکعبهٔ من رسول اللّهصلی الله علیه و آله). هذا عن هجرتها إلی المدینهٔ.

أمّا عن هجرتها الاولی إلی الحبشهٔ وکانت برفقهٔ زوجها أبی سلمهٔ، فقد تفرّدت روایتها عن تلک الهجرهٔ بدقهٔ وصفها لها وللدور العظیم الذی أدّاه جعفر بن أبی طالب رضوان اللّه علیه. تقول روایهٔ امّ سلمهٔ التی اتسمت بقوهٔ بیانها وفصاحتها ودقهٔ تصویرها لأحداثها حتی عدّت روایتها للهجرهٔ من أوثق مصادر الهجرهٔ.

تقول روایتها:

لما ضاقت علی النبیصلی الله علیه و آله مکّهٔ، وأوذی أصحابه، وفتنوا، ورأوا ما یصیبهم

ص: ۱۳۶

من البلاء والفتنة فى دينهم، وأن رسول اللَّهصلى الله عليه و آله لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول اللَّهصلى الله عليه و آله فى منعة من قومه ومن عمّه، لا يصل إليه شىء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول اللَّهصلى الله عليه و آله: إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل اللَّه لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه.

فخرجنا إليها أرسالًا حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنا على ديننا، ولم نخش ظلماً.

فلما رأت قريش أنا قد أصبنا داراً وأمناً، اجتمعوا على أن يبعثوا إليه فينا؛ ليخرجنا من بلاده، وليردنا عليهم. فبعثوا عمرو بن العاص وعبد اللَّه بن أبى ربيعة، فجمعوا له هدايا ولبطارقته، فلم يَدَعُوا منهم رجلًا إلّابعثوا له هدية على حِدَة، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا فيهم، ثمّ ادفعوا إليه هداياه، وإن استطعتما أن يردهم عليكم قبل أن يكلمهم فافعلوا.

أقول: كانت تخشى قريش أن ينطلق الحقّ من لسانهم ووقع الذى كانت تخشاه.

فقدما علينا، فلم يبق بطريق من بطارقته إلّاقدّموا إليه هديته، فكلموه، فقالوا له: إنّا قدمنا على هذا الملك فى سفهاء من سفهائنا، فارقوا أقوامهم فى دينهم، ولم يدخلوا فى دينكم، فبعثَنا قومُهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه فأشيروا عليه بأن يفعل، فقالوا: نفعل، ثم قدّموا إلى النجاشى هداياه، فكان من أحبّ ما يهدى إليه من مكّة الأَدَم. فلما أدخلوا عليه هداياه، فقالوا له: أيها الملك إن فتية منا سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لَجأُوا إلى بلادك، فبَعَثنا إليك فيهم عشائرهم، آباؤهم وأعمامهم وقومهم لتردهم عليهم، فهم أعلى بهم (۱) عيناً.

فقالت بطارقته:صدقوا أيها الملك، لو رددتهم عليهم وكانوا هم أعلى بهم، فإنهم لم يدخلوا فى دينك فيمنعهم أملك. فغضب، ثمّ قال: لا، لعمر اللَّه، لا أردهم

۱- ۱.. وأعلى بهم عيناً أى أبصر بهم، وأعلم بحالهم. اللسان: علا.

ص: ۱۳۷

عليهم حتى أدعوهم وأكلمهم وأنظر ما أمرهم، قوم لَجأُوا إلى بلادى، واختاروا جوارى على جوار غيرى، فإن كانوا كما تقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم، ولم أدخل بينهم وبينهم، ولم أنعمهم عيناً فأرسل إليهم النجاشى فجمعهم- ولم يكن شيء أبغض إلى عمرو بن العاص وعبداللَّه بن أبى ربيعة من أن يسمع كلامهم- فلما جاءهم رسول النجاشى اجتمع القوم فقال: ماذا تقولون؟

فقالوا: ماذا نقول؟! نقول واللَّه ما نعرف وما نحن عليه من أمر ديننا، وما جاء به نبيناصلى الله عليه و آله كائن من ذلك ما كان، فلما دخلوا عليه كان الذى يكلمه منهم جعفر بن أبى طالب، فقال له النجاشى:

ما هذا الدين الذى أنتم عليه؟ فارقتم دين قومكم، ولم تدخلوا فى يهودية ولا نصرانيه، فما هذا الدين؟

.. أيها الملك كنّا قوماً على الشرك، نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحلّ المحارم.. وغيرها، لا نحلّ شيئاً ولا نحرّمه، فبعث اللَّه إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءَه وصدقَه وأمانتَه، فدعانا إلى أن نعبد اللَّه وحده لا شريك له، ونصلَ الرحم، ونُحسِنَ الجوار، ونصلّى للَّه‏تعالى، ونصوم له، ولا نعبد غيره، فقال:

هل معك شيء مما جاء به؟ وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله، فقال له جعفر: نعم، فقال: هلمّ فاتلُ علىَّ ما جاء به. فقرأ عليهصدراً من كهيعص فبكى واللَّه النجاشى حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم. ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التى جاء بها موسى؛ انطلقوا راشدين، لا، واللَّه لا أردهم عليهم، ولا أنعمكم عيناً، فخرجنا من عنده، وكان أتقى الرجلين فينا عبداللَّه بن أبى ربيعة، فقال عمرو بن العاص: واللَّه لأثنينه غداً بما أستأصل به خضراءهم (۱). فلأخبرنه أنهم يزعمون أن إلهه الذى يعبد عيسى بن مريم عبد.

فقال له عبداللَّه بن أبى ربيعة: لا تفعل.. فإنهم إن كانوا خالفونا فإن لهم رحماً

۱- ۱ خضراءهم: شجرتهم التى منها تفرعوا.

ص: ۱۳۸

ولهم حقـاً، فقـال: واللَّه لأفعلن، فلما كان الغـد دخل عليه، فقال: أيها الملك، إنهم يقولون فى عيسـى قولًا عظيماً، فأرسل إليهم فسـلهم عنه، فبعث إليهم، ولم ينزل بنا مثلها. فقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون له فى عيسى إن هو سألكم عنه؟

فقـالوا: نقول واللَّه الـذى قـاله اللَّه تعـالى، والـذى أمرنـا به نبيناصـلى الله عليه و آله أن نقول فيه: فـدخلوا عليه وعنـده بطارقته، فقال: ما تقولون فى عيسى بن مريم؟

نقول: هو عبـدُ اللَّه ورسوله وكلمتهُ وروحهُ ألقاها إلى مريم العـذراء البتول، فـدلى النجاشـى يده إلى الأرض، فأخذ عوداً بين أصـبعيه، فقال: ما عـدا عيسـى بن مريم ما قلت هـذا العويـد (۱)، فتنـاخرت بطـارقته، فقـال: وإن تناخرتم واللَّه، اذهبوا، فأنتم شـيوم فى أرضـى- والشـيوم: الآمنون- مَن سبّكم غرم، ثمّ من سبّكم غرم، ثمّ مَنْ سبّكم غرم، فأنـا ما أحب أن لى دَبْراً وأنى آذيتُ رجلًا منكم- والـدبر بلسانهم: الذهب- فواللَّه ما أخذ اللَّه تعالى منى الرشوة حين ردّ على ملكى فآخذ الرشوة منه، ولا أطاع الناس فىّ فأطيع الناس فيه، ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجهٔ إلى بها، وأخرجا من بلادى. فرجعا مقبوحَيْن مردوداً عليهما ما جاءا به.

فأقمنا مع خير جار، وفى خير دار.

فلم ينشب أن خرج عليه رجل من الحبشـهٔ ينازعه فى ملكه، فواللَّه ما علمنا حزناً حزنّا قط كان أشـدّ منه فرقاً من أن يظهر ذلك الملك عليه، فيـأتى ملـك لاـ يعرف من حقنا ما كان يعرفه، فجعلنا نـدعو اللَّه ونستنصـره للنجاشـى، فخرج إليه سائراً... فهزم اللَّه ذلك الملك وقتله، وظهر النجاشـى عليه... فواللَّه ما علمنا فرحنا بشـىء قط فرحنا بظهور النجاشـى، ثمّ أقمنا عنده حتى خرج من خرج منا راجعاً إلى مكهٔ، وأقام من أقام... (۲) وأخيراً عادت امّ سلمهٔ وزوجها ومعهما أولادهما (زينب وسلمهٔ وعمر ودرهٔ) الذين ولدوا هناك- على قولٍ- فى دار هجرتها الحبشهٔ، عادوا جميعاً إلى مكّهٔ، وكانت عودهٔ المهاجرين إلى مكّهٔ إمّا خفاءً أو بجوار أحدٍ من وجوه مكّهٔ بعد

۱- ۱ العويد: أى مقدار هذا العود الصغير.

۲- ۲ مختصر تاريخ دمشق ۶: ۶۳، ۶۴، ۶۵.

ص: ۱۳۹

أن وردتهم أخبار بأنّ أهل مكـة قـد أعلنوا إسـلامهم وآمنوا برسالة محمدصـلى الله عليه و آله، فلما وصـلوا مكة عرفوا أن لاصـحة لما سمعوا، فـدخلوها متخفين أو لائـذين بوجه من وجوه أهـل مكـة، فـدخلت أم سـلمة وزوجها فى جوار أبى طالب بن عبـدالمطلب وهو خاله.

وهناك من يقول: إنها وزوجها هاجرت هجرتين إلى الحبشة: الأولى فى رجب سـنة خمس من المبعث، والثانية بعدها بعدّة شـهور بعد أن رجع المسـلمون المهـاجرون ظـانين إسـلام قريش، فاشـتد أذى قريش لهم، فأذن لهم الرسولصـلى الله عليه و آله بالهجرة مرة ثانيـة. (۱)رحيل «أبو سلمة»

كانصـحابياً مجاهـداً هاجر الهجرتين، وشـهد بدراً وقد أبلى فيها بلاءً حسـناً، وبعدها شـهد احداً فلم يقل بلاؤهُ فيها عن بدر، حتى ثخن بالجراح، فشـفى منها إلّا جرح كان غائراً فى عضده اندمل ظاهره دون باطنه، ومع هذا فقد اسـتعمله رسولاللَّهصـلى الله عليه و آله على المدينة مرّةً، ومرّة اخرى قاد بأمر رسول اللَّهصلى الله عليه و آله سرية، ومعه مائة وخمسون رجلًا إلى قطن وهو جبل لبنى أسد فى نجد. نترك ابنه عمر يشـرح لنا كلّ ذلك حيث قال: خرج أبى إلى أحد فرماه أبو سـلمة الجشـمى فى عضده بسـهم فمكث شهراً يداوى من جرحه ثم برئ الجرح. وبعث رسول اللَّهصـلى الله عليه و آله أبى إلى قطن (وهى جبل من أرض بنى أسـد ناحية فيد وفى الطبقات: بيّد (۲)). فى المحرم، على رأس خمسـة وثلاثين شـهراً، فغاب تسـعاً وعشـرين ليلة ثم رجع. فدخل المدينة لثمان خلون منصـفر سـنة اربع. والجرح منتقض، فمات منه لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة أربع من الهجرة. (۳) لقد كان الهدف من غزوة أبى سلمة هو منع بنى أسـد من الهجوم على المسـلمين فى المدينة بعد أن بلغه- أى بلغ رسول اللَّه- أن قائدى بنى أسد يحرضان قومهما لغزو المدينة ونهب أموال المسلمين فيها. (۴) فكان لحملته دور كبير فى إعادة ماخسره

۱- ۱ انظر طبقات ابن سعد ۱: ۲۰۳- ۲۰۷.

۲- ۲ معجم البلدان ۴: ۳۷۴.

۳- ۳ الطبقات ۸: ۸۷- ۸۸.

۴- ۴ غزوات الرسول، لمحمود شيت خطاب.

ص: ۱۴۰

المسلمون فی احد من معنویات بعد أن نالت النصر علی أعدائهم..

وراح هذا الصحابی الجلیل یواصل جهاده فی الوقت الذی لم یندمل جرحه الذی راح هو الآخر یتسع، مما دفع أبو سلمهٔ إلی أن یلازم فراشه.

مما أنعمَ به اللَّه تعالی علی هذا المجاهد أن یکون رسول اللَّهصلی الله علیه و آله وهو أخوه من الرضاعهٔ وابن عمته وحبیبه حاضراً لحظات حیاته الأخیرهٔ یودعه ویسبل یدیه ویغلق عینیه ویدعو له:

«اللهُمّ اغفر لأبی سلمهٔ وارفع درجته فی المقربین..»

ثمّصلّی علیه. ویروی أنّ الرسولصلی الله علیه و آله کبّر فی هذه الصلاهٔ تسع تکبیرات، ولمّا انتهی من الصلاهٔ سأله أصحابه عن ذلک فقال: لو کبرتُ علی أبی سلمهٔ ألفاً لکان أهلًا لذلک.

الزواج المبارک:

رحل عنها أبو سلمهٔ، وترکها ذات عیال، أربعهٔ أولاد: سلمهٔ وقد وُلِدَ بالحبشهٔ، وعمر ودرهٔ (رقیهٔ) وبرهٔ وقد غیّر اسمها رسول اللَّهصلی الله علیه و آله إلی زینب، قائلًا:

لا تزکوا أنفسکم، اللَّه أعلمُ بأهل البر منک (منکم)، سموها زینب.

وقد کبر سنّها، وراحت- مع کلّ آلامها علی زوجها، الذی ماجفّت دموعها لفقده، فقد کانت تحبّه حبّاً عظیماً- ترعیصغارها، وتتذکر ماکان یوصیها به أبو سلمهٔ فی مرضه الذی توفی فیه، عبر حوارٍ دار بین الاثنین أحدهما کان مسجّی والآخر یذرفُ دموعه بألم وحرقهٔ ومرارهٔ.

قالت امُّ سلمهٔ: بلغنی أنه لیس امرأهٔ یموت زوجها وهو من أهل الجنّهٔ، ثمّ لم تتزوج بعده إلّاجمع اللَّه بینهما فی الجنّهٔ، وکذلک إذا ماتت المرأهٔ وبقی الرجل بعدها.

فتعال اعاهدک علی ألّا تتزوج بعدی، ولا أتزوج بعدک.

قال أبو سلمهٔ: أ تطیعیننی؟

قلت: مااستأمرتک إلّاوأنا أرید أن أطیعک.

ص: ۱۴۱

قال: فإن متُّ فتزوجی بعدی، ثمّ قال: اللهُمّ ارزق امّ سلمة بعدی رجلًا خیراً منی لا یُحزنها ولا یؤذیها (۱).

وإنی لأذکر ماکان یقوله أبو سلمة ویدعو به وهو ماتعلمهُ من رسول اللَّهصلی الله علیه و آله:

إذا أصاب أحدکم مصیبة فلیقل: إنّا للَّهوإنّا إلیه راجعون، اللهُمّ عندکَ أحتسب مصیبتی، فأجرنی فیها، وأبدلنی بها ماهو خیر منها.

وتقول امُّ سلمة: لما احتضر أبو سلمة قال: اللهُمّ اخلفنی فی أهلی بخیر. فلما قبض قلتُ: إنّا للَّهوإنّا إلیه راجعون، اللهُمّ أحتسب عندکَ مصیبتی. وأردت أن أقول (وهنا توقفت امُّ سلمة قلیلًا قبل أن تقول): وأبدلنی بها خیراً منها، فقلت:

ومن خیر من أبی سلمة؟!

وفی روایة أنّها قالت: من هذا الفتی الذی هو خیرٌ من أبی سلمة؟ وفی اخری قالت: أی المسلمین خیرٌ من أبی سلمة، أول بیت هاجر إلی رسول اللَّه؟!

قالت: فما زلتُ حتی قلتها (۲).

وهی فی هذا الحال- وبعد أن انتهت عدّتها- تقدّم لخطبتها بعض کبار الصحابة: أبو بکر، فلم توافق علیهِ، وجاءها خاطباً عمر بن الخطاب وهو من أرحامها، یلتقی نسبه ونسبها فی کعب، فعمر بن نفیل بن عبد العزی... بن عدی ابن کعب. وأمّا امُّ سلمة فهی بنت أبی امیّة... بن مخزوم بن یقظة بن مرة بن کعب.

فی حین وجدتُ أنّ موسوعة أمّهات المؤمنین قد ذکرت أنّ فی زاد المعاد فی ج ۱ص ۴۱ أنّ امّ سلمة خالة عمر بن الخطاب، فامّه حنتمة بنت هاشم بن المغیرة، وامُّ سلمة بنت سهیل بن المغیرة.

أقول: إنها هنا- وبحسب ما ذکره- ابنت عمّ امّه ولیست خالته، ولهذا تقدّم لخطبتها (۳) فردّته بقوة.

أرسل لها رسول اللَّهصلی الله علیه و آله من یبلغها برغبته فی الزواج منها.

تقول: أرسل لی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله حاطب بن أبی بلتعة یخطبنی لهُ.

۱- ۱ الطبقات ۸: ۸۷- ۸۸.

۲- ۲ الطبقات ۸: ۷۸.

۳- ۳ موسوعة امهات المؤمنین، هامش: ۱۴۳.

ص: ۱۴۲

فقلتُ: مرحباً برسول اللَّه وبرسوله. أخبر رسول اللَّه أنی فیّ خلال، لا ینبغی لی أن أتزوّج رسول اللَّه. وراحت بکلّ أدب وحیاء وعفّة تبیّن لهُ هذه الصفات.

وهی: أنی أمرأة مُصبیة. أی ذات أولاد. وأنی غَیْری. وأنه لیس أحد من أولیائی شاهداً. وأنا امرأة قد دخلت فی السن...

فبعثَ لها رسول اللَّهصلی الله علیه و آله: أمّا قولک: إنی مُصبیة، فإنّ اللَّه سیکفیکصبیانک.

وأمّا قولک: إنی غیری، فسأدعو اللَّه أن یُذهبَ عنک غیرتَک. وأمّا الأولیاء، فلیس أحد منهم، شاهد أو غائب، إلّاسیرضانی (۱). وأمّا ماذکرتِ من السن، فقد أصابنی مثل الذی أصابک.

فتزوجها رسول اللَّهصلی الله علیه و آله فی السنة الرابعة وقیل الثالثة فی العشرالأواخر من شهر شوال، وقد زوّجه إیّاها سلمة بن أبی سلمة ابنها، وأصدقها رسول اللَّهصلی الله علیه و آله فِراشاً حشوه لیف، وخدماً وصَحفَةً ومِجَشةً (۲).

وبذلکصارت امُّ سلمة زوجة لرسول اللَّهصلی الله علیه و آله، وولجت بیته المبارک، وکانت غرفتها غرفة امّ المؤمنین زینب بنت خزیمة، التی توفیت فی أوّل العام الرابع للهجرة، وهی أول من توفی من نسائه اللاتی کنّ عنده بعد أمّ المؤمنین خدیجة.

وفی أوّل یوم زواجها أخذت أمّ سلمة تتفحص حجرتها؛ لتعرف مابها، قالت:... فإذا جرة فاطلعت فیها، فإذا فیها شیء من شعیر، وإذا برحی، وبرمة، وقدر، فنظرتُ فإذا فیها کعب من إهالة، فأخذت ذلک الشعیر وطحنته، ثمّ عصدته فی البرمة، وأخذت الکعب من الإهالة فأدمت به، فکان ذلک طعام رسول اللَّه، وطعام أهله لیلة عرسه. (۳) وکانت المکافأة التی قدّمها رسول اللَّهصلی الله علیه و آله لسلمة علی ماقدمه هذا الأخیر فی زواج امّه من رسول اللَّهصلی الله علیه و آله أن زوّجه رسولُ اللَّهصلی الله علیه و آله أمامةَ بنت حمزة سید الشهداء، وأقبلصلی الله علیه و آله علی أصحابه قائلًا: ترون کافأته؟

حبّها للجهاد:

لم یکلف الإسلام المرأة بالقتال وجنّبها إیاه، وإن تحمّلت أعباءَه وآثاره، فقد

۱- ۱ الطبقات ۸: ۸۷.

۲ – ۲ السیرة النبویة لابن هشام ۴: ۶۴۵. المجشة: الرحی، یُقال: جششتُ الطعام فی الرحی إذا طحنته طحناً غلیظاً، ومنه الجشیش والجشیشة.

۳- ۳ الطبقات ۸: ۹۲.

ص: ۱۴۳

كانت المرأة المسلمة تبادر إلى الخطوط الخلفية للمعارك وحتى الأمامية أحياناً، لتضميد الجرحى ومداواتهم وتجهيز المقاتلين بما يحتاجون إليه من ماءٍ وطعام وعدّةٍ وسداد.

وامُّ المؤمنين امُّ سلمة كانت واحدة من اللواتى قمن بدورهنّ هذا، ونالت شرف الجهاد والمجاهدين بعد أنصحبت رسول اللَّهصلى الله عليه و آله فى غزواته ومعاركه فى غزوة المريسيع وفى فتح خيبر وفى حصاره للطائف وغزوة هوازن وثقيف، كما أنّها رافقته فى رحلته الاولى إلى مكّة حيث تمّصلح الحديبية.

طالما تمنت هذه المرأة مع غيرها من المؤمنات أن يكلّفهنّ اللَّه سبحانه وتعالى بالجهاد إلى جنب إخوانهنّ من المؤمنين طمعاً فى أجره العظيم وثوابه الجزيل وشرفه الكبير فى الدُّنيا والآخرة فقلن:

(ليتَ اللَّه كتب علينا الجهاد، كما كتب على الرجال، فيكون لنا من الأجر مثل مالهم).

فكان قولهنّ هذا وامنيتهنّ سبباً فى نزول الآية الكريمة: ولا تتمنوا مافضّل اللَّه بِهِ بعضكم على بعض (۱)

.

منزلها مهبط الوحى:

كانت حجرتها مهبط الوحى، فقد وردَ أن من مكارمها أنها رأت جبرئيل عليه السلام وهو فيصورة دحية الكلبى، فقد ورد عن الصحابى الجليل سلمان الفارسى رضوان اللَّه عليه حيث قال: انبئتُ أنّ جبرئيل عليه السلام أتى النبيَّصلى الله عليه و آله وهو عند امّ سلمة، فجعل يتحدّث، ثمّ قام، فقال النبيّصلى الله عليه و آله لأمِّ سلمة: ومَن هذا؟

قالت: هذا دحية الكلبى.

قالت: واللَّه ماحسبتُه إلّاإيّاه. (۲)

ومن مكارمها أيضاً نزول آية التطهير إنما يريدُ اللَّهُ ليذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت ويطهركم تطهيراً فى بيتها. فبعد أن جمع رسولُ اللَّه كلّاً من على

۱- ۱ أعلام النساء ۵: ۲۲۴.

۲- ۲ التاج الجامع للاصول ۳: ۳۸۳.

ص: ۱۴۴

وفاطمـة والحسن والحسـين وضـمّهم تحتَ كسـاء واحـد، نزل جبرئيـل بهـذه الآيـة المباركـة عليهم.. تنظر امُّ سـلمة إلى ماقام به رسول اللّهصـلى الله عليه و آله من جمعهم وضمّهم تحت كساء واحد.. ولأنها على قدر كبير من المعرفة والمنزلة، ولأنها السباقة إلى كلّ خير والى كـلّ مـا ينفعها فى آخرتها ودنياها أيضاً، ولأنها تعرف منزلـة المجتمعين، راحت تتمنى بل طلبت الانضـمام اليهم بقوة وأن تكون معهم؛ لتنال بذلك ممّا أعدّه تعالى لهؤلاء الصفوة من خير وبركة..

وكيـف لاـ تتمنى أن تكـون معهم وهى تسـمع رسـول اللّهصـلى الله عليه و آله ودعـاءه: اللهُمّ هؤلاـء أهـل بيـتى، أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

فتبادر إلى ذلك قائلة:

فأنا منهم يانبىّ اللّه؟!

ويأتيها الجواب من رسول اللّهصلى الله عليه و آله:

«أنتِ على مكانـك، وأنتِ على خير» أى أنّ مكانـك محفوظ امّـاً للمؤمنين، وموقفـك يتسم بالخير والصـحة، ولكنّك لست من أهل بيتى الذين خصّهم اللّه تعالى بخصائص، وتفرّدوا بصفات اختارها اللّه لهم دون غيرهم، وميّزهم بها على جميع خلقه..

وكان لأمّ سـلمة شـرف رواية هذا كلّه حيث قالت: «دعا رسول اللّه حسـناً وحسيناً، وفاطمة، فأجلسهم بين يديه ودعا علياً فأجلسه خلفه، فتجلّل هو وهم بالكساء، ثمّ قال: «هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». (۱) فعن عطاء بن أبى رباح عن امّ سلمة: أنّ النبيّصـلى الله عليه و آله كـان فى بيتهـا، فـأتته فاطمـة ببرمـة فيهـا جزيرة، فـدخلت بها عليه، فقالصـلى الله عليه و آله لها: ادعى زوجك وابنيـك .. إلى أن قالت: فأنزل اللّه عزّ وجلّ هـذه الآيـة: إنما يريـدُ اللّهُ ليـذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت ويطهركم تطهيراً... ثمّ قالت: فأخذ فضل الكساء، فغشاهم به، ثمّ أخرجَ

۱- ۱ تاريخ الطبرى، تاريخ ابن كثير، الترمذى فيصحيحه.

ص: ۱۴۵

یده، فألوی بها إلی السماء، ثمّ قال: «اللهُمّ هؤلاء أهل بیتی وخاصتی، اللهُمّ أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهیراً».

قالت امُّ سلمة: فأدخلتُ رأسی البیت، فقلتُ: وأنا معکم یارسول اللَّه؟

قالصلی الله علیه و آله: «إنّک إلی خیر، إنّک إلی خیر».

تحدثت روایهٔ اخری عن أنّها من أهل البیت بنصّ رسول اللَّهصلی الله علیه و آله، وهی ماکانت تسعی إلیه طیلهٔ عمرها المدید: حدّثوا أنه کان یوماً عندها وابنتها زینب هناک، فجاءته الزهراء مع ولدیها الحسن والحسین علیهما السلام، فضمّهما إلیه، ثمّ قال:

رحمهٔ اللَّه وبرکاته علیکم أهل البیت إنه حمیدٌ مجید.

فبکت امُّ سلمهٔ فنظر إلیها رسولُ اللَّهصلی الله علیه و آله وسألها فی حنو: مایبکیک؟

أجابت: یارسول اللَّه خصصتَهم، وترکتنی وابنتی.

قال: إنّک وابنتک من أهل البیت (۱).

ومن حبّها لأهل البیت:: أن جعلت ابنها عمر بن أبی سلمهٔ فی جیش علیّ علیه السلام. ولها مواقف أخری سنأتی علی ذکر بعضها.

أبو لبابهٔ الأنصاری:

«إن نزلتم علی حکمه (حکم رسول اللَّهصلی الله علیه و آله) فهو الذبح».

هذا ماقاله أبو لبابهٔ الأنصاری لزعماء یهود بنی قریظهٔ. فقد غزاهم رسولاللَّهصلی الله علیه و آله فی السنهٔ الخامسهٔ للهجرهٔ وحاصرهم حتی جهدهم الحصار. قذف اللَّه فی قلوبهم الرعب، فبعثوا إلی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله أن یرسل إلیهمصاحبه «أبا لبابهٔ ابن عبد المنذر الأنصاری؛ لیستشیروه فی أمرهم. فأرسله إلیهم، فلما رأوه قام إلیه الرجال، وجهش إلیه النساء والصبیان یبکون فی وجهه، فرّقَ لهم.

وسألوه: یاأبا لبابهٔ، أتری أن ننزل علی حکم محمد؟

فأجاب: نعم، إنّه الذبح، وأشار بیده إلی حلقه.

فما زالت قدماه من مکانهما حتی عرف أنّه خان اللَّه ورسوله. وانطلق علی

۱- ۱ انظر السمط الثمین: ۲۰.

ص: ۱۴۶

وجهه، فربط نفسه إلى عمود من عمد المسجد، وقال: لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب اللَّه علىّ مماصنعت...

ولما بلغ رسول اللَّهصلى الله عليه و آله خبره، وكان قد استبطأه، قال: أما أنه لو جاءنى لاستغفرت له. فأمّا إذ فعل مافعل، فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب اللَّه عليه.

أو أنّ الانصارى المذكور كان واحداً من جماعة تخلفوا عن رسول اللَّهصلى الله عليه و آله فى غزوة تبوك على رواية ثانية.. وكلٌّ منهما- لا شك- ذنب كبير وخطير.

أَوثَق- لأحد السببين المذكورين- نفسه بسارية المسجد النبوى معترفاً بما جنته نفسه، وبقى هكذا ست ليال، كانت تأتيه امرأته فى كلّصلاة فتحمله للصلاة، ثمّ يعود فيرتبط بالجذع رافضاً أن يُطلقه غير رسول اللَّهصلى الله عليه و آله.. وقد رفض هو الآخر إطلاقه حتى يأتيه أمر اللَّه تعالى به، وكان رسول اللَّه منتظراً لذلك.

وشاءت السماء أن يكون منزل امّ سلمة مهبطاً للوحى يحمل الآية الكريمة:

.. وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملّاصالحاً وآخر سيئاً.. (۱)

.

تقول امُّ سلمة: سمعتُ رسول اللَّهصلى الله عليه و آله من السحر وهو يضحك.

قالت: قلتُ: ممّ تضحك يارسول اللَّهصلى الله عليه و آله، أضحك اللَّه سنّك؟

قال: تيب على أبى لبابة.

قالت: قلت: أفلا ابشره يارسول اللَّه؟

قال: بلى، إن شئتِ.

فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يُضرب عليهنّ الحجاب.

فقالت: ياأبا لبابة، أبشر فقد تاب اللَّه عليك.

قالت: فثار الناس إليه ليُطلقوه.

فقال: لا واللَّه حتى يكون رسول اللَّهصلى الله عليه و آله هو الذى يطلقنى بيده..

فلمّا مرّ عليه رسول اللَّهصلى الله عليه و آله- بعد نزول الآية- خارجاً إلى الصلاة، أطلقه (۲)(۳).

۱- ۱ سورة التوبة: ۱۰۲.

۲- ۲ السيرة النبوية لابن هشام ۳: ۲۳۸، وأسباب النزول للواحدى: ۲۶۳ ومجمع البيان للطبرسى، الآية منسورة التوبة.

۳- ۲ السيرة النبوية لابن هشام ۳: ۲۳۸، وأسباب النزول للواحدى: ۲۶۳ ومجمع البيان للطبرسى، الآية منسورة التوبة.

ص: ۱۴۷

ومن بيتها أيضاً انطلقت توبة السماء على الثلاثة (كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع) الذين تخلفوا من الصحابة عن غزوة تبوك.

يقول واحد منهم وهو كعب بن مالك مبيناً دور أم سلمة وإحسانها اليه:

... ونهى النبيّصلى الله عليه و آله عن كلامى وكلامصاحبى، ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا، فاجتنب الناسُ كلامنا، فلبث كذلك حتى طال عليّ الأمر، وما من شى أهم إليّ من أن أموت فلا يصلى عليّ النبيّصلى الله عليه و آله، أو يموت رسول اللَّهصلى الله عليه و آله فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمنى أحد منهم، ولا يصلى عليّ، وفى رواية: أن رسول اللَّهصلى الله عليه و آله قال: اقسم باللَّه، لا- أطلقهم حتى أؤمر بإطلاقهم، ولا أعذرهم حتى يكون هو يعذرهم، فانزل اللَّه توبتنا على نبيّهصلى الله عليه و آله حين بقى الثلث الآخر من الليل، ورسول اللَّهصلى الله عليه و آله عند امّ سلمة، وكانت امّ سلمة محسنة فى شأنى، معنية فى أمرى.

فقال رسول اللَّهصلى الله عليه و آله: «يا أمّ سلمة تيبَ على كعب».

قالت: أفلا أرسل اليه فأبشره؟

قال: «إذاً يحطمكم الناس (يدوسونكم ويزدحمون عليكم) فيمنعونكم النوم سائر الليلة، حتى إذاصلى رسول اللَّهصلى الله عليه و آلهصلاة الفجر، آذن بتوبة اللَّه علينا .. (۱)الرشيدة الشفيعة الحازمة

ذكرت مصادر التأريخ دورها الرشيد فى السنة السادسة للهجرة، وقدصحبت الرسولصلى الله عليه و آله وهو يريد مكة للعمرة فصدته قريش ومنعته والمسلمين من دخول مكّة. وبعد أن تمّت كتابة شروطصلح الحديبية.. واضطربت الامور بين المسلمين، وكان الأمر ينذر بخطر جسيم بينهم..

تقول الرواية:... أمر النبىّ أصحابه أن يقوموا فينحروا ثمّ يحلقوا.. فما قام منهم رجل، فقال ذلك ثلاث مرات، ومامنهم من يستجيب. فدخل على زوجه امّ سلمة التى كانت معه يومذاك، فاضطجع، فقالت: مالكَ يارسول اللَّه؟

۱- ۱ انظر المغازى فى حديث كعب بن مالك. ومسند أحمد وغيرها ...

ص: ۱۴۸

فذكر لها مالقى من الناس، وأنه أمرهم بالحلق والنحر مراراً فلم يجيبوه، وهم يسمعون كلامه، وينظرون إلى وجهه الشريف.

قالت امُّ سلمة: التمس لهم العذر يارسول اللَّه. إنّهم يرون الكعبة ويرون ديارهم، ثمّ يُحرَمون من دخول مكّة..

ثمّ قالت: يانبيّ اللَّه أتحبّ ذلك؟

اخرج ثمّ لا تكلم أحداً منهم كلمةً واحدةً حتى تنحر بدنتك، وتدعو حالقك فيحلقك.. فإنّ ذلك سيقطع أملهم..

فقام فخرج فلم يكلّم أحداً حتى فعل ذلك، ونحر بدنته، ودعا حالقه..

فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً (۱).

كما كانت شفيعة للمؤمنين وهذا جزء من مسؤوليتها كأمّ لهم، فقد شفعت لأخيها عند رسول اللَّهصلى الله عليه و آله، حيث قالت للنبيصلى الله عليه و آله وهى تغسل رأسه: كيف ينفعنى عيش وأنت عاتب على أخى؟

فرأت من النبيصلى الله عليه و آله رقّة، فأومأت إلى خادمها، فدعت أخاها، فلم يزل بالنبيصلى الله عليه و آله يذكر عذره حتى رضى اللَّه عنه ... (۲) وشفعت لأبى سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وعبداللَّه بن أمية بن المغيرة وقد كانا من الذين يؤذونهصلى الله عليه و آله.

وقد كلمته أم سلمة فيهما ورجت أن يصفح عن زلتهما فيما مضى، فقالت:

يارسول اللَّه لا يكن ابن عمك، وابن عمتك وصهرك أشقى الناس بك. قالصلى الله عليه و آله: لا حاجة لى بهما. أما ابن عمى فهتك عرضى، وأما ابن عمتى فهو الذى قال لى بمكة ما قال.

قال أبو سفيان بن الحارث- لما سمع بذلك-: واللَّه لتأذن لى، أو لآخذنّ بيد بُنيّ هذا، ثمّ لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً.

فلما سمع الرسولصلى الله عليه و آله بذلك رقّ لهما، فدخلا وأسلما. وسرت بذلك أم سلمة.

۱- ۱ الطبرى ۲: ۷۸۶.

۲- ۲ الكامل فى التاريخ ۲: ۳۷۸

ص: ۱۴۹

أما حزمها وقوة شخصيتها، فقد ظهرت بوضوح فی مواقفها الحكيمة القوية من عائشة وحفصة وفی موقفها من قريبها عمر بن الخطاب، تقول بنت الشاطئ:

وبدا واضحاً أنّ أم سلمة تعرف لنفسها قدرها، وتأبى على عائشة أو سواها المساس بكرامتها، وقد أعزّها مجدٌ عتيق موروث وآخر حديث مكتسب. وكذلك أبت على «عمر» أن يتكلم فی مراجعة امهات المؤمنين لزوجهن الرسولصلی الله علیه و آله، وقالت له منكرةً: عجباً ياابن الخطاب، قد دخلت فی كل شیء حتى تبتغی أن تدخل بين رسول اللَّه وأزواجه.

قال عمر: فأخذتنی أخذاً كسرتنی به عن بعض ما كنتُ أجد. (۱) الفتنة:

«استحی أن ألقی محمداًصلی الله علیه و آله هاتكةً حجاباً قد ضربه علیّ».

هذا جزء من كلمة طويلة قالتها لعائشة حينما همّت هذه الأخيرة تقارع الإمام عليّاً علیه السلام وتقف بجانب طلحة والزبير تحرض الناس ضد الإمام من على ناقتها، فكان دورها خطيراً جدّاً فيما وقع من فتنة بين المؤمنين، وفيما وقع من بغی على الإمام علیه السلام فی معركة الجمل فی البصرة.

قالت لعائشة كلمات تتصف بالقوة والشدة: أیّ خروج هذا الذی تخرجين؟!

نصّ كلمتها لعائشة حينما جاءتها هذه الأخيرة؛ لتخادعها على الخروج للطلب بدم عثمان، وقد قالت عائشة لها: يابنت أبی أمية، أنتِ أوّل مهاجرة من أزواج رسول اللَّهصلی الله علیه و آله وأنت كبيرة امهات المؤمنين، وكان رسول اللَّهصلی الله علیه و آله يقسم لنا من بيتِک، أو كان يشير إلى بيتک عندما يؤتى بالهدايا، ومن بيتک يبعث إلينا بسهامک (بسهامنا)، وكان جبرئيل أكثر مايكون فی منزلك..

فقالت امُّ سلمة: لَأمَر ماقلت هذه المقالة!

ثمّ لما سمعت برغبتها أو مسيرها مع كلّ من طلحة والزبير؛ لشنّ حربهم ضدّ الإمام علیّ كتبت تقول: فإنی أحمد إليك اللَّه الذی لا إله إلّاهو.

۱- ۱ انظر نساء النبی: ۱۴۴ الدكتورة بنت الشاطئ.

ص: ۱۵۰

أمّا بعد فقد هتکت سُدةً بین رسول اللَّهصلی الله علیه و آله وامّته، وحجاباً مضروباً علیّ حرمته، قد جمع القرآن ذیولک فلا تسحبیها، وسکّر خفارتک فلا تبتذلیها، واللَّه من وراء هذه الامّهٔ. لو علم رسول اللَّهصلی الله علیه و آله أنّ النساء یحتملن الجهاد عهد إلیک، أَما علمت أنّه قد نهاک عن الفراطهٔ فی الدین؟ فإنّ عمود الدین لا- یثبت بالنساء إن مال، ولا- یرأب بهنّ إنصدع. جهاد النساء غضّ الأطراف وضمّ الذیول وقصر الموادهٔ. ماکنت قائلهٔ لرسول اللَّهصلی الله علیه و آله لو عارضک ببعض هذه الفلوات ناصبهٔ قلوصک قعوداً من منهل إلی منهل؟ وغداً تردین علی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله. وأقسم لو قیل لی: یاامّ سلمهٔ أدخلی الجنهٔ؛ لاستحییت أن ألقی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله هاتکهً حجاباً ضربه علیّ، فاجعلیه سترک، وقاعهٔ البیت حصنک فإنّک أنصح لهذه الامّهٔ ماقعدتِ عن نصرتهم، ولو أنّی حدثتک بحدیث سمعته من رسول اللَّهصلی الله علیه و آله لنهشتِ نهشَ الرقشاء المطرقهٔ، والسلام (۱). وهناک روایهٔ لکلمتها هذه تختلف عنها قلیلًا.

ثمّ راحت امّ سلمهٔ تعلن تأییدها للإمام علیصلی الله علیه و آله. تقول عنها بنت الشاطئ:

ثمّ حاولت من بعدهصلی الله علیه و آله أن تتجنب الخوض فی الحیاهٔ العامهٔ.. إلی أن کانت الفتنهٔ الکبری، فاندفعت تؤازر الإمام علیّاً، ابن عمّ الرسول، وزوج ابنته الزهراء، وأبا الحسن والحسین.

وودّت لو تخرج فتنصره، لکنّها کرهت أن تبتلی وهی امُّ المؤمنین بمثل ذاک الخروج، فجاءت «علیّاً» کرمّ اللَّه وجهه، وقدمت إلیه ابنها «عمر» قائلهٔ:

یاأمیر المؤمنین، لولا- أن أعصی اللَّه عزّ وجلّ، وأنّک لا- تقبله منّی؛ لخرجتُ معک. وهذا ابنی عمر، واللَّه لهو أعزّ علیّ من نفسی، یخرجُ معک فیشهد مشاهدک.

وفعلًا شهد عمر مشاهد الإمام علیه السلام ومنها معرکهٔ الجمل. واستعمله علی فارس وعلی البحرین.

وممّا یدلُّ علی حبّها لآل الرسولصلی الله علیه و آله وخاصهٔ للإمام علی علیه السلام ودفاعها عنه علیه السلام ماکتبته إلی معاویهٔ مستنکرهٔ ماکتبه إلی عمّاله أن یلعنوا علیّاً علی المنابر،

۱- ۱ العقد الفرید، ابن عبد ربّه ۳: ۹۶.

ص: ۱۵۱

ففعلوا، فكـان مـاكتبته رضوان اللّه عليهـا: إنّكم تلعنون اللّه ورسوله على منـابركم، وذلك أنّكم تلعنون عليّ بن أبى طالب، ومَن أحبّه، وأنا أشهد اللّه أنّ اللّه أحبّه، ورسوله.. لكن معاوية لم يلتفت إلى كلامها (۱).

وكيف لا يكون حبّها لآل البيت عظيماً ثابتاً وقد رافقت رسول اللّهصلى الله عليه و آله فى حياته ومسؤولياته ووعت كلّ ماسمعته عنهم، خاصة وهو يلقى آخر خطبة له فى حجّة الوداع ... من كنتُ مولاه فهذا على مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصـر من نصره واخذل من خذله..

استـوقفتها هـذه الكلمـات كـثيراً، وراحـت تتأمـل مـا تحملـه كلماتهصـلى الله عليـه و آله هـذه وغيرهـا بـوعى وأنـاة حـتى دخلت قلبها ومشاعرها، فثبت ولاؤها لأهل البيت.

وانطلقت تقول كلمـة الحقّ وتكشف الظُلم وتشـجب كلّ فرقة، وتقيم دعائم الوحدة بين المسـلمين على أساس حبّها للّهتعالى ولمحمد وآلهصلى الله عليه و آله.

علمها وروايتها:

كانت جليلة القدر، جزيلة الرأى، ملتزمة، تقية، عارفة بالقرآن الكريم وأحكامه، راويةً للسنّة الشريفة، شارحة لأحكامها، مبينة لها، طالما اجتمع حولها النساء يسـتمعن لها ويتعلمن منها وينقلن عنها، ويسترشدن بآرائها ويتحاكمن إليها كما تفعل بعض نساء النبيصلى الله عليه و آله وقـد انتفع الرجـال بعلمها وروايتها ونصائحها وآرائها حتى عـدّت مصـدراً من مصادر التفسـير والفقه والروايـة والتأريـخ والسـيرة النبوية..

وقد بلغ عدد ماروته من الأحاديث ثلاثمائة وثمانية وسبعين حديثاً.

يقول أحمد خليل جمعة عنها: وامُّ سـلمة رضى اللّه عنها قد وعت الحديث الشريف، وتفقهّت بامور الدين والشريعة الغراء، حتى كانت تعـدّ من فقهـاء الصـحابيات، وممّن يُرجع اليهـا فى بعض الامـور والأحكـام والفتاوى، وخصوصاً فيما يخصّ فقه المرأة المسـلمة، وفيما يتعلّق ببعض أحكام الرضاع، أو الطلاق، أو

۱- ۱ العقد الفريد، ابن عبد ربّه ۳: ۱۲۷.

ص: ۱۵۲

ماشابه ذلک. وقد ورد أنّ سیدنا عبد اللّه بن عباس کان یُرسل، فیسألها عن بعض الأحکام.

کما کانت تعّد من جملة مَن یُرجع إلیهم بالفتیا من الصحابة، وقد روی عنها کلٌّ من عبد اللّه بن عباس، وأبو سعید الخدری وابنها عمر بن أبی سلمة، ومن النساء عائشة، وابنتها زینب بنت أبی سلمة. ومن التابعین؛ سعید بن المسیب والشعبی، ومجاهد، وعطاء بن أبی رباح، وسلیمان بن یسار، وعروة بن الزبیر، وآخرون. ومن النساء طیرة امّ الحسن البصری، وهند بنت الحارث الفراسیة، وصفیة بنت شیبة، وصفیة بنت محسن وغیرهنّ (۱).

ومن روایاتها:

استأذن أبو ثابت مولی علی علیه السلام علی ام سلمة، فقالت: مرحباً بکَ یاأبا ثابت، ثمّ قالت: یاأبا ثابت أین طار قلبک حین طارت القلوب مطیرها؟ قال: تبع علیاً، فقالت: وفقت، والذی نفسی بیده لقد سمعتُ رسول اللَّهصلی الله علیه و آله یقول: علیٌّ مع الحقّ والقرآن، والحقّ والقرآن مع علیٍّ، ولن یفترقا حتی یردا علیّ الحوض.

قالت امُّ سلمة: أغدف (۲) رسول اللَّهصلی الله علیه و آله علی علیّ وفاطمة والحسن والحسین خمیصة سوداء، ثمّ قال: «اللهُمّ إلیک لا إلی النار، أنا وأهل بیتی». قالت:

قلتُ: وأنا یارسول اللَّه. قال: «وأنتِ».

وقریب من ذلک ماروته ابنتها زینب مع اختلاف یسیر حیث قالت: إنّ رسول اللَّهصلی الله علیه و آله کان عند امّ سلمة، فجعل حسناً فی شقٍّ، وحسیناً فی شقٍّ، وفاطمة فی حجره وقال: رحمة اللَّه وبرکاته علیکم أهل البیت إنه حمید مجید (۳)

. وأنا وامُّ سلمة جالستان، فبکت امُّ سلمة، فقال: «مایبکیک؟» قالت: یارسول اللَّه خصصتهم وترکتنی وابنتی. فقال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله: «إنّک [وابنتک] من أهل البیت» (۴).

ومما روته، قالت: قال لنا رسول اللَّهصلی الله علیه و آله: إذا حضرتم المریض أو المیت

۱- ۱ نساء أهل البیت: ۲۴۶- ۲۶۵ وانظر الهوامش.

۲- ۲ أغدف: بغین فدال ففاء: ارسل وغطی، ومنه غداف المرأة، وهو ماتستر به وجهها: ۱۵۴ من کتاب ازواج النبیّللإمام محمد بن یوسف الدمشقی.

۳- ۳ سورة هود: ۷۳.

۴- ۴ ذکرهصاحب کتاب أزواج النبی عن الطبرانی فی الکبیر ۲۴: ۲۸۱- ۲۸۲ وغیره..

ص: ۱۵۳

فقولوا: خيراً، فإنّ الملائكة تؤمن على ماتقولون. فلما مات أبو سلمة أتيتُ النبيّصلى الله عليه و آله فأخبرته، فقال: قولى: اللهُمّ اغفر لى وله، وأعقبنى منه عقباً حسناً، فقلتُ ذلك. فأعقبنى اللَّه منه مَنْ هو خيرٌ منه رسول اللَّه.

وعنها قالت: كان النبيّصلى الله عليه و آله إذا خرجَ فى سفر يقول: «اللهُمّ إنى أعوذُ بكَ أن أزِل أو أزل» (۱).

عن زينب بنت أبى سلمة، عن أمّها امّ سلمة رضى اللَّه عنها: قالت سمعتُ رسول اللَّهصلى الله عليه و آله يقول: «إنما أنا بشر، وأنتم تختصمون إليّ، ولعلّ أحدكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض، فأقضى نحو ماأسمع منه، فمن قضيتُ لهُ بشيء من حقّ أخيه منه شيئاً، فإنما أقطعُ لهُ قطعةً من النار» (۲).

ولما قدم ابن أبى جهل المدينة، فجعل يمرّ فى الطريق، فيقول الناس: هذا ابن أبى جهل. فذكر ذلك لأمّ سلمة، فما كان منها إلّا أن ذهبت إلى رسول اللَّهصلى الله عليه و آله فذكرت له ماسمعت: فخطبصلى الله عليه و آله الناس وقال: «لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات» (۳).

ولما سئلت: ماأكثر دعاء رسول اللَّهصلى الله عليه و آله إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: «يامقلب القلوب ثبّت قلبى على دينك».

قالت: فقلتُ لهُ: يارسول اللَّه: ماأكثر دعاءك «يامقلب القلوب ثبّت قلبى على دينك»؟!

قال: «ياامّ سلمة، إنّه ليس من آدمى إلّاوقلبه بين اصبعين من أصابع اللَّه، ماشاء اللَّه أقام وماشاء أزاغ» (۴).

ومما روته بحقِّ أخيها من الرضاعة عمار بن ياسر، الذى طالما رعته وغضبت لهُ حينما فعل به عثمان فعلته القذرة، شتمه وأمر به فأخرج من مجلسه...، وقد أثقلوه باللبن حينما شارك فى بناء مسجد رسول اللَّهصلى الله عليه و آله فى المدينة، فقال: يا رسول اللَّه قتلونى يحملون عليّ مالا يحملون.

۱- ۱ ربيع الأبرار ۴: ۱۹۶.

۲- ۲ البخارى، ومسلم فى الأقضية والنسائى فى القضاء والشافعى فى الأم..

۳- ۳ ربيع الأبرار ۲: ۸۴۱.

۴- ۴ العقد الفريد ۳: ۲۲.

ص: ۱۵۴

وهنا قالت امُّ سلمة: فرأيتُ رسول اللّهصلى الله عليه و آله ينفض وفرته بيده، وكان رجلًا جعداً وهو يقول: «ويح ابن سميّة ليسوا بالذى يقتلونك، إنما تقتلك الفئة الباغية» وارتجز علىّ بن أبى طالب عليه السلام:

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعداً ومن يرى عن الغبار حائداً

فأخذها عمّار بن ياسر فجعل يرتجز بها (۱).

وفاتُها:

أبت امُّ سلمة- وقد عرفت جيداً قدر نفسها- أن تموت دون أن تترك خلفها دروساً ينتفع بها الآخرون، فحياتها بكلّ مفاصلها كانت مفعمة مليئة بالأحداث سواء قبل اسلامها وهى تعيش فى بيت عرف- كما قلنا- بالكرم والشرف والإباء، أم فى حياتها الاولى مع أبى سلمة زوجةًصالحةً، أم فى إسلامها وهجرتها وتصويرها لهجرتها حتى كانت روايتها أوثق وأدقّ روايات الهجرة، أم فى هجرتها الثانية إلى المدينة وأحداثها وما رافقها من آلام..

أم فى زواجها المبارك الذى اختارته السماء، وهى تعيش أطهر بيت مع أعظم إنسان عرفته الدنيا، لم تكن حياتها معهُ إلّاطاعة وإيماناً وتصديقاً وخدمة وجهاداً، حتى لم يعثر على خطإ لها على كثرة ماترتكبه النساء من أخطاء وما تصنعه من متاعب..

ورغم ماعانته من غيرة وحسد امّ المؤمنين عائشة وكذلك أمّ المؤمنين حفصة وماخلقتا لها من متاعب وصعاب. كانت تقابل كلّ ذلك بحكمة وهدوء حتى تبعد هذا البيت عن كلّ ما يتعبصاحبهصلى الله عليه و آله ويعكّر عليه حياته، أو يشغله عن مهامه العظيمة ...

وبقيت محافظة على سيرتها وإن طال عمرها حتى تجاوز الثمانين عاماً،

۱- ۱ السيرة النبوية لابن هشام ۲: ۱۱۴.

ص: ۱۵۵

فكانت آخر من توفى من زوجاتهصلى الله عليه و آله ويبدو أنه قدر لهذه المرأة الصالحة المخلصة لزوجها ولأهل بيته أن تشارك رسول اللّهصلى الله عليه و آله عزاءه وحزنه، فقد بلغها استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، فوجمت لذلك، وغشى عليها، وحزنت حزناً شديداً، ولم تلبث بعد ذلكَ إلّايسيراً، ثمّ انتقلت إلى رحمة اللّه (۱).

وأمّا بنت الشاطئ فتقول: وتقدم العمر بأمّ سلمة حتى امتحنت، كما امتحن الإسلام وامته، بمذبحة «كربلاء» ومصارع الإمام الحسين وآل البيتصلوات اللّه عليهم، على الساحة المشئومة.

توفيت رضى اللّه عنها بعدما جاءها نعى الحسين بن على عليه السلام (۲).

ويكفيها فخراً أنّ رسول اللّه توفى وهو راض عنها وعن أولادها الذين تكفلهم برعايته وتربيته..

وبقيت هذه المرأة ورضا رسول اللّهصلى الله عليه و آله يلاحقها ويواكبها حتى غدت وبيتها «مركز الإشعاع العلمى والفقهى للصحابة والتابعين والعلماء من شتى الأمصار» (۳).

توفيت سنة إحدى وستين وقيل سنة اثنتين وستين فى عهد يزيد بن معاوية، وشيعها المسلمون تشييعاً عظيماً حتى مرقدها الأخير فى مقبرة البقيع فى المدينة المنورة.

الهوامش:

۱- ۱ الرسول فى بيته: الدكتور أحمد شلبى: ۷۸.

۲- ۲ نساء النبيصلى الله عليه و آله: الدكتورة بنت الشاطئ: ۱۵۰- ۱۵۱.

۳- ۳ نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة: ۲۶۹.

ص: ۱۵۶

ص: ۱۵۷

ص: ۱۵۸

الحجّ عبر الحضارات والأمم (۲)

الحج عبر الديانات والامم (۲)

الحج عبر الديانات والامم (۲)

ماجدة المؤمن

الحجّ فی الديانة اليهوديّة:

مارس اليهود الحج بأشكال مختلفة، واتجهوا إلى أماكن متعددة، واتخذت كل فرقة من فرقهم وجهة معينة، تحجُّ اليها فی أعيادها الخاصة، وعلى وفق مذهبها وتعاليمه وعقيدتها، وما تفرض عليها من الأوامر والنواهی...

وفكرة الحج، ليست طارئة على اليهود، فقد كانت منتشرة آنذاك، فمن كان على دين ابراهيم عليه السلام، كان يعرف الحج ويمارسه فی بيت اللّه الحرام، ومن كان من الأقوام السامية، فانه يحج إلى المعابد والهياكل وقبور الموتى، وغير ذلك مما وجدناه فی الحضارات والأمم.

فاليهود كغيرهم، حجوا ومارسوا طقوساً خاصة بالحج، وسفر الخروج فی التوراة حدّد لهم أعياداً دينية سنوية يزورون فيها مقدساتهم بملابس خاصة أو جديدة، وينحرون ويطوفون ويقرأون الأدعية والتعويذات الخاصة وغير ذلك، وحجهم خليط من حج وضعی وحج سماوی، فهوصورة جديدة بين حج

ص: ۱۵۹

وثنى باطار توحيدى.

والظاهر أن حج اليهود كان فرضاً واجباً أوجبته التوراة عليهم، هذاما يؤكده النص التالى:

«والحج إلى معبد من المعابد عادة سامية قديمة جعلت حتى فى الأجزاء القديمة من أسفار موسى الخمسة فرضاً يجب أداؤه، فقد ورد فى سفر الخروج، فى الاصحاح الثالث والعشرين، الآية الرابعة عشرة:

«ثلاث مرات يعيّد لى فى السنة» وفى الآية الثالثة والثلاثين من الاصحاح الرابع والثلاثين «ثلاث مرات فى السنة يظهر جميع ذكورك أمام السيد الرب إله إسرائيل» وربما كان فى بلاد العرب أيضاً أماكن كثيرة للحج حيث كانت تقام شعائر شبيهة بالحج إلى عرفات» (۱).

وفى كل عيد من هذه الأعياد الثلاثة اتخذت الفرق اليهودية حجاً الى أماكن معينة، ففى يوم الاستغفار (عيد المظال) كانوا يحجون إلى جبل سيناء، وفى عيد الفصح إلى بيت المقدس، وفى عيد استير وعيد المطر و... و... الخ يتجهون إلى أماكن أخرى، كما سنرى من خلال البحث ان شاء اللَّه...

مع هذا، وعند استقرائنا للتوراة، لم نجد ذكر مكان معينٍ خاصٍ للحج على لسان نبيهم موسى عليه السلام كوعدٍ الهى لهم، ونتساءل هنا: هل اللَّه تعالى لم يشرع لهم فريضة الحج إلى مكان معين، أم رواة وكتبة النصوص الدينية التوراتية تجاوزوا ذكرها، أم تعمدوا تحريفها لعنصريتهم المعروفة؟

ولهذا تعددت اماكن الحج، وكثرت اليها الرحلات اليهودية فى الأعياد السنوية، ويكاد كل موضع يبدأ اسمه بكلمة «بيت» يكون مكان حج وزيارة سابقاً أو لاحقاً، فمثلًا «بيت المقدس» و «بيت إيل» و «بيت آوِن» كان بالقرب من بيت إيل و «بيت إصِلْ» فى يهوذا و «بيت حور» بالقرب من القدس و «بيت هاجَنَّ» فى المكان الذى ولد فيه عيسى عليه السلام فى بيت لحم و «بيت هاشطة» وبيوت أخرى

۱- ۱ دائرة المعارف الإسلامية ۷: ۳۰۵.

ص: ۱۶۰

وأخرى كثيرة يطول الكلام فى عدّها وذكرها، يمكن الرجوع إلى الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) حيث أحصاها وعدّها عدّاً... وفى تحديد أوقات الحج، يقول د. حسن ظاظا: أما الأوقات التى يحجون فيها فهى موازية لأعيادهم وهى ثلاثة أوقات:

۱- عيد الفصح: ويقع فى فصل الربيع، ومدته ۷ أيام تبدأ يوم ۱۵ نيسان فى التقويم اليهودى.

۲- عيد الحصاد أو الأسابيع (شبو عوت)، ومدته يوم واحد، ۶ من شهر سيوان اليهودى، ويقع فى أوائل الصيف (يونية).

۳- عيد الظُّلل: (سوكوت) ومدته ثمانية أيام، ويأتى فى الخريف، ويبدأ يوم ۱۵ تشرى اليهودى، ويسمون هذه المواسم «الثلاثة الاعتيادية» يستحب فيها الحج؛ لاقترانها بالكثير من الصدقات (۱).

وجهة النبىّ موسى عليه السلام فى الحج

ومن الضرورى والمناسب أن نعرف وجهة كليم اللَّه النبى موسى عليه السلام فى الحج، قبل أن نقف على ما حرّف اليهود من شريعة موسى عليه السلام نبيهم الذى ينسبون أنفسهم إليه، ويدّعون أنهم من أتباعه ومحبيه والسائرين على خطه وتعاليمه...

عند تتبعنا للأخبار والروايات والأحاديث الواردة من السُنة الشريفة لا نجد الكليم موسى عليه السلام توجه بوجهة معاكسة أو مخالفة لما توجه إليها أنبياء اللَّه والمرسلون فهو عليه السلام حج وطاف ولبى فى بيت اللَّه العتيق مقتدياً بسنة آبائه وأجداده من الأنبياء، ومجيباً لأوامر السماء، هذا ما تؤكده الروايات فى حجه عليه السلام، نختار منها:

روى عن ابن عباس أنه قال: «كنّا مع رسول اللّهصلى الله عليه و آله بين مكة والمدينة، فمررنا بوادٍ، فقال:

أى واد هذا؟ قالوا: وادى الأزرق، قال: كأنى أنظر موسيصلى اللَّه عليه وسلم (فذكر من طول شعره شيئاً لا يحفظه داود- أحد رواة

۱- ۱ طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ۲۱۰: ۱۰.

ص: ١٦١

الحديث-) واضعاً أصبعيه فى أذنيه، له جؤار إلى اللّه بالتلبية ماراً بهذا الوادى، قال: ثم سرنا حتى كذا وكذا... الخ» (١) أى ذكر حجه إلى مكة المكرمة والكعبة الشريفة.

وروى عن أبى جعفر الباقر عليه السلام:

مرّ موسى بن عمران عليه السلام فى سبعين نبياً على فجاج الروحاء... يقول: لبيك عبدك ابن عبديك» (٢).

وعن أبى جعفر الباقر عليه السلام أيضاً أنّه قال: «أحرم موسى من رملة مصر، قال: ومرّ بصفائح الروحاء محرماً، يقود ناقة بخطام من ليف، عليه عباءتان قطونيتان، يُلبى وتجيبهُ الجبال» (٣).

وروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مرّ موسى النبى (صلوات اللّه عليه) بصفائح الروحاء على جمل أحمر، خطامه من ليف عليه عباءتان قطونيتان وهو يقول: لبّيك يا كريم لبيك» (۴).

وجاء فى أخبار مكة: «حج موسى النبى على جبل أحمر فمرَّ بالروحاء عليه عباءتان قطونيتان متزر بأحدهما مرتدى بالأخرى فطاف بالبيت، ثم طاف بين الصفا والمروة فبينا هو بين الصفا والمروة إذ سمعصوتاً من السماء وهو يقول: لبيك عبدى أنا معك، فخر موسى ساجداً» (۵).

والنبى موسى عليه السلام من كبار الأنبياء والرسل، وفى مصطلحاتنا الإسلامية يُعدُّ من أُولى العزم، وعليه فلا يمكن أن ينحرف فى حجه إلى الوجهة غير الصحيحة وغير المرضية عند اللّه تعالى، وإذا وجدنا هناك انحرافاً فى اليهودية فهو فى قومه الذين خالفوه، ولم يلتزموا بتعاليمه وأوامره مما أخذهم اللّه تعالى بانحرافهم وذنوبهم، فكانوا قوماً مهانين ومغضوباً عليهم إلى يوم يبعثون، قال تعالى فيهم: وضُربت عليهم الذلةُ والمسكنة وباءوا بغضبٍ من اللّه ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات اللّه ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما

١- ١ سنن ابن ماجة ٢: ٩۶۵، محمد بن يزيد القزوينى، الحلبى وشركاه.

٢- ٢ وسائل الشيعة ١٢: ٣٨۵ ح ١۶۵٧۴.

٣- ٣ وسائل الشيعة ٩: ۵۴.

۴- ۴ بحار الأنوار ٩٩: ١٨۵، الطبعة البيروتية.

۵- ۵ أخبار مكة، الأزرقى:ص ۶٨- ۶٩.

ص: ١٦٢

عَصَوا وكانوا يعتدون (١).

انحراف اليهود فى حجهم

لم يتبع اليهود سُنة كليم اللَّه موسى عليه السلام، نبيهم الذى توجه فى حجه الى بيت اللَّه العتيق كما مرّ علينا سابقاً، بل حرّفوا أغلب تعاليم دينه ومن ضمنها الحج، ومن الملاحظ أن:

«الحج عند اليهود فى الوقت الحاضر ليس بفريضة عندهم ولا بركن من أركان العبادة كما هو فى الإسلام، فهو على أكثر تقدير يشبه (العُمرة) عند المسلمين» (٢).

وانقسم (٣) اليهود بعد الكليم عليه السلام الى عدة فرق، وكلُّ فرقة اتخذت لها وجهة ومكاناً تحج إليه بوضع تعاليم وطقوس وشعائر خاصة بها.

ولنعرض قسماً منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- توجه قسم منهم إلى بيت المقدس وهيكل سليمان عليه السلام.

٢- والقسم الآخر إلى جبل النبى موسى عليه السلام فى طور سيناء.

٣- وآخرون إلى بئر الحى الرائى بالقرب من مدينة الخليل.

٤- ومنهم من توجه إلى (بقاع مباركة)- حسب تعبيرهم- أهمها الجبال الشامخة والتلال والآبار وعيون الماء وأماكن طبيعية أخرى.

وسنحاول ان شاء اللَّه تعالى تفصيل هذه النقاط قدر استطاعتنا، وبيان الأساليب المتبعة فى حجهم وتاريخه والمواقع الجغرافية لكلّ منها.

الحج إلى بيت المقدس

يُعدُّ بيت المقدس أو القدس من أهم الأماكن المقدّسة لدى اليهود- إضافة إلى أهميته عند المسيحيين والمسلمين- لذلك تميّز حجهم لهذا البيت بقدسية ومعنى خاصين.

عظّم اليهود بيت المقدس وخاصة فرقة (يهوذا) المنحدرة من داود وسليمان عليهما السلام، خصوصاً بعد بناء النبى سليمان عليه السلام للهيكل المعروف فى القدس الشريفة ب (هيكل سليمان).

«وقدسية بيت المقدس عند اليهود تاريخها مقارناً لبناء سليمان

١- ١ البقرة: ٦١.

٢- ٢ طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ٢١٠: ١٠.

٣- ٣ انقسم اليهود بعد موسى عليه السلام إلى عدة فرق ودويلات من الناحية السياسية ومن الناحية القبلية ومن الناحيةالدينية، والذى يهمنا هنا انقسامهم من الناحية الدينية، فقد انقسموا إلى خمس فرق دينية، وهى: فرقة الفريسيين وفرقة الصدوقيين، وفرقة السامريين، وفرقة الحدسيين، وفرقة القرائين.

ص: ۱۶۳

الهيكل، والهيكل المعبـد المركزى لليهود الـذيصار حرماً للحج وقبلـة للصـلاة منـذ عهـد داود وسـليمان عليهما السـلام، وهـذا المعبد الضـخم تعرض عبر تاريخه ولحـد الآن إلى أحـداث جِسام لم يبق منه إلّاجزء من جدار، يعرف عند اليهود باسم (الجدار الغربى) وعند سائر الأُمم باسم «حائط المبكى» وهو جدار من سور يرجع إلى عهد هيرودس المعاصر لمولد المسيح عليه السلام» (۱).

والقدس: مدينة تقع وسط فلسطين فوق تلصخرى من تلال اليهودية على ارتفاع (۷۶۲ م) على بُعد حوالى ۵ كم من يافا، وهى المدينة الجديدة... أما المدينة القديمة فتقع بآثارها الدينية بالمملكة الأردنية الهاشمية.

وبيت المقـدس: هو البيت الـذى فيه مقدسات الأديان الثلاثة (اليهودية- والمسـيحية- والإسـلام) وتضم المدينة القديمة معظم الأماكن المقدسـة. كـان اليهود يعتقـدون أن جانبـاً من أحـد جـدران المسـجد الأقصـى بنى بأحجـار أخـذت من هيكـل سـليمان، وهو الجـدار المعروف بحائط المبكى... وقد تكون هى شـليم، المذكورة فى سـفر التكوين، وجعلها داود عاصـمته بعد انتزاعها من اليبوسيين، وأقام سليمان هيكله العظيم بها، فزاد من بهائها وعظمتها، واتخـذها ملوك يهوذا عاصـمة مملكتهم. التى ظهر فيها كثير من عظماء الأنبياء من بنى اسرائيل الذين نادوا برسالتهم فى شوارعها.

ويُقال: «ما فيها موضع شبر إلّا وقدصلّى فيه نبى» (۲).

«حارب اليهود العرب لانتزاعها من ايديهم، واضطر اليهود إلى أن ينزلوا للعرب عن المدينة القديمة، ولكن المدينة الجديدة لا تزال فى قبضتهم» (۳).

المهم، أنّهم- فرقة يهوذا- اتخذت من بيت المقدس وهيكل سليمان محجةً سنويةً لها فى العيد السنوى الدينى المسمى ب (عيد

۱- ۱ طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ۲۱۰: ۹.

۲- ۲ معجم البلدان ۱: ۱۱۲.

۳- ۳ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ۴۵۴.

ص: ۱۶۴

الفصح) (۱).

وأهم المراسم المتبعة فيه هى «الضحية» أى القربان أو «الهدى» فى المصطلح الإسلامى، يقدم إلى الرب أو الإله، وهذا القربان تؤكده وصايا تلمودهم (۲)، التى تختلف اختلافاً كبيراً مع الوصايا المنصوص عليها فى التوراة فى مسألة «الضحية»، فالتوراة أوصاهم بتقديم «ثور» (۳) قرباناً للرب فى عيد الفصح. أما تعاليم التلمود فكانت توصيهم أن تكون الضحية من البشر:

و «تختار الضحايا أو الذبائح فى عيد الفصح من الأطفال، الذين لا تتجاوز سنهم العاشرة أو تزيد عنها قليلًا. ويمزج دم الضحية بعجين الفطائر قبل تجفيفه أو بعده...

ويستنز اليهود دم الضحية بطرائق كثيرة: فأحياناً يتم ذلك عن طريق «البرميل الابرى» وهو برميل مثبت على جوانبه من الداخل إبر حادة توضع فيه الضحية حيّةً فتنغرز هذه الإبر فى جسمها، وتسيل الدماء ببطء من مختلف الأعضاء، وتظل كذلك فى عذابٍ أليم حتى تفيض روحها، بينما يكون اليهود الملتفون حول هذا البرميل فى أكبر نشوة بما يبعثه هذا المنظر فى نفوسهم من لذة وسرور.

وينحدر الدم إلى قاع البرميل ثم يصب فى إناء مُعد لجمعه» (۴).

و «أحياناً تقطع شرايين الضحية فى عدة مواضع ليتدفق الدم من جروحها. وأحياناً تذبح الضحية كما تذبح الشاة ويؤخذ دمها، وبعد أن يتجمع الدم بطريقة من الطرق السابقة أو غيرها تسلم إلى الحاخام أو الكاهن أو الساحر، الذى يقوم باستخدامها فى إعداد الفطائر المقدسة أو فى عمليات السحر» (۵).

أما الزمان أو الوقت الذى يحجون فيه إلى بيت المقدس، ليقيموا شعائرهم فى عيدهم الدينى هذا، فهو اليوم الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم الدينية وهو شهر نيسان، ويحتفلون فيه بنجاة موسى عليه السلام وبنى إسرائيل من فرعون وقومه

۱- ۱ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ۴۵۴.

۲- ۲ التلمود: تعاليم دينية وضعها علماء اليهود، وهى كالرسائل العملية عندنا، مع فارق لا قياس فيه.

۳- ۳ العهد القديم، سفر الخروج، الاصحاح ۲۹: «خذ ثوراً واحداً ابن البقر وكبشينصحيحين و... الخ» راجع.

۴- ۴ اليهود واليهودية، د. على عبدالواحد وافى: ۴۴- ۴۵، وكتاب حقائق وأباطيل، فوزى محمد حميد: ۱۴۱- ۲۰۰.

۵- ۵ المصدر نفسه، ومن المعلوم عندهم أن يكون دم الضحية من غير اليهود، وإذا كان دم مسيحى فيكون أفضل عندهم.

ص: ۱۶۵

وخروجهم من مصر (۱).

والفصح فی اللغة (فصح أی الفسح أو الخروج أو المرور).

وقد ورد أن هذا العید «عید الیهود، ۱۵ نیسان (الشهر السابع فی التقویم العبری) ویسمی أیضاً عید الفطیر، وفیه خروج بنی إسرائیل من مصر هرباً من فرعون» (۲).

وعن قضیة التضحیة بالأطفال یقول وِل دیوارنت:

«لقد کان الیهود الأقدمون یشترکون مَع الکنعانیین والمؤابیین والفینیقین والقرطاجنین وغیرهم من الشعوب فی عادة التضحیة بطفل، بل بطفل محبوب، لاسترضاء السماء الغضبی، ثم أصبح فی الإمکان علی توالی الأیام أن یستبدل بالطفل المجرم المحکوم علیه بالإعدام، وکان البابلیون یلبسون هذا الضحیة أثواباً ملکیة، لکی یمثل بها ابن الملک، ثم تجلد وتشنق، وکان هذا نفسه یحدث فی رودس فی عید کرونس. وأکبر الظن أن التضحیة بحمل أو جدی فی عید الفصح لیست إلّاتخفیفاً لهذه التضحیة البشریة اقتضاه تقدم المدنیّة» (۳).

والظاهر أن الیهود فی الحال الحاضر یضحون بحمل أو جدی فی حجهم إلی بیت المقدس، وقتلهم للبشر اتخذَصوراً أخری...

جبل موسی علیه السلام فیصحراء سیناء

اعتقد الیهود أن الجبل الواقع فی طور سیناء، الذی یبعد (۳۲۰) کیلومتراً عن منطقة عیون موسی والذی یبلغ ارتفاعه (۷۶۰۰) قدم، هو الجبل الذی کلّم اللَّه تعالی موسی علیه السلام فیه، وأنزل علیه الألواح المقدسة... فقدسوا هذا الجبل جیلًا بعد جیل وحجّوا إلیه، وعدّوه من المقدسات الیهودیة المهمة.

وقدصرّح الاستاذ (منشه حاریل) استاذ الجغرافیا الدینیة وتاریخ الأدیان بالجامعات العبریة قائلًا: «إن الیهود یحجون کلّ عام...

ومن القرن السابع المیلادی حتی الیوم الی جبل موسی، ویتحملون مشقة

۱- ۱ انظر العهد القدیم، سفر اللاویین، الاصحاح ۲۳، الفقرات ۵- ۹.

۲- ۲ الموسوعة العربیة المیسرة: ۱۲۴۷.

۳- ۳ قصة الحضارة، مج ۶، ۱: ۲۶۴.

ص: ۱۶۶

الوصول إليه، وتسلق (۳۸۰۰) درجة للوصول إلى قمته، التى يعتقدون أن موسى كلّم ربّه فوقها، وتلقى منه الرسالة والوصايا، حتى أصبح ذلك الجبل بالنسبة لهم كالكعبة بالنسبة للمسلمين. ولا يقل عدد من تحملوا مشقة ذلك الحج عن العشرين مليون يهودى، حتى أصبح ذلك الجبل من المقدسات الدينية» (۱).

ثم بيّن خطأ اعتقادهم وصرّح فى حديث له نُشر فى مجلة المختار الألمانية عام (۱۹۷۴ م) بأنّ كلّ ما ورد ببحوث البعثة الأمريكيةصحيح، وأنّه يتفق مع النتائج، التى توصلت إليها بحوث معهده، وتمَّ تسجيلها وإعداد مخططاتها من بضع سنوات، فالجبل الذى يحجون اليه ليس هو نفسه الجبل الذى كلّم اللّه تعالى موسى عليه السلام فيه.

ولما سئل عن سبب عدم موافقته على نشرها واعلانها رسمياً قال:

«فإعلان تلك البحوث أو الحقائق التاريخية ستخيب آمالهم وتفقدهم ثقتهم فى اسطورة تحولت إلى عقيدة» (۲).

والحقيقة، أنّ التوراة تذكر مشخصات وعلامات لجبل موسى عليه السلام تختلف عما موجود فى الجبل الذى يحجون إليه سنوياً كبُعده من عيون موسى، وارتفاعه وغيرها من العلامات... ووصف الأرض أنّها أرض مناجم الفيروز والنحاس، الذى اشتهر اليهود بصناعتها والتجارة فيها فى ذلك الوقت (۳).

فالجبل الذى يحجون إليه سنوياً بعيد عن عيون موسى، وأكثر ارتفاعاً من الجبل المذكور فى التوراة، والذى كشفته البعثة الأمريكية للآثار، وليس لمناجم الفيروز والنحاس وجود فيه...

إذن هذه العقيدة الإسطورية لليهود، أصبحت واضحة للعيان كوضوح الشمس فى ظهر النهار أنّها بِدعة ابتدعتها أنفسهم بعد ميلاد عيسى المسيح عليه السلام بسبعة قرون، ومثلها تعاليم التلمود، ومثلها من تدوين التوراة من قبل، وهكذا. أما

۱- ۱ فرعون موسى، د. سيد كريم، مجلة الهلال، العدد ۵: ۷۳، عام ۱۹۷۵ م.

۲- ۲ المصدر السابق.

۳- ۳ راجع سفر الخروج العهد القديم يبين ويوضح جغرافية ذلك المكان.

ص: ١٦٧

مناسك حجهم إلى هذا الجبل، يمكن بيانها من خلال الموازنة التى أجراها (هوتسما) (Houtsma) بين الوقوف- وقوف المسلمين فى عرفات- وبين إقامة بنى إسرائيل على جبل سيناء، فهؤلاء يعدون أنفسهم لهذه الإقامة بالامتناع عن النساء (سفر الخروج، الاصحاح ١٩، آيه ١۵)، وبغسل ثيابهم (الخروج، ١٩/ ١٠ و ١۴) وبذلك يقفون أمام الرب، وعلى هذا النحو لا يقرب المسلمون النساء ويرتدون ثياب الإحرام ويقفون أمام الخالق فى سفح جبل سيناء» (١).

ومن مناسك هذا الجبل أيضاً، الاستسقاء من ماء عين (شيلوه المقدسة) ولهذا الاستسقاء تعويذة خاصة، وإنارة المعبد، وكذلك الضحية (الهدى) وأمور أخرى، إضافة إلى ذلك فإن وقت هذا الحج لهذا الجبل، يكون عادةً فى عيد المظال أو (يوم الاستغفار) (٢)، «فمن الطبيعى عند البحث فى معناه الأصيل أن نوازن بينه وبين عيد الخريف عند سامى الشمال، وهو عيد المظال (أو يوم الاستغفار) وهو أمر نجد له ما يؤيده أيضاً من أن عيد المظال فى التوراة غالباً ما يطلق عليه للايجاز اسم «حج» (سفر القضاة، الاصحاح ٢١، الفقرة ١٩، وسفر الملوك الأولى، الاصحاح الثامن، الفقرات ٢ و ۶۵)...» (٣).

بئر الحى الرائى بالقرب من الخليل

وهناك فرقة أخرى من اليهود قدست هذه المنطقة التى فيها (البئر المقدس) وحجت إليها، وما زالت هذه الفرقة تعتقد أنّها بلد جدّهم الأعلى إسحاق بن الخليل ابراهيم عليهم السلام، ومدينة إقامته ووفاته.

جاء فى التوراة: «وكان بعد موت إبراهيم أن اللّه بارك إسحاق ابنه، وأقام إسحاق عند بئر الحى الرائى و... الخ» (۴).

وذكرت التوراة أيضاً أنّ إسحاق تزوج من (رفقة) فى ذلك المكان فى حياة أبيه إبراهيم عليه السلام وامّه سارة:

«وكان إسحاق قد أتى من وُرُود

١- ١ دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين ٧: ٣٠۶.

٢- ٢ راجع المصدر نفسه: ٣١٠.

٣- ٣ دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين ٧: ٣٠۶.

۴- ۴ العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ٢۵، الفقرة ١١.

ص: ١٦٨

بئر لحی رُئی. إذ كان ساكناً فی أرض الجنوب، وخرج إسحاق ليتأمل فی الحقل عند إقبال المساء، فرفع عينيه ونظر وإذا جِمالٌ مقبلة، ورفعت رفقةُ عينيها فرأت اسحاق فنزلت عن الجمل، وقالت للعبد: مَن هذا الرجل الماشی فی الحقل للقائنا؟ فقال العبد: هو سيدی. فأخذت البرقُعَ وتغطّت، ثم حدَّث العبدُ إسحاق بكلّ الأمور التيصنع، فأدخلها إسحاق إلى خِباء سارة أُمّه، وأخذ رفقة فصارت له زوجة وأحبها» (١).

ولهذه القصة فی هذا المكان المقدس، لها وقع خاص فی قلوب اليهود؛ لذلك قُدست المنطقة وقُدس ماءُ بئرها.

ومنطقة (بئر الحی الرائی) تقع بالقرب من مدينة الخليل، والخليل على بُعد (۴۴) كم جنوب بيت المقدس، وهی مدينة حبرون القديمة، وفيها قبر الخليل إبراهيم وزوجه سارة وإسحاق ويعقوب وقبر رفقة، ويضمّ هذه القبور مسجدٌ كبير (٢).

ولهؤلاء الخمسة مكانة خاصة عند بعض اليهود؛ لذلك قُدست قبورهم وأماكن ذكرياتهم، واعتبرت مكاناً يُحج اليه، ويتقرب بهم إلى اللَّه فی تقديم الأضاحی والنذورات والهدايا، وقراءة الأدعية والتضرع والتخشع والبكاء؛ للحصول على النعيم الاخروی من خلالهم ولرضا الربّ الاله.

ويقول د. حسن ظاظا فی الحج الى هذه المنطقة:

«وبئر الحی الرائی، بالقرب من الخليل، وقباله سندياتة قمْرا، كثير من أتقياء اليهود يحجون اليها حتى اليوم، لِما جاء فی التوراة: وكان بعد موت إبراهيم أنّ اللَّه بارك إسحاق ابنه، وأقام إسحاق عند بئر الحی الرائی، وتزوج عندها فی رفقة قبل موت ابويه سارة وإبراهيم» (٣).

معبد (بيت إيل) بالقرب من نابلس (۴) عظمت هذا المعبد فرقة أخرى

١- ١ المصدر السابق، الاصحاح ٢۴، الفقرات ۶٢- ۶٧.

٢- ٢ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ٧۶۴.

٣- ٣ طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ٢١٠: ٧.

۴- ۴ نابلس: مدينة بالمملكة الأردنية الهاشمية، على الضفة الغربية لنهر الأردن، وعلى بُعد ۶ كم شمال بيت المقدس، يعيش بها عدد قليل من السامريين القدامى، الذين مازالوا يحافظون على طقوس عبادتهم وعلى تقاليدهم القديمة. ذكرتها التوراة باسم شكيم بمعنى منكب، انظر الموسوعة العربية الميسرة: ١٨١١.

ص: ١٦٩

من اليهود وهى فرقة (السامرية) وهى الفرقة اليهودية التى لا تؤمن إلّا بالأسفار الخمسة، التى تمثل القسم الأول من (العهد القديم)، وكذلك لا تؤمن بالبعث واليوم الآخر... وقد ذكرها ابن حزم فى كتابه (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) قائلًا:

«أنّهم يبطلون كلّ نبوة كانت فى بنى إسرائيل بعد موسى ويوسع عليهما السلام، فيكذبون شمعون وداود وسليمان وأشعيا واليسع وإلياس وعاموص وحبقوق وزكريا وأرميا وغيرهم، وأنّهم يقولون: إنّ مدينة القدس هى نابلس، وهى من بيت المقدس على ثمانية عشر ميلًا، ولا يعرفون حرمة بيت المقدس ولا يعظمونه. وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها» (١).

وكان معبد «بيت إيل» الذى أقامه يعقوب فى أرض كنعان بالقرب من نابلس، المكان الأول الذى يحج اليه بنو اسرائيل حتى أن شيّد سليمان الهيكل فى القدس، ولم يفقد منزلته هذه إلّابعد انشطار مملكة سليمان نصفين بعد وفاته:

١- السامرة شمالًا وكانت مملكة معادية لأسرة داود وسليمان فى الجنوب، وتسمى نفسها إسرائيل! واستمرت فى الحج إلى بيت إيل.

٢- يهوذا المنحدرة من داود وسليمان، فكانت تحج إلى «الهيكل» فى أورشليم، وهو الاسم الذى اشتهرت به منذ سليمان (٢).

وفى هذا المعبر قبر يوسف عليه السلام، وعين يعقوب عليه السلام بالقرب منها (٣).

أما القبلة التى تتوجه إليها فرقة السامرة فهى نحو جبل يقال له «غريز يم» بين بيت المقدس ونابلس. قالوا:

إنّ اللَّه تعالى أمر داود أن يبنى بيت المقدس بجبل نابلس، وهو الطور الذى كلّم عليه موسى عليه السلام، فتحول داود إلى (إيلياء) وبنى البيت ثمة، وخالف الأمر، فظلم، والسامرة توجهوا إلى تلك القبلة دون سائر اليهود (۴). الذين قبلتهم بيت المقدس.

١- ١ الفصل فى الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ١: ٨٢.

٢- ٢ انظر طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ٢١٠: ٧.

٣- ٣ الموسوعة العربية الميسرة: ١٨١١.

۴- ۴ الملل والنحل، الشهرستانى، ت ۵۴٨ ه: ٢٠٠، الطبعة الإيرانية.

ص: ۱۷۰

وکلمـة «إیل» تعنی «اللّه» فیکون معنی المعبـد «بیت اللّه» ویجاور هـذا المعبـد، جبل ونخلـة، الجبل اتخـذوه کعرفات فی مکة، والمعبد کالکعبـة، والنخلـة کـ (العُزی): وهی فی وادی بطن نخلـة، قطعها خالـد بن الولید بأمر النبی محمدصـلی الله علیه و آله التی کان یُحجُ إلیها فی الجاهلیة ویُعلق علیها النذور والهدایا... فمقام تلک النخلة کهذه.

ولفرقة السامرة طقوس خاصة کالطواف والأضاحی وغیرها منصعود الجبل والوقوف علیهِ، وتقدیم النذورات والهدایا والقرابین للشجرة المقدسة؛ لتقضـی لهم حوائجهم... وقد جاء فی سـفر القضاء: «وکانت دبورة النبیّة، زوجة لفیدوت متولیة قضاء بنی إسـرائیل فی ذلک الزمـان- أی بعـد موسـی بقرنین- وکـانت دبورة تجلس تحت (نخلـة دبورة) بین الرامـة وبیت إیـل (فی إقلیم نـابلس) فی جبل أفرایم، وکان بنو إسرائیل یصعدون إلیها لتقضی لهم» (۱).

ومن الجدیر ذکره أنّ دعاء السـمات للشـیعة الإمامیة، ذکر قدسیة هذا المکان، ویبدو أنّ السبب هو تجلی مجد اللّه تعالی للنبی یعقوب علیه السـلام جـاء فی الـدعاء: «اللهم وباسـمک العظیم الأعظم الأعز الأجل الأکرم، وبمجـدک الـذی تجلیت به لموسـی کلیمک علیه السلام ول...

ول... ولیعقوب نبیک علیه السلام فی بیت إیل» (۲).

أماکن مقدسة من الطبیعة

وحـجَّ قسمٌ آخر من الیهود إلی أمـاکن طبیعیـة کالجبال الشاهقـة، وبعض التلال والأشـجار والآبار وعیون الماء، اعتماداً علی النصوص التوراتیة، واقتداءً بسُنة الأجداد، الذین قدسوها واعتبروها آیات عظیمة تقربهم إلی الرب.

وهـذا النص التوراتی یبین قدسـیة الأمـاکن الطبیعیـة من الأرض: «هـذه هی الفرائض والأحکام التی تحفظون لتعلموها فی الأرض التی أعطاک الربُّ إله آبائِک؛ لتمتلکها کلّ الأیام التی تحیون علی الأرض. تخربون جمیع الأماکن حیث عبدت الأُمم، التی

۱- ۱ سفر القضاء، الإصحاح ۴، الفقرات ۴- ۵.

۲- ۲ مفاتیح الجنان، الحاج الشیخ عباس القمی، دعاء السمات.

ص: ۱۷۱

ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة، وعلى التلال، وتحت كلّ شجرة خضراء. وتهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم، وتحرقون سواريهم بالنار، وتقطعون تماثيل آلهتهم، وتمحون اسمهم من ذلک المكان... لا تفعلوا هكذا للرب إلهكم. بل المكان الذی يختاره الرب إلهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سُكناه تطلبون والى هناک تأتون.

وتقدمون إلى هناک محرقاتكم وذبائحكم وعشوركم ورفائع أيديكم ونذوركم ونوافلكم وأبكار بقركم وغنمكم» (۱).

وهذا النص التوراتی له وقع كبير فی نفوس بعض اليهود، حيث يذهبون سنوياً إلى تلک الأماكن المخصصة من الطبيعة، التی احتلها الأجداد وقضوا على سكانها، وأحرقوهم، وقتلوهم، يذهبون إليها حجاجاً معيدين مع ذبائحهم وضحاياهم ونذورهم وهداياهم، وهذا ما يوجبه عليهم المقطع الأخير من النص، اضافة إلى أمرهم بالصلاة الخاصة هناک، وتقديم البكر من البقر والغنم إما ضحية أو هدية، وقبل هذا كلّه يوصيهم النص أن يقدموا محرقاتهم ای (ينيروا المكان) ليستضيئوا ولا تمسهم الظلمة.

وهذا الحج فی الحقيقة عادة وثنية اقتبسها اليهود، الذين عاشوا فی قرون سبقت عهد موسى عليه السلام، فانتقلت الى ابناءئهم فادخلوا عليها عبر القرون والأيام ما يسدّ حاجتهم العنصرية والنفسية، فجعلوها ضمن معتقدهم الدينی.

ويقول د. حسن ظاظا: «كان اليهود- أو بنو إسرائيل- يجعلون من الأشجار والجبال والتلال وعيون الماء والآبار مزارات يحجون إليها ويتبركون بها، ويبنون عندها معابدهم» (۲).

جاء فی الحديث عن إبراهيم عليه السلام فی التوراة: «وتجلّى له الرب فی سندبانة (قَمْرا) وهو جالس بباب الخيمة، عند ارتفاع النهار. فرفع بصره وألقاه فرآى ثلاثة رجال

۱- ۱ سفر التثنية، الاصحاح ۱۲، الفقرات ۱- ۷.

۲- ۲ طقوس الحج عند اليهود: ۷.

ص: ۱۷۲

واقفين أمامه، فلما رآهم هَمَّ لاستقبالهم أمام باب الخيمة، وسجد الى الأرض قائلًا: مولاى! إن كانت لى حظوة فى عينيك، فلا تضربصفحاً عن عبدك، سأقدّم لكم بعض الماء فتغسلون أرجلكم، وتتكئون تحت الشجرة، وأقدّم كسرة خبز، لتسندوا بها قلوبكم، ثم تنصرفوا، بعد ذلك، فإنكم لذلك مررتم بعبدكم.

قالوا: اصنع كما قلت! فاسرع إبراهيم الى الخيمة، الى سارة، وقال: هاتى ثلاثة أصواع من دقيق سمين، فاعجنيها واصنعيها خبز مَلَّة. وبادر إبراهيم إلى البقر فأخذ عجلًا حنيذاً طيباً، ودفعه إلى الغلام، فأسرع فى إعداده. ثم أخذ زبداً ولبناً، والعجل الذى كان قد هيّأه، ووضع ذلك بين أيديهم، وهو واقف أمامهم تحت الشجرة، فأكلوا. ثم قالوا: أين سارة، امرأتك؟ قال: هى فى الخباء، قال:

سأرجع إليك مثل الآن فى العام القادم، ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت سارة تستمع عند باب الخباء، وهو وراءه. وكان إبراهيم وسارة شيخين طاعنين فى السن، يستحيل أن يكون لهما ما للنساء. فضحكت سارة فى نفسها قائلة: أبعد شيخوختى يكون لى تَنعُّم (۱)؟ وبعلى شيخ كبير! فقال الرب لإبراهيم: ما بال سارة قد ضحكت قائلة: أألدُ وأنا عجوز؟ أهذا على الرب أمر عسير؟ فى مثل هذا الوقت من قابل، أعود اليك ويكون لسارة ابن» (۲).

ولأن التجلى الإلهى والبشرى بإسحاق كانتا عند هذه الشجرة (السنديانة)، فقد قدسها بنو إسرائيل وكانوا يحجون إليها، ويتبركون بها، ويطلبون منها حوائجهم.

«أما العيون والآبار فمن أشهرها «قادش» الذى يدل اسمها المؤابى على تقديسها، واحتفظت فى اسمها بالعربية (عين قديس) ويتصدر الآبار (بئر سبع) جنوب شرقى غزّة. وكان الساميون القدماء من بنى إسرائيل وغيرهم يعتقدون أنّ هذه البئر (مسكونة) أى تقيم فيها كائنات غير

۱- ۱ التنعّم: يعنى بنين أو بمعنى الذريّة.

۲- ۲ سفر التكوين، الاصحاح ۱۸، الفقرات ۱- ۱۴.

ص: ١٧٣

منظورة من الملائكة والجن، وأنّ عددهم سبعة، تسهر على عقاب الحانث فى يمينه، المتعمد للكذب، فكان عليه أن يذهب مع خصمه إلى تلك البئر، ويدعو على نفسه باللعنات السبع، كأن يموت بلا عقب، وأن يفقد كلّ عزيز عليه، وأن يصاب فى ماله، وصحته، وشرفه، وأن يضرب فى الأرض شريداً، وأن يفقد السمع والبصر والعقل... الخ» (١).

تلخيص واستنتاج

وصفوة القول أنّ الديانة اليهودية عرفت الحج كممارسة عبادية، مادية ومعنوية، كما عرفتها الديانة الإسلامية والديانات الأخرى التوحيدية وغير التوحيدية، لكن الفرق يكمن فى ماهية هذه العبادة والأعمال والشعائر والمكان والزمان، والأهم من هذا كله، اتباع ما اعتقدوا هم به، وليس بما جاءهم به نبيهم من شريعة السماء، بالتوجه الصحيح إلى المكان المطلوب، والزمان المعين، والمناسك المفروضة و... الخ.

والحج فُرض على الناس منذ زمن الخليل إبراهيم عليه السلام حين أذن فى الناس: وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالًا وعلى كلّ ضامرٍ يأتين من كلِّ فجّ عميق (٢)

.

وهذا الفرض السماوى عيّن المكان وعيّن الزمان واشترط الإستطاعة لأدائه، فقال تعالى: ولِلَّه على الناس حج البيت من استطاع إليهِ سبيلًا (٣)

أى حقّ على الناس كافة أن يحجوا إليه- إلى البيت الحرام- حيث هى الدعوة عامة وليست خاصة لفئة معينة من الناس دون أخرى، ولم يخصص المسلمين دون غيرهم أو المؤمنين دون غيرهم، اللَّه تعالى لا يفرق بين عباده، فلم يقل ولِلَّه على المسلمين أو على المؤمنين أو على الفرقة الفلانية أو الفئة الفلانية، أو تلك القبيلة أو العنصر المعين أو اللون المفضل، بل جاء الخطاب عاماً للنّاس.

وقوله تعالى: إنّ أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً

١- ١ طقوس الحج عند اليهود: ٧.

٢- ٢ الحج: ٢٧.

٣- ٣ آل عمران: ٩٧.

ص: ۱۷۴

وهدًى للعالمین (۱)

. ومن غیر الممکن ان یجعل اللَّه تعالی لفئۀ من عباده بیتاً فیه البرکۀ والهدی والرحمۀ وغفران الذنوب و... و... ویحرم آخرین منه. وقد روی عن الإمام موسی الکاظم علیه السلام حین سُئل عن هذه الآیۀ وللَّه علی الناس حج البیت... ومن کفر فان اللَّه غنی عن العالمین قال: «من قال لیس هذا هکذا فقد کفر»(۲).

إذن فالحج لغیر بیت اللَّه الحرام لا یُقبل من أی إنسان ایاً کان، فهو بِدعۀ لا یقبلها اللَّه تعالی ولا تأخذ معنی الحج الحقیقی.

هناك نصوص قرآنیۀ تدین الخلط بین الحق والباطل، وتدین التباس الأمر علی الناس نتیجۀ الإنحراف، وترجعها إلی انعدام الرؤیۀ الواضحۀ والصحیحۀ والاضطراب عند بعض من الناس، من أضلهم وأغواهم الشیطان للانحراف عن الطریق المستقیم وعن جادۀ الصواب، الی طریق الهوی وطریق الغوایۀ... قال تعالی:

لِمَ تلبسون الحق بالباطل وتکتمون الحق وأنتم تعلمون (۳)

.

فالیهود یعلمون أن اللَّه تعالی شرع حجّاً... ویعلمون قدسیۀ بیت اللَّه الحرام، ویعرفون أن جدهم إبراهیم الخلیل علیه السلام بنی بیتاً لعبادۀ اللَّه تعالی، مع هذا انکروا الحق وألبسوه بالباطل وتوجهوا إلی أماکن ارتاحت لها أنفسهم وثبتت فیها عنصریتهم. ونسج الانحراف خیوطه فتاهت الحقیقۀ علیهم جیلًا بعد جیل، وضاعت معه مقدساتهم الحقیقیۀ ومعتقداتهم الواقعیۀ، ولعب الهوی أیضاً دوره، والإنسان ابن الهوی إذا لم یقیده قید ویرشده مرشد (۴)... وهذه المسألۀ فی غایۀ الدقۀ والأهمیۀ.

الحجّ فی الدیانۀ المسیحیۀ:

مضی النصاری علی شاکلۀ نظائرهم الیهود فی اتخاذ وجهات متعددۀ، ومراسم وسلوکیات خاصۀ، خطّتها لهم خیالاتهم وأهواؤهم،

۱- ۱ آل عمران: ۹۶.

۲- ۲ وسائل الشیعۀ ۱۱: ۱۶، ح ۴۱۲۸.

۳- ۳ آل عمران: ۷۱.

۴- ۴ نقصد بالقید والمرشد: العقل والإیمان الحقیقی، والارتباط باللَّه تعالی.

ص: ۱۷۵

وزيّن لهم الشيطان سوء أعمالهم وتصرفاتهم، حتى أحسّوا أنّهم على حقّ وغيرهم على باطل.

عرفوا الحج أنّه طواف ودوار حول مقدسات العقيدة، فطافوا بمقدساتهم، وقدموا الأضاحى والنذورات والهدايا... بكوا وتضرعوا وطلبوا الغفران، وبعضهم ترك ملذات الدنيا المحللة والشهوات المباحة، واتجهوا للرهبانية عن الحياة ليتخذوا من (العذراء مريم) اسوة، ومن إلههم الثانى عيسى المسيح ربّاً- كما يزعمون- يغفر ذنوبهم ويكفر عنهم سيئاتهم ويدخلهم نعيم الجنة!!

وانقسم المسيحيون إلى عدّة فرق وكلّ فرقة اتخذت وجهة خاصة فى الحج ومراسم وطقوس حجّ خاصة.

وقد خصّص لهم كتابهم (الإنجيل المحرف) أعياداً دينية، ك (عيد الفصح) و (عيد القيامة)، و (عيد الميلاد) و (عيد الفطاس)، وغالباً ما يصاحب أعيادهم حج وطقوس خاصة به.

يقول أحد الكتاب المسيحيين (فنسنك wensinck) فى معنى الحج عندهم: «وقد فسّر لغويو العرب الحج بأنه «القصد» ويتفق هذا ومعنى الحج عندنا (أى عند النصارى) على أنه من الواضح أنّ هذا المعنى اصطلاحى، كالفعل العبرى، ولعل المادة ومعناها فى اللغات السامية الشمالية والجنوبية «يطوف» أو «يدور»...» (۱).

ولم نقرأ فى إنجيلهم المحرف ذكراً للحج عندهم، بل هناك أعياد دينية، يفرحون بها ويذكرون اللّه (الأب) وابنه (يسوع المسيح) الذى جمع فى تكوينه بين الروح الإلهية والتكوين الإنسانى فهو- حسب تعبيرهم- مركب من إله وإنسان.

وعلى هذا فالمسيحية ذات إلهينْ وليس إلهاً واحداً، وإنَّ ديناً له أكثر من إله واحد ليس ديناً توحيدياً بل ثنائياً أو ثلاثياً يُسيِّره الإله الأب والإله الابن وروح القدس.

فالمكان الذى وُلد فيه الإله الابن محجة أولى لهم، ومكان الصلب والرفع

۱- ۱ دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين ۷: ۳۰۴.

ص: ۱۷۶

محجة ثانية، وكل مكانٍصلى فيه عيسى المسيح أو ظهر هو أو أمّه مريم العذراء، فهو مكان مقدس ومحجة لهم، وهذا الظهور والتجلى فى أى زمان أو مكان أو لأىشخص منهم فهو مقدس ومحل زيارة ومحجة سنوية فى أحد الأعياد الدينية التى رسمها لهم كتبة الإنجيل.

الإنسان المتدين بدين المسيحية كأى إنسان آخر فهو ابن عقيدته، ونظرة أى إنسان إلى الحياة والكون ومفاهيمه فى شتى المجالات، بل وحتى عواطفه وأحاسيسه كلّها تدور حول محور العقيدة التى يتبناها، والتى تسهم فى بنائه الفكرى والأخلاقى والاجتماعى والعبادى.

فإذا حكّم الإنسان عقله تجلى له الطريق الصحيح، وإذا قلّد أو غفل أو تعصب انحرف. فكتبة الإنجيل من أمثال هؤلاء الذين قلّدوا وغفلوا وتعصبوا فامتزج عندهم الحق بالباطل. وأول من أدخل البِدع وحرّفَ فى الديانة المسيحية، شاب يهودى اسمه شاؤول يذكر قصته الكتاب المقدس فى الاصحاح السابع من العهد الجديد، ادّعى أنّه حصلت له رؤيا ظهر فيها عيسى المسيح ودعاه الى التبشير. وفجأةً غيّر هذا الشاب اسمه إلى (بولص) وأدخل فى المسيحية ما ليس فيها؛ ليكسب بدعوته الوثنيين والجهال من اليهود ومن غيرهم. ففى كتاب: «المئة: تقييم الأشخاص الأكثر أهمية فى التاريخ» فإنّ مؤلفه مايكل هارت يقول: «ليس هناك شخص لعب دوراً فى الضخامة كالدور الذى لعبه بولص فى إشاعة المسيحية» (۱).

وجهة النبىّ عيسى عليه السلام فى الحج

وعيسى روح اللَّه عليه السلام لبّى نداء نبى اللَّه وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، حين أمره اللَّه تعالى أن يؤذن فى الناس بالحج، وعَلِم (وهو من الأنبياء الكبار: أى من أولى العزم) من اللَّه تعالى أن هذا النداء عام ولم يختص بشريحة معينة من شرائح المجتمع، بل هو يشمل جميع الأديان السماوية

۱- ۱ عن كتاب: نظرة عن قرب فى المسيحية، بربارة براون: ۲۲.

ص: ۱۷۷

وجميع الأنبياء والرسل، وهو تكليف عام، واجب على المكلفين ومستحب لغير المكلفين، وسنبين شروط التكليف فى الفصول اللاحقة إن شاء اللَّه تعالى.

وقد أكدت الروايات الشريفة عن الرسولصلى الله عليه و آله وعن أئمة الهدى عليهم السلام، حج ابن مريم عيسى روح اللَّه عليه السلام، إلى الكعبة الشريفة، فقد جاء عن رسول اللَّهصلى الله عليه و آله أنّه قال: «والذى نفس محمد بيده ليُهلّن ابن مريم بفجّ الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليثّنيهما» (۱).

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، قال: «ومرّ عيسى بن مريم عليه السلام بصفائح الروحاء وهو يقول: لبيك عبدك وابن أمتك» (۲).

وفى تحديد الوقت الذى كان الأنبياء يحجون فيه إلى البيت العتيق، ومن ضمنهم عيسى عليه السلام، قال الإمام الرضا عليه السلام:

«... وقتها عشرة ذى الحجة...

النبيون آدم ونوح وإبراهيم وعيسى وموسى ومحمد (صلوات اللَّه عليهم) وغيرهم من الأنبياء، إنما حجّوا فى هذا الوقت، فجعلت سُنة فى أولادهم إلى يوم القيامة» (۳).

والنبىّ عيسى عليه السلام أحد أولى العزم الخمسة، ومن غير الممكن أن تكون وجهته فى الحج مخالفة عن وجهة بقية الأنبياء والرسل، كأن يتخذ من بيت المقدس أو مكاناً آخر محجة خاصة له ولقومه واتباعه.

انحراف النصارى فى الحج

والنصارى أو المسيحيون حالهم حال اليهود فى التحريف والانحراف عن سُنة اللَّه والأنبياء، وعدم التزامهم بتعاليم نبيهم المرسل إليهم الذى ينسبون أنفسهم إليه، وما انزل عليه من شرائع السماء، وضربهم على تعاليم الشريعة بحُجب التحريف والكتمان، والترك الصريح لها، وقد ذكرهم القرآن الكريم، مستنكراً أعمالهم وعبادتهم فى آيات بينات كثيرة منها قوله تعالى:

قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل

۱- ۱ مسند أحمد ۲: ۲۴۰ و ۲۷۲ بتفاوت يسير و ۲۹۰ فى حديث قال فيه: «وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما».

۲- ۲ بحار الأنوار، المجلسى ۹۹: ۱۸۵، الطبعة البيروتية.

۳- ۳ المصدر نفسه.

ص: ١٧٨

وما أُنزل إليكم من ربّكم وليزيدنَّ كثيراً منهم وما أُنزل إليك من ربّك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين (١)

.

فالآيـة الكريمةصريحة البيـان واضـحة المعنى أن أعمـالهم ليست مقبولـة، وهى لا ـ شـىء حتى يعملوا بما أمرهم اللّه من خلال الكتب السماوية المنزلة على أنبيائه.

عيسى عليه السلام كغيره من الأنبياء جاء بشيراً ونذيراً وهو بشر نبياً، لكن المسيحيين انقسموا فريقين من بعده: فريقاً كفروا وعادوا إلى وثنيتهم. والفريق الآـخر جعل من شخصـية عيسى عليه السلام مرتكزاً للـدين وأخذ الـدين اسـمه من عيسى المسيح، وأخـذت كل المعتقدات المسيحية تتمحور حول عيسى؛ المسيح. الأعياد المسيحية الرئيسية تتعلق بأحداث فى حياة عيسى المسيح. ورمز العقيدة المسيحية، وهو الصليب، يشير إلى عيسى المسيح. وصلوات المسيحيين موجهة إلى عيسى لأنهم يعتبرون أن اللّه نفسه لا يمكن أن يخاطبه إنسان عادى. وحسب ما يقوله المؤلف المسيحى فرتز رايـدنور: «إن مفتاح العقيـدة المسيحية هو أن عيسى المسيح كان فى الواقع السبب فى وجودها كلّها، وأنه هو الذى يحافظ على تماسكها بأجمعه» (٢).

فهـذه الملّة من البشـر جعلوا من أمـاكن ذكريـات نبيهم، وما تجلى لهم من شـخصه وشخصـية أمّه عبر تاريخه الى يومنا هـذا، جعلوها أماكن حج دينية فى أعيادهم السنوية... نذكر من هذه الأماكن المقدسة ما يلى:

١- اتجه بعض المسيحيين إلى بيت المقدس فى فلسطين حيث الصليب الأصيل للسيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام اقتداءً بسنة الملكة هيلانة.

٢- واتجه قسمٌ آخر إلى كنيسة رومة فى ايطاليا (Rome (rom.

٣- ومنهم من حجَّ إلى لورد فى فرنسا للمكان الذى ظهرت فيه السيدة العذراء لهم.

١- ١ المائدة: ۶٨.

٢- ٢ كيف تكون مسيحياً فى عالم غير مسيحى: ١٧۶، نقلًا عن نظرة عن قرب فى المسيحية، بربارة براون: ١۴.

ص: ۱۷۹

۴- وتوجه منهم إلى كنيسة (فاطيما) (Fatima) لتجلى السيدة النورانيةصاحبة المسبحة فاطيما.

۵- وآخرون توجهوا إلى أماكن متفرقة كقبور الأسلاف من موتاهم، أو إلى الجبال وغيرها من الطبيعة.

وسنحاول قراءة كلّ واحدة من هذه النقاط قدر استطاعتنا، وإلقاء الضوء على الموقع الجغرافى ونبذة عن تاريخها إن شاء اللّه تعالى.

الحج إلى بيت المقدس

التوجه فى الحج إلى بيت المقدس، لم يرد فيه نص لا فى التوراة ولا فى الإنجيل، بل سُنة اتبعت نتيجة اسباب معينة، فعند النصارى كان السبب الرئيسى هو اتباع سُنة الملكة، (هيلانه (Helene) (ste) أمّ الامبراطور قسطنطين، التى اكتشفت العود الأصلى، الذيصُلبَ عليه عيسى المسيح، فجُعلَ ذلك اليوم مباركاً وعيداً يحج فيه إلى بيت المقدس الذى يحتضن العود المقدس...

«وهيلانة التى اهتدت إلى الدين المسيحى، وقامت عام (۳۲۶ م) بجولة تفقدية فى الشرق، زارت خلالها الأماكن المقدسة فى فلسطين، وقامت ببناء كنائس فى أورشليم وبيت لحم.

يُروى أنّها عثرت على عود الصليب الحقيقى» (۱).

ويُروى أنّها «كرست اهتمامها لكشف مواضع الحوادث المهمة للمسيحيين، ولبناء كنائس تذكاراً لها» (۲).

فالمسيحيون يكرّمون «كنيسة القبر المقدس، التى تقوم على المكان التقليدى لجبل (الجلجثة)، الذى يعتقد المسيحيون أن المسيحصلب عليه.

يحيط بالمدينة القديمة سور شيده السلطان سليمان القانونى عام (۱۵۴۱)، وفى شرق المدينة القديمة يقع وادى قدرون وبه بستان جشمانى» (۳) و «حينما منع الأتراك السلاجقة، المسيحيين من زيارة بيت المقدس، وهدّموا كنيسة القبر المقدس (الآن كنيسة القيامة) قامت الحروب

۱- ۱ معجم الحضارات السامية، هنرى س. عبّودى: ۸۹۶، طرابلس- لبنان.

۲- ۲ العرب واليهود فى التاريخ، د. أحمد سوسة: ۳۹۰، العربى للإعلان والنشر.

۳- ۳ الموسوعة العربية الميسرة.

ص: ١٨٠

الصليبية، فسقطت فى أيدى الصليبيين عام (١٠٩٩)...» (١).

والزيارة أو الحج إلى كنيسة القيامة (كنيسة القبر المقدس)، عادةً تكون فى عيد الفصح السنوى وهو:

«العيد الرئيسى عند المسيحيين، وهو ذكرى قيامة المسيح بين الأموات فى العقيدة المسيحية، ويقع بين (٢٢) مارس و (٢٥) أبريل ويرتبط به عدد كبير من الأعياد الأخرى، ويُسبق بالصيام الكبير الذى يدوم أربعين يوماً، ويجمعه «آلام المسيح»...» (٢).

وعيد الفصح: عيد دينى تُمارس فيه أوامر ونواهٍ خاصة كالصوم والصلاة والدعاء والنذور والأضاحى وغيرها، ويختلف بكثير عن عيد الميلاد المسيحى المشهور، الذى تحوّل الى عيد قومى يُلزم به المتدين وغير المتدين من المسيحيين، وهو ذكرى مولد السيد المسيح، يليصيام أربعين يوماً (هذا بالنسبة للملتزمين، أما غير الملتزمين فلا يعنيهم هذا الصيام)، وهو يوم ٢٥ ديسمبر بالتقويم الغربى، ويوم ٢٩ كهيك بالتقويم القبطى، احتُفِل به قبل (٢٠٠)، ثم انتشر وأصبح شائعاً وشعبياً فى القرون الوسطى، التصقت به عادات وتقاليد قومية، مثل غناء الترانيم، وتبادل الهدايا وإرسال التهانى، وغير ذلك، أما إقامة (شجرة عيد الميلاد) فهى عادة ألمانية الأصل (٣).

وهنا لا يهمنا هذا العيد، ولكن الشىء بالشىء يذكر، لأنهم يستحب لهم فى عيد الميلاد زيارة (كنيسة القيامة المقدسة) إن استطاعوا، وإلّا فأى كنيسة أخرى.

أما الحج إلى (كنيسة القيامة) فى بيت المقدس الشريف المُسن من قبل الملكة هيلانه، فهو ذكرى العثور على عود الصليب الأصلى كما ذكرنا سابقاً، يحيون ذكراه، حتى أصبحت عادة وسُنة جيلًا بعد جيل، وكأنهم يحجون إليه لفريضة أو أمر إلهى شرعه له عيسى المسيح عليه السلام فتركز فى نفوسهم، أما حقيقة هذا الحج فهو التراث الذى

١- ١ المصدر نفسه.

٢- ٢ الموسوعة العربية الميسرة: ١٢٤٧.

٣- ٣ انظر المصدر السابق.

ص: ١٨١

خلّفته (هيلانه)، فهو تراث وحج مزيف وليس حجاً إلهياً حقيقياً.

كنيسة القيامة فى القدس الشريف

رومة فى ايطاليا rom] Rome]

تعدُّ روما من المدن المهمة والمقدسة للمسيحيين، وهى مركز ثقافى وفنى ودينى منذ عهد طويل ويطلق عليها: (المدينة الخالدة) وكذلك (المدينة المقدسة) وهى وسط ايطاليا قرب الساحل الغربى على ضفتى نهر «التيبر»، عاصمة ايطاليا،

دو فصلنامه «ميقات الحج»،ص: ١٨٢

وفيها الفاتيكان مقر البابوية، وكان للإصلاح الكاثوليكى بعد عام (١٥٢٧) م أثر فى استفادة البلاط البابوى- بعد أن خرب جنود شارل روما عام ١٥٢٧ م- وكذلك استعاد مكانته وسلطته الروحية. استمرت روما فى الازدهار والإفادة من وفود جموع الحجاج عليها (١).

وروما من كُبرى مُدن ايطاليا، ويرقى تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد. كانت فيما ما مضى عاصمة الجمهورية الرومانية، ثم عاصمة الامبراطورية الرومانية، ثم عاصمة المقاطعات البابوية... وهى اليوم عاصمة الجمهورية الإيطالية، والعاصمة الإدارية والروحية للكنيسة الرومانية الكاثوليكية بوصفها مقرَّ الكرسى الرسولى (فى الفاتكان) (٢).

جاء فى تاريخ الحضارات العام:

«فإننا نشاهد عناصر عديدة من المسيحيين تقوم فى العاصمة روما، ملتقى جميع الملل والطوائف، ومحجّة الشعوب على اختلافها» (٣).

وروما المدينة الجميلة ذات الطبيعة الخلابة والآثار الجذابة ومقر الكنيسة الكاثوليكية ومقر الكرسى الرسولى، التى تستهوى القلوب المسيحية التى تعلقت بشخص عيسى المسيح عليه السلام، اعتُبرت كنيستها والآثار المحيطة بها، محجّة سنوية ومركزاً تجارياً وترفيهياً. والحج لهذه المدينة الأثرية- فى اعتقادنا- ما هو إلّانزهة سنوية ترفيهية اكثر مما هى معنوية الهية أو روحية.

إنّ هذا النوع من النزهة السنوية ممكن فى كل مكان وزمان، ولم يتوفر على أىّ من شروط الحج، ونحن نعتقد وتبعاً لما نعرف من الأوضاع الاجتماعية المتردية فى الغرب، لابد وأن يصاحب هذه السفرة السياحية قضايا وامور انحرافية لا أخلاقية مما لا يرضى اللّه بها ولا السيد المسيح نفسه، فكيف يطلقون على هذه النزهة «حجاً»؟!

١- ١ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ٨٩٨- ٩٠٠.

٢- ٢ انظر موسوعة المورد، منير البعلبكى ٨: ١٦٣.

٣- ٣ تاريخ الحضارات العام، اشراف موريس كروزيه ٢: ٤٢۶.

ص: ١٨٢

ص: ١٨٣

والظاهر أن زيارة المسيحيين لرومه تكون عادةً فى عيد القيامة، ويصاحبها استعمال البخور والماء المقدس فى التطهير، وإيقاد الشموع وتقديم النذور وبعض الأضاحى (١).

كنيسة لورد فى فرنسا Loord

ابتدع هذا الحج عام (١٨٥٨ م) أى بعد ميلاد السيد المسيح عليه السلام بأكثر من ثمانية عشر قرناً، ويرجع سببه إلى ادّعاء إحدى راهبات الكنيسة فى فرنسا أنها شاهدت مريم العذراء، تجلت لها بجوار المغارة التى كانت بالقرب منها.

ولورد: بلدة فى الجزء الجنوبى الغربى من فرنسا. كانت فى القرون الوسطى ذات موقع استراتيجى هام.

أصبحت منذ العام (١٨٥٨ م) محجّاً يقصده المرضى من الكاثوليك التماساً للشفاء بعد الذى أُذيع من أن العذراء تجلّت غير مرة، فى مغارة هناك لفتاة ريفية اسمها برنادت (٢) (Bernadette).

وتدّعى الكتب المسيحية أن برنادت سوبيروس... المولودة عام (١٨٤٤ م) فى لورد (فرنسا) ظهرت لها السيدة العذراء عام (١٨٥٦ م) أو (١٨٥٨ م)، أى كانت بالغة من العمر (١٢- ١٤) عاماً، ودعتها إلى تأسيس معبد (لورد) الحالى، وكانت وفاتها عن عمر يناهز (٣٥) عاماً أى عام (١٨٧٩ م) (٣).

ومدينة لورد الواقعة بمقاطعة البرانس العليا جنوب غرب فرنسا يؤمها حوالى مليون زائر سنوياً، التماساً للعلاج عن طريق المعجزات (۴).

ولا شك أن (مُودة) ظهور السيدة العذراء وتجليها للنصارى، أصبحت معروفة: وهى إما خيالات لمغالين أو لأغراض سياسية أو اجتماعية أو تبشيرية أو لُامور أخرى! عِلماً أنّ هذه المغارة أصبحت لهم (باب المراد) يطلبون حوائجهم منها وينذرون لها ما استطاعوا إليه سبيلًا أو أكثر، يحيون الليل بالبكاء والتضرع آملين من العذراء غفران الذنوب

١- ١ انظر قصة الحضارة ١١: ٣١۴- ٣٢٠.

٢- ٢ موسوعة المورد ۶: ١۴٨.

٣- ٣ المنجد، لويس معلوف: ١٢٧، دار الشرق- بيروت.

۴- ۴ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ١۵٧۴.

ص: ۱۸۴

وستر العيوب والشفاء من الأمراض.

وعجباً لسذاجة بعض المسيحيين، أن يطلقوا على هذه الأماكن، أماكن حج يُعبد فيها الرب الإله والرب اليسوع عيسى وامّه، تذكرها كتبهم بكلِّ جرأة ووقاحة...

تجرهم طفلة أحبت العذراء مريم عليها السلام وتعلقت بها وتخيلتها مرّات، هذا تعليقنا على هذه القضية إنصحت الأخبار فى نقلها...

كنيسة (فاطيما) فى البرتغال «Fatima»

وقصة فاطيما تتمحور فى قضية مقدسة حدثت فى أوربا، اهتم بها العالم المسيحى. لأنها من شؤونه الدينية الخاصة، وقد ارتبطت هذه القصة باسم يمت إلى العالم الإسلامى بصلة.

وفاطيما: قرية فى شبه جزيرة (فيبرى) غرب اسپانيا فى مدينة ليشبونة فى البرتغال، فتحها عبد الرحمن عام (۷۱۰ م) وبقيت تحت راية الإسلام حتى القرن الحادى عشر الميلادى، استولت عليها أوربا وانجلى الإسلام عنها، وأصبح أغلب سكانها من المسيحيين.

وفى عام (۱۹۱۷ م) أصبحت فجأةً محجة للمسيحيين ومقصداً للزوّار، والمتابع لأخبارها يعجب للدين المزيج من التعاليم المسيحية والتعاليم الإسلامية، خصوصاً عند أهل القرية التى تحتضن كنيسة فاطيما...

وبدأت القضية هكذا: ثلاثة اطفال قرويين يفتحون عيونهم على حقيقة تجلت لهم فى ضواحى القرية، لتصبح فيما بعد مَعيناً متدفقاً لاعتقاد عميق فى حياة أبناء هذا البلد.

الأطفال هم: جاسنيتا- سبع سنوات- وفرانسيسكو- تسع سنوات- ولوسيا- عشر سنوات- الشاهد الأصلى لهذه الحادثة هى لوسيا.

وتروى ألسنة الأطفال الثلاثة الحادث على النحو الآتى: فى عام ۱۹۱۶، قبل عام واحد من رؤيتنا السيد التى تشع بالنور، تراءت لنا

ص: ۱۸۵

«ملاکاً» ورددت هذه العبارة:

لا تخافوا... أنا «ملاک السلام».

وقالت أیضاً «إلهی! أنا أعتقد بک وأؤمن بک وأحبک، وإنی أطلب الغفران لهؤلاء الذین لا یؤمنون، ولا یعتقدون بک، ولا یحبونک».

بعد ذلک تراءت لهم ملاکاً مرتین فی الصیف والخریف، وفی کلّ مرّة کانت تقول لهم: «قدّموا الأضاحی، واستغفروا للمذنبین وادعوا لهدایتهم» وقد لعبت المواقف الثلاثة دوراً فی تهیئة الأطفال لرؤیة السیدةصاحبة المسبحة، وفی الثالث عشر من آیار (مایس) ۱۹۱۷ م، رأی الأطفال هالة النور مرتین، ثم أطلّ نور عظیم من أعلی شجرة البلوط، سیدة أشد ضیاء من نور الشمس تسمی «فاطیما» راحت تکلمهم:

- لا تخافوا، لا أرید أن اخیفکم

- من أنت؟

- فاطمة بنت الرسول

- من أین جئت؟

- جئتُ من الجنة

- ماذا تریدین منّا؟

- جئت لأطلب منکم أن تواظبوا علی المجیء إلی هنا، وسأقول لکم فیما بعد ماذا أرید منکم. وأخذت تظهر کلّ شهر وفی لقائها السادس والأخیر أظهرت معجزة کبری أمام أنظار سبعین ألف شخص کانوا قد احتشدوا لرؤیتها... إذ شاهدت الحشود المنتظرة، توقف هطول المطر فجأة، واهتزت الشمس واستقرت، ثم دارت مرّتین بنحو ظنَّ الناس بأنّها ستسقط فی أی لحظة علی رؤوسهم.

ثم عادت الشمس إلی موضعها. وأولصحیفة نشرت هذا الخبر (صحیفة لیسبون) فی الخامس عشر من تشرین الثانی من العام نفسه (۱).

وهناک مصدر آخر یقول: «ان فاطیما قریة وسط البُرتغال زُعم أنّ السیدة العذراء ظهرت لثلاثة من أطفالها (اطفال القریة) فی ۱۳ مایو عام ۱۹۱۷ م. ومنذئذ أصبحت محجةً یقصد إلیها المسیحیون من مختلف أرجاء الأرض...» (۲).

---

۱ - ۱ «فاطیما» مهوی الأفئدة وملاذ المتضرعین، الطاهرة، العدد ۷۰: ۱۱ - ۱۲. والفلم التحقیقی الذی عرضه تلفزیون الجمهوریة الإسلامیة باللغة الفارسیة.

۲- ۲ موسوعة المورد، البعلبکی ۴: ۱۰۸.

ص: ١٨٦

وتعتبر ليلة الثالث عشر من مايو- يوم الحادث- من كلّ عام ليلة الدعاء المهمة في مزار فاطيما، إذ ينبغي وفقاً لوصية السيدةصاحبة المسبحة، قضاؤها بالدعاء والتسبيح والاستغفار، وهو درس تعلّمهُ الناس هنا من السيدة فاطيما؛ ليصبح فيما بعد واحداً من معتقداتهم وتصوراتهم الدينية. والطريف أن هذه الحشود البشرية، التي تقطع مئات الكيلومترات كلّ عام من شمال البلاد وجنوبها، قاصدة هذه المدينة المقدسة، لم يثنها عن مجيئها حرٌّ ولا برد، ولا ليل ولا نهار، بل وبعد انتهائها من الزيارة يتمتم كلّ واحد بهذه الكلمات:

«سيدتنا فاطيما! السيدةصاحبة المسبحة! السيدة هالة النور! أنا مضطر الآن للابتعاد عنكِ، ولكن أطلب من اللَّه أن لا يجعل هذا اللقاء آخر لقائي بك، وأن يكون هذا الالتماس وهذا الشوق حيّاً في وجودي دائماً يا فاطمة! في أمان اللَّه يا سيدتنا الطاهرة» (١).

وتعليقنا على هذه الواقعة التي جاءتنا من بعيد، من البرتغال أو بالأحرى من قرية نائية من البرتغال، من بيئة مسيحية، واقعة شاهد آثارها عدد كبير، وزارها الباب نفسه (٢)...

وفي نفس الوقت تتعلق القضية بشأن إسلامي مهم هو ظهور السيدة فاطمة بنت الرسولصلى الله عليه و آله ذات المسبحة (٣).

ونحن نحترم السيدة مريم العذراء عليها السلام، وفي الوقت نفسه نقدس السيدة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، فهل يا ترى أنّ الذي وردصحيح مئة بالمئة؟ ذلك ما لا أستطيع أن أنفيه على الأقل...

ولكن أتساءل... لَمْ نقرأ أن مجموعة من المسيحيين ومنهمصاحبة القضية الأصلية الراهبة (لوسيا) أنهم أسلموا مع أن القضية تستحق الإسلام، هذا اذا كان التجلي لشخص فاطمة الزهراء عليها السلام، وإذا كان التجلي لشخص مريم العذراء عليها السلام فلَم نقرأ أن لمريم عليها السلام اسماً يشابه اسم فاطمة؛ لكي

١- ١ «فاطيما» مهوى الافئدة وملاذ المتضرعين: ١٣.

٢- ٢ في عام ١٩٦٧ م. في الذكرى الخمسين لإقامة المزار، زارها البابا بولس السادس تجليلًا للبقعة المقدسةوتكريماً لها. كما زارها الباب بولس الثاني عام ١٩٨٢ م.

٣- ٣ الطريف أن حجاج تلك الكنيسة يحملون بأيديهم مسبحة ويسبحون كتسبيح الشيعة الإمامية أي: يذكرون اللَّه ٣۴ مرة اللَّه اكبر، ويحمدون اللَّه ٣٣ مرة الحمد للَّه، ويسبحون اللَّه ٣٣ مرة سبحان اللَّه، كلٌّ بلغته الخاصة.

ص: ١٨٧

تُسمى المنطقة باسمها.

ثم إنّ اهتزاز الشمس ودورانها مرتين ورجوعها إلى حالها منذ زمن قريب جدّاً (سنة ١٩١٧ م)... ليس أمراً عادياً، إنه أمر كونى تنقلب له الدنيا وتهتز له عقول العلماء الفلكيين، ولكن لم نسمع ولم نقرأ عن هذا الحدث الكونى شيئاً، فى حين أن تسجيلات خسوفات وكسوفات عادية جاءت من آلاف السنين.

إنّ القضية أو القصة يجب أن تُقرأ بشكل مفصل نظرياً وميدانياً، واللّه أعلم ما وراء ذلك...

وقد سمعنا من أحد الناقلين القادمين من البرتغال أن التى تجلت لهم (١) كانت (فاطمة) بنت أحد الخلفاء المسلمين وليست بنت الرسولصلى الله عليه و آله، فإن كانت هذه أو تلك فالقضية تحتاج إلى دارسة أكثر كما ذكرنا أعلاه...

حجهم إلى مقدسات أخرى

إضافة إلى ما ذكرنا من مقدسات النصارى، هناك أماكن أخرى قدسها البعض منهم؛ كقبور الموتى وبعض الأشجار التى رُمز لها (بشجرة عيد الميلاد) وبعض الجبال وغيرها، ونذكر هنا تقديسهم وحجهم للقبور القديمة:

كانت طريقة الدفن المسيحية آخر ما تُكرَّمُ به حياة المسيحى، ذلك أن من عقائد دينهم عودة الحياة إلى الجسم والروح، ولهذا كان يُعنى بالميت أشد عناية، فيقوم قسيس بالخدمة الدينية للميت وقت دفنه... فكان العمال يحفرون طرقات طويلة تحت الأرض مختلفة البُعد عن سطحها، توضع فيها أجسام الموتى فى دياميس بعضها فوق بعض ممتدة على جانبى هذه الطرقات، وسار الوثنيون واليهود على هذه السنة نفسها، ولعلهم فعلوا هذا ليسهلوا مشقة الدفن ونفقاته على الجمعيات التى كانت تقوم بهذه المهمة. ويبدو لنا أن بعض هذه الطرقات قد جعلت ملتوية عمداً، وقد يبعث على الظن بأنها كانت تستخدم كمخابىء فى أوقات الاضطهاد، فلما أن علا شأن المسيحية

١- ١ أى تجلت للأطفال الثلاثة.

ص: ١٨٨

وانتصرت على أعدائها زالت عادة دفن الموتى فى السراديب، وأضحت الدياميس أماكن معظمة «يحجُّ» اليها الناس (١).

والظاهر أنّ هذه الدياميس بقيت محجة لمئات السنين حتى حلَّ القرن التاسع الميلادى، سدّت السراديب ونسيها الناس، ولم تُكشف إلّا بطريق المصادفة عام (١٥٧٨) ميلادية (٢).

وكذلك عادة تقديس بعض الجبال وبعض الأشجار، فقد انقرضت بظهور عادة الحج إلى رومة وفاطيما ولورد والقدس وغيرها من المقدسات الحديثة...

تلخيص واستنتاج

والحج المسيحى هو الآخر ليس حجاً إلهياًصحيحاً، وذلك بسبب من أصل العقيدة التى اختاروها أوصنعوها ومزجوا بها بين اللَّه والانسان، فديانتهم التى اختارتها عقولهم رأت أن المسيح عليه السلام هو الإله (الابن) المكمل للإله الحقيقى، فالمسيحية هى ديانة ذات إلهين وليس إلهاً واحداً، وأن ديناً له أكثر من إله واحد ليس ديناً توحيدياً...

وكما ذكرنا فى المقدمة ما قالته (بربارة براون) الكاتبة الأمريكية التى أسلمت عن قناعة راسخة بعد أن رأت أن المعتقدات المسيحية كلّها تدور حول الإله الابن (عيسى عليه السلام) وقالت: «إنّ المسيحية هى ديانة ذات إلهين وليس إلهاً واحداً» (٣)، والأعياد والصلاة و... و... كلّها موجهة إلى عيسى المسيح...

وكذلك الحج عندهم ليس عبادة خالصة موجهة إلى الواحد الأحد- كما عند المسلمين- بل هى مرتبطة إما بشخص عيسى عليه السلام أو مكان ذكرياته كمسقط رأسه أو العود الذيصُلب عليه، أو المكان المرتبط بالسيدة العذراء مريم عليها السلام إذا تجلت لهم فى خيال أو تصور أو منام أحدهم أو للمغالين منهم...

ومن هنا تبين الانحراف والابتعاد عن الحج الحقيقى، الذى

١- ١ انظر قصة الحضارة ۶، ١١: ٢٨٥- ٢٨۶.

٢- ٢ المصدر نفسه.

٣- ٣ نظرة عن قرب فى المسيحية: ١٣.

ص: ۱۸۹

وضع اللّه الواحـد الأحـد هـدفه الأسـمى والأول والآخر، وغير ذلـك لاـ يمكن أن نعتبره حجـاً بأى حال من الأحوال مهما كانصاحبه مخلصاً، ومهما عمل من الأعمال والمناسك الدينية...

فالحـج عنـد النصـارى إذن ليس مرتبطاً بالإله الحقيقى بالمرة، وإنما مرتبط بالإنسان الـذى خلقه اللّه تعالى للبشـر؛ ليُبشـر ويُنـذر وليبين الحق من الباطل... والنبى عيسـى عليه السـلام ما هو إلّا بشرٌ مثلنا يُشاركنا ونشاركه بالإنسانية، اصطفاه اللّه تعالى ليكون رسولًا نبياً. وأمه أيضاً لا يمكن أن تُعبـد أو أن تكون فى مقام أُم الإله اليسوع- كما يدّعون-، فهى امرأة انسانة، لكنها وصـلت مرحلة الأولياء الصالحين نتيجة علاقتها باللّه وعبوديتها الحقّة له، ممّا جعلها سيدة نساء زمانها، وأمّ نبى اللّه.

وأمّا النصارى فقد أشركوا باللّه تعالى، حين جعلوا لعيسى عليه السلام وامّه عليها السلام مقام الإلوهية...

الهوامش:

ص: ١٩٠

ص: ۱۹۱

ص: ۱۹۲

من رحلات الحجّ الإيرانيّة (۳) مقتطفات من يوميات مكة لكريمة فرهاد ميرزا

ص: ۱۹۳

من رحلات الحجّ الإيرانيّة (۳) مقتطفات من يوميات مكة لكريمة فرهاد ميرزا

هذه هى إحدى يوميات السفر إلى مكة، التى كُتبت فى العهد القاجارى، وكاتبة هذه اليوميات هى كريمة فرهاد ميرزا (صاحب إحدى يوميات الحج هو الآخر والتى طُبعت مراراً). وحسام السلطنة هو عَمُّ الكاتبة، وهو كاتب اليوميات المعروفة باسم «سفرنامه مكه» والذى طبع على شكل كتاب مستقل. وجدير بالذكر أنّ حسام السلطنة كان قد حضر حج العام نفسه، الذى تشرفت به كاتبة هذه اليوميات بالحج ودوّنت هذا الكتاب، وكتب هو الآخر يومياته فى السنة نفسها. وقد أورد الكاتبان ذكراً عن بعضهما الآخر فى يومياتهما.

وأمّا ما يخصّ كريمة فرهاد ميرزا فلا نعلم عنها سوى أنّها كانت زوجة وزير العسكر، وقد تكدّر مزاجها كثيراً عند سماعها بالمرض الشديد الذى أصاب وزير العسكر فى أواخر سفرها.

وقد تعرضت هذه اليوميات كغيرها من اليوميات المؤلَّفة، فى العهد القاجارى، إلى بيان منازل الطريق إلى الحج والمشاكل والعقبات، التى يواجهها

ص: ۱۹۴

المسافرون. وكانت القوافل إبّان ذلك الوقت قلّما تخلو من مواجهة المصاعب والمشاكل، وخصوصاً عند تعرّضها للهجمات، التى كان يقوم بها الأعراب وقطاعُ الطرق. وقد أطنب المؤلف فى وصف تلك العقبات والمشاكل.

لقد سعى رجال البلاط فى العهد القاجارى بجدّ إلى التعرف على الأدب والثقافة والتاريخ، وهو أمرٌ شمل عدداً محدوداً من نساء الطبقة العُليا لتلك العوائل.

والكتاب الذى بين أيدينا هو خير شاهد على مستوى الثقافة الذى تطلّعت به بعض نساء البلاط آنذاك، وتأتى أهمية هذا الكتاب إضافة إلى ما ذُكر فى كونه تأليفاً لامرأة، من طبقة الأشراف، حيث يعكس انطباعاتها بمهارة، وهو ما يميّزه عن باقى اليوميات المكتوبة فى الفترة نفسها. وهذه اليوميات، التى تعود إلى العهد القاجارى هى الثانية بعد يوميات السفر المنظومة فى العهد الصفوى من قبل امرأة مثقّفة، وقد طبعت ونشرت.

وقد تمّت تهيئة هذا المتن طبقاً لنسخة كانت معروفة لدينا، هى نسخة محفوظة فى مكتبة مجلس الشورى الإسلامى رقم ٢ تحت رقم (١٢٢٥) (الفهرست، ج ٢،ص ١٧٢).

*** بداية الرحلة

هذه هى يوميات الرحلة إلى بيت اللّه الحرام، التى اكتبها بمعونة اللّه القادر المتعال مشروطة بسلامة مزاجنا.

يوم الثلاثاء ٢۴/ شهر رمضان المبارك/ ١٢٩٧ ه، لأربع ساعات بقين للغروب. تحركنا بالطالع الحسن من دار الخلافة،...

بداية السفر إلى الحج (١) ليلة السبت، الثالث من شهر ذى القعدة الحرام، جلستُ حتى الساعة السابعة مشغولة بالكتابة والتوديع وأردّد مع نفسى:

١- ١ بما أن هذه الرحلة طويلة، فقد اقتبسنا منها ما يخصّ الحج فقط.

ص: ١٩٥

إلهى آمنّى حتى أرى ثانيةً وجه الأحبة وعيون المحبّين.

وبعد كتابة الرسائل أعطيت الظروف إلى الساعى، ثم نمتُ بعض الوقت، وبعدها سمعتُصوت الطّبل.

الحقّ أنّ روحى تكاد تخرج من جسـدى اليوم. فقمتُ وتوضأتُ وأدّيت فريضة الصبح. فقيل: بسم اللَّه، اركبوا. فجاء من كربلاء واحدٌ أو اثنان من المودّعين. إنَّ التحرّك اليوم أشـدّ وطأة من تحركنا من طهران. وبعـد قولنا بسم اللَّه، اسـتودعنا الجميع بحفظ اللَّه! وتحركنا من الحضـيرة من هناك ولساعتين بقيتا للغروب نزلنا، وكان الهواء حارّاً والسير غير طبيعى. عسى اللَّه أن يتفضّل علينا بالفرحة والسلامة فى مسيرنا خلال هذا السّفر الطويل.

يوم السبت، الثالث من شهر ذى القعدة الحرام، كان المنزل فى «خان شور».

فقضـينا الليلة هناك، وعند السَّحر دَقَّ الطّبل، وبعد أداءصـلاة يوم الأحد الرابع، من الشهر نفسه، ركبنا وتابعنا المسير. وفى أثناء الطريق كانت هناك قلعة وعين ماء تُعرف ب (عين سـعيد). فغرس أمير الحاج عبـد الرحمن هناك لواءً لأجل أخـذ الماء، ويبدو أنّه لا يمكن الحصول على الماء حتى اليوم التالى. فأقمنا فى الخيام، وقد اسـتعذت باللَّه واسـتعنت به عليصـعوبات الطريق وشدة حرّ النهار، ورجوتُ أن لا أمرض.

ليلـة الاثنين، الخامس من ذى القعـدة الحرام، عنـد مُنتصف الليل ركبنا، ولساعتين بقيتا للغروب ترجلنا فيصـحراء لا يرى فيها إلّاالرمال. وبقينا فى هذه الصـحراء إلى وقت السّحر، ولساعتين بقيتا لانبلاج الصبـح تحرّكنا، يوم الثلاثاء، السادس من هذا الشـهر الغروب تقريباً، ولمّـا وصـلنا إلى المنزل، توقّفنـا فيه قليلًا من اللّيـل، ثم تحركنـا لساعتين بقيتا للأذان. ماذا أقول وكيف أصوّر قلـة الماء وحرارة الجوّ؟! أسألُ اللَّه أن لا يتعرض المسلم للهلاك فى هذه الصحراء القاحلة، التى لا ماء فيها ولا زرع.

ص: ۱۹۶

يوم الأربعاء وصلنا إلى مكان كانت فيه عدّة آبار، إلّاأنَّ ماءها كان مالحاً.

وهنا أيضاً ذُكِرَ أنّه لا مجال للحصول على الماء حتى منازل ثلاثة قادمة، فملئتِ القدور ماءً، ويوم الخميس والجمعة وليلة السبت لم يكن هناك ماء. ولأنَّ الجمالين لم يكونوا وصلوا بعد، ضُرِبَ الطبلُ فى أول تلك الليلة وتحركنا. بعض المشاة كان يبدو عليهم أنهم على وشك أن تُقْبَضَ أرواحهم. وفى ذلك المنزل أيضاً بدا أحدهم وهو من أهل شميران مريضاً فتوفى، وبعد مشقة كبيرة حصلنا على قِربة من الماء، ودُفع تومان واحد وعشرا التومان كمقدمة لتغسيله، ثمّ دُفِنَ المسكين فى تلك الصحراء بشكل من الأشكال.

ركبنا وسرنا ساعة أو اثنتين حيث جاء كل جَمّال حاملًا الماء لرئيس القافلة.

وكانت فى هذه الليلة نوبة واحدة لأخذ الماء بشكل لا يمكن أن يذكر بالكتابة.

وبحمد اللّه تعالى فقد وصل الماء واستقرت أرواحنا. العجب من هذه الجمال التى ليس لها ماء ولا عَلَف، وتسير النهار بطوله هُنا!

ثلاث ساعات بقينَ للغروب، وصلنا إلى بئر الماء التى قالوا عنها: إنها تحوى ماءً حُلواً. فى الصحراء الأحجار والصخور تحت الرمال، فإذا أردوا أن يغرسوا مسامير حديدية فيها من أجل ربط أطناب الخيام تحطّمت تلك المسامير. فكان لابد من ربط سرادق الخيام بالحجارة. كلما أزيل الرّمل تكشّفت الحجارة من تحتها. ويقولون: إنَّ فى هذه الصحراء مئة وثمانين بئراً، وإنّها من عمل الغيلان! ويبدو أنّ الأمر هو كما يُقال، ذلك أنّه ليس بمقدور البشر أن يحفر فى الصخر. ويبدو كذلك أنّ هذه الصحراء مخلوقة من الصّخر. على أيّة حال سحبوا بعض الماء، والماء هنا حلوٌ، إلّاأنَّ لونه أصفر كالزّعفران؛ وذلك من كثرة أوساخ الجمال وسقوطها فيه.

بعد مضيّ ساعتين من اللّيل أعلن نقيب القافلة أنّه لا وجود للماء فى المنزلين القادمين. وعند السحر ركبنا وكانوا يسيرون فيها أظنّ أربع عشرة ساعة أو خمس

ص: ١٩٧

عشرة ساعة فى اليوم.

نحو جَبَل:

يوم الثانى من ذى القعدة الحرام، خرجنا من كربلاء، ويوم الجمعة السادس عشر وصلنا جَبَل. وفى هذه الأيام لم يُشاهد سوى تُراب الأرض والسّماء. قبل وصولنا إلى الجبل بيوم واحد كانت هناك قلعة، وكانت هناك مزرعة للذرة.

ولأجل تناول الطعام، توقفنا هناك ساعة أو اثنتين وشربنا فنجاناً من الشّاى، وبعد أن تزودنا بالماء ركبنا. ولساعة بقيت للغروب نزلنا؛ ولأنّ هذه المنازل ليس لها اسم مُعيّن، لم يذكر هنا.

الجمعة السادس عشر، لخمس ساعات بقين للغروب وصلنا «جَبَل» لنقضى فيه ليلة السبت السابع عشر ويوم السبت السابع عشر، جاء (الامير محمد خان) ملك «جَبَل» إلى الحجيج وزار مكانهم، وقد كان أنيقاً جدّاً فى هيئته، وقد شَدَّ لفرسه لجاماً من الذّهب، ولبس هو قباءً غُجراتيّاً مُذَهَّباً. وأمّا غِلمانه فكانوا مُزينين تماماً ببنادق ذات محاجل فضيّة، وجلسوا خارج الخيمة. وبعد أداء التشريفات جلس هو وسط الخيمة، فيما جلس جميع رجاله فى الخارج. وكعادة الأعاجم حيث يجب على الخادم أن لا يجلس قرب المخدوم، ولم تكن هنا من تلك التشريفات والمراسيم. وكانت لديه خمسة مدافع. وفى كلّ ليلة يطبخون عِدّة جمال فى معمله لإطعام رجاله وعُمّاله.

ليلة الأحد، الثامن عشر وليلة الاثنين التاسع عشر، وبعد مضىّ ساعتين على النّهار، ركبنا، فسِرنا حتى ساعة بقيت للغروب، ومن كربلاء وحتى جَبَل لم يلُح لنظرنا جَبَلٌ على الإطلاق، ما عدا أرض مستوية وتراب ناعم لا غير. كانت ثلاثة من المنازل التى مررنا بها عبارة عن أرض رملية، ورمالها كانت حمراء، ويُعرف هذا النّوع من الرمل برمل الصياغة حيث يُنَظَّف به الذهب والفضة. كانت منطقة جَبَل التى تكاد تكون كلّها أرضاً جبلية، تحيط كالسور بهذه الصحراء

ص: ١٩٨

المترامية، وفى بعض الاماكن كان الجبل يبعد عن مثيله مقدار مئة ذراع لا غير.

ولما رجعتُ ثانية من هناك كان يبدو أن سوراً كبيراً يُحيط بهذه الصحراء.

ليلة الثلاثاء العشرين، لأربع ساعات بقين للغروب، وصلنا إلى قرية يُسمونها (عربان مستة جدّة). ونزلنا خلف حائط بستان، ثم ردّد نقيب القافلة ثانيةصوته الكريه قائلًا: احملوا معكم ماءً كثيراً، لأننا لن نحصل على الماء خلال الأيام القليلة القادمة.

ليلة الأربعاء، الحادى والعشرين ركبنا من مستة جدّة لستّ ساعات مضين من اللّيل، ولأربع ساعات بقين للغروب أصبحنا فيصحراء يدعونها (غرالية).

وعلى بُعد فرسخين بدت لنا منازل. كانت هنا أرض الأمير محمد. وبعد يومين آخرين يخرجون من أرض محمد ويدخلون أرض حربى (١).

ليلة الخميس، الثانى والعشرين من ذى القعدة الحرام، بعد طلوع القمر، تابعنا المسير. حفظنا اللَّه بفضله وسلّمنا من كلّ سوء خلال مسيرنا فى هذا الطريق؛ لنصل مقصدنا إن شاء اللَّه بسلام.

من ليلة الخميس، الثانى والعشرين وحتى ليلة الأحد الخامس والعشرين، لم يكن هناك ماء فى منازلنا التى مررنا بها. يوم الأحد، وفى أثناء الطريق، وُجِدَت بئر ماء، فأخذوا من مائها الذى كان مُرّاً ومالحاً، بعدها لم نجد ماءً فى المنازل الأخرى حتى يوم الثلاثاء، السابع والعشرين، حيث وُجِدَت بئر ماء أخرى.

وكانت تكثر فى هذه الصحراء أشجار امّ غيلان، وكان يُظَنُّ أنَّ هذه الأشجار مزروعة باليد، وكلّها مُرّتبة ومزروعة على شكلصفوف ثابتة. وأيضاً كانت هناك بعض المزروعات، والتى تُدعى (الدّفلى). وكلّما أمطرت اخضرَّت جميعها.

وكان أحد الحجّاج وهو من جرجان، والذى كانت امرأته فى نفس المحفّة التى كان شخصنا فيها، وقد تخلّف يوم الأحد عن القافلة، وعندما نزلوا فى الليل عُلِمَ أنّه بقى فى الصحراء. فبعثنا أحدهم للبحث عنه، فجيء بهصباح يوم الثلاثاء. وبعد

١- ١ المقصود هو «آل حرب».

ص: ١٩٩

قدومه علَمنا أن اثنين من العرب الفرسان وثالثاً كان راجلًا سألوه: يا حاج! لِمَ تخلّفت عن القافلة؟ فأخبرهم المسكين- والذى كُتِبَ له أجلٌ جديد- أن بعيره لا يستطيع السّير. فأجابوه: إذا أعطيتنا نقوداً فسنحمل لك متاعك. وعلى أيّة حال أنزل الفرسان الرجل المشار إليه من على بعيره، وحملوا متاعه على بعيرهم، وتحرّكوا ببطء شديد حتى غابوا عن أعين الحجيج، ثم أنزلوه، وكان معه (٦٠) توماناً من النقود فأخذوها منه واقتسموها بينهم، وأخيراً فكّروا فى قتله، ولمّا احَسّوا منه عجزاً شديداً انصرفوا عن قتله، ثم ضربوه ضرباً مُبرحاً، وأخرجوا ونهبوا ما تحت ثيابه، وبعد ذلك قالوا له: اذهب من هنا إلى حيث شئت. فقضى الحاج المسكين ليلته فى تلك الصحراء بالبكاء والعويل حتى طلوع النهار. بقى الحاج على هذا الحال إلى الظهر حتى عثر عليه الرجال الذين خرجوا للبحث عنه، فأركبوه وهو فى حالة يرثى لها وأوصلوه إلى قافلة الحجيج.

يوم الثلاثاء، السابع والعشرين، وصلنا رأس البئر، فملأنا الأوانى ثانية بالماء، ثم ركبنا، ويبدو- إن شاء اللَّه وبمساعدة الأئمة الاطهار عليهم السلام- أنّنا سنصل بعد يومين موقع الإحرام.

يوم الاربعاء، الثامن والعشرين من شهر ذى القعدة الحرام، تحركنا بعد أداء فريضة الصبح، ولساعة بقيت للغروب وصلنا المنزل، وأمّا الماء وان كان حُلواً ولكنه ليس ماءً مُستساغاً جداً.

يوم الخميس، التاسع والعشرين، تحركنا بعد فريضة الصّبح، فلاحت لناصحراء مليئة بأشجار اُمّ غيلان، وبقُدرة اللَّه تعالى كانت تبدو وكأنّها مرتّبةٌ من قِبل بستانىّ. كان قِسم من الصحراء يبدو وكأنّه كالبستان. وكنّا مستمرين فى المسير. ليلة الجمعة غرة ذى الحجة، أنْبِئنا بأننا سنصل غداً (وادى عقيق).

ليلة السّبت، الثانى من شهر ذى الحجة الحرام (١٢٩٧) وصلنا المحرم عند مُنتصف الليل. كان الجو لطيفاً تلك الليلة. وكان الغلمان والرجال الذين معنا، قد

ص: ۲۰۰

علّمهمصِهْرُ السّيد حاجى آخوند آداب الإحرام، حيث أحرموا فى وادى عقيق.

وبقينا فى الإحرام ثلاثة أيام.

يوم الأحد، الثالث من شهر ذى الحجة وصلنا (وادى ليمو). وكانت تلك البساتين موجودة هناك. ولم تَلُح لنا بيوت مسكونة فى تلك المنطقة التى كان فيها الطريق كلّه من الوديان، أخذنا كمية من اللّيمون والنارنج، واللّيمون الحامض هناك هو نفسه الذى يُعْصَر فى شيراز. عرب البادية لا يعرفون شيئاً عن اللّيمون الرّيان.

مكة المعظّمة:

الاثنين، الرابع من الشهر، وصلنا على بُعد فرسخ واحد إلى الاسفل من الوادى. وفى هذا اليوم لأربع ساعات بقين للغروب، بحمد اللَّه وصلنا مكّة المعظمة.

وعلى بعد فرسخين كانت توجد هناك بئر مشهورة باسم (بئر الإمام الحسن عليه السلام).

ويبدو أنَّ جبل النور على بعد نصف فرسخ.

ليلة الخامس من ذى الحجة، جاءوا بقرب ماء من بئر زمزم، فاغتسلنا غُسل الطواف، ثم تشرفنا بالحرم الشريف. وبعد أداء الطواف، أدّينا السعى بين الصفا والمروة، وعندما رجعت إلى المنزل، كان بعضهم يقرأ المناجاة. ومن شدة الحرّ والتعب فإننى لم أتناول العشاء، فقد سقطت على الفراش لمدة يوم وليلة كالمصعوق. ثم تحاملتُ على نفسى بالرغم من ذلك وتشرّفت فى الليل بالذهاب إلى الحرم... والبيت الذى كان قد كُرىَ لأجلنا لم يكن فيه مجلس للخدم، فشاهدنا البيت ثم غيّرنا المكان، ثم جئنا إلى بيت آخر يعود لأحد الأشراف القدماء والذى يُدعى (الشريف مهدى). أعوذ باللَّه من الطابق العُلوى لهذا البيت، فللوصول اليه يتحتّمصعود (۵۶) دَرْجَة بحيث ينقطع نفس الشخص من التعب...

مع كلّ المشقة كنا نتشرف بزيارة الحرم الشريف مرتين فى اليوم، مرة فى

ص: ٢٠١

الصباح ومرّة في الليل. وفي كلّ مرة من المرّات الثلاث (١)كنّا نؤدي الطواف ثلاث مرّات أو مرّتين.

نحو عرفات:

ليلة الجمعة، الثامن من الشهر، اشتُهِر بين السادة من أهل السنة أنَّ اليوم هو يوم عرفة. والحمد للَّهرحل الجميع إلى منى. ليلة الجمعة كان الحرم الطاهر خالياً.

فاغتنمنا الفرصة هذه الليلة، وانشغلنا بالطواف حتى الصبح تقريباً، والحمد للَّه، كنّا نُقبّل الحجر بكلّ قلوبنا. وأدّيتُ الطواف خمس مرات، وكلّ طواف سبعة أشواط.

الحمد للَّهالذي أنعمَ علينا بهذه النعمة، حيث اغتسلنا مجدّداًصباح يوم الجمعة الثامن من الشهر، وتشرّفنا بالحرم، ثم لبسنا الإحرام تحت ميزاب الرّحمة، ثم ذهبنا إلى عرفات... وفي الظهر أدّينا الوقوف في عرفات، وانشغلنا بالدعاء حتى الغروب. وفي الليل ركبنا وجئنا إلى المشعر. فجمعنا الحصى، وكان أهل السُّنة قد ذهبوا إلى منى. وفي الصباح بعد طلوع الشمس جئنا إليصحراء منى، وأتممنا رمي الجمرات، ثم قدّموا القرابين. لم يكن بالإمكان الذهاب إلى مكة المشرفة لأجل الطواف.

منى:

ليلة الحادي عشر والثاني عشر قام السادة من الحجاج الشاميين والمصريين بألعاب نارية لطيفة، كلٌّ من جهته. كانوا قد نشروا ذلك على جبل باروط (٢)، وكان انطلاقها شيّقاً وممتعاً. وقد انشغلوا بالألعاب النارية لمدة ثلاث ساعات بل أكثر من ذلك. وفي اليوم الحادي عشر رجع السادة إلى مكّة. أنا كذلك جئتُ إلى المدينة وأدّيت طواف الحجّ وطواف النساء، ثم رجعت. وبقينا ليلة الثاني عشر كذلك، وبعد ظهر اليوم الثاني عشر ذهبنا إلى (مسجد الخيف) وأدّينا الصلاة، ثم عُدنا إلى رمي الحجرات ورجعنا بعدها إلى مكّة. وفي اللّيل، وبالرغم من التعب والكلل، ذهبنا إلى بيت اللَّه وأدّينا الطواف، وسألنا اللَّه تعالى أن يُجيب دعوة

١- ١ وكذا في الأصل.

٢- ٢ كذا في الاصل.

ص: ۲۰۲

السائلين ويعطيهم حوائجهم المشروعة فى الدنيا والآخرة إن شاء اللَّه.

كان الجوّ فى منىً رديئاً، وقد توعّكتصحة الكثير من الحجيج. ليلة الثالث عشر ابتليتُ بالحُمى ووجع فى العظام، واستمرّت الحمى ثمانية أيام. إضافة إلى سوء حالتى العامة بحيث لم أستطع التحرّك أبداً. بحمد اللَّه تعالى نزلت رحمته، فقد استعدْتُصحّتى، وتشرّفت بزيارة الحرم ليلًا مع ما كان بى.

فى يوم السبت الثانى والعشرين من الشهر، تحسّنت حالتى قليلًا، فتشرفت بزيارة حضرة أبو طالب والسيدة خديجة الكبرى وعبد المطّلب وعبد مناف والسيدة آمنة والدة رسول اللَّهصلى الله عليه و آله، ثم تشرفت بزيارة الحرم كذلك فى الليل مع ما كان بى، ولم أستطع الطواف أكثر من مرّتين. وفى اليوم الخامس والعشرين من ذى الحجة، تشرفتُ عصراً بزيارة الحرم الشريف ثم ركبنا وجئنا إلى المكان الذى يأخذون منه الناس إلى العُمرة والمعروف ب (الشيخ محمود)، على أمل أن نركب ونسير غداً. ثم تبيَّن أنَّ هذا العربى من آل حرب لا يملك أيَّ بعير.

نحو المدينة:

لساعة واحدة بقيت للغروب من يوم الاربعاء، السابع والعشرين من ذىالحجة. تحركنا من موقف (شيخ محمود) وركبنا بعيراً من آل حرب ثم سرنا.

نعوذ باللَّه من هذه البُعران التى تسير مقدار فرسخ واحد كلّ ثلاث ساعات. قريب طلوع الصبح وصلنا إلى (وادى فاطمة). كان فيه ماء يجرى. ويبدو أنَّ ماء العين المذكورة حارٌّ لدرجة كأنّه مَغْلىّ.

لثلاث ساعات بقينَ للغروب من يوم الخميس الثامن والعشرين من الشهر المذكور، ركبنا ثم سِرْنا ليلة الشتاء بطولها حتى انبلج الصَّباح. فَلم يكن بإمكاننا تناول العشاء، ولا كان بالإمكان أخذ قسط من الراحة.

وبعد أداءصلاة الفجر ركبنا ثانية. وما إن انقضت ثلاث ساعات حتّى وصلنا إلى منزل آخر. كانت تلك الجِمال المنهكة تماماً تسير ثمانى عشرة ساعة. وفى

ص: ۲۰۳

الساعـة التاسـعة من تلك الساعات وصـلنا إلى منزل (بئر طفلة)، وكانت هناك بعض البيوت. ويوجد هناك بطيّخ أيضاً، إلّاأنّه لم يكن من النوع الجيّد.

فى يوم الجمعـة، التـاسع والعشـرين من ذى الحجـة، ركبنـا ثم سِـرنا، وعنـد الغروب ترّجلنا للصـلاة، ثم أقمنا الصـلاة. أسـتجير باللَّه من الجمّالين، إنّهم مجموعـة من الغلمان السّود، الـذين يتسـببون فى جَلْب المصائب على الحجيـج، لا يَـدَعون الجَمَل يرفع قـدماً عن قدم، يصيحون على الجميع ويصرخون: شوَىْ شوَىْ.

لأربع ساعات مضينَ من الوقت، نزلنا. وعند وقتصلاة الصبح نزلَ كذلك المطر.

ومع مرور عـدة أيّام على الشـتاء، لا يمكن ارتـداء شـىء أبـداً. حتى فى داخل المحفّة كُنّا نَعرق. نعوذ باللَّه من الصّـيف إذ لا يُعْلَم ماذا يحصل للناس!

يوم السّـبت غرّة شـهر محرّم الحرام ١٢٩٨، نزلنـا فى (بئر هنـدى). كـانت هناك بعض الآبار وقليل من البيوت المبنيّـة من القَصَب. عند الغروب من اليوم نفسه ركبنا، وعند انقضاء ساعة من اللّيل توقّف الحجاج؛ لأن الطريق كان موحّلًا ولا يمكن السّـير فيه، فَصَفّوا الجمال واحداً بعد آخر، وبمشـقة كبيرة سِـرْنا هذه الليلة حتيصـلاة الصبح. بعد أن أقمنا الصلاة ركبنا. ولأربع ساعات بقينَ للغروب وصلنا منزل (رابغ) عنـد ساحل البحر. كُنّا لعشـرين ساعـة كاملـة فى المحفّـة، جائعين، دون قوت أو غـذاء. منزل (رابغ) تكثر فيه النخيل، وفيه قلعة، وهناك جنود كانوا فيه رافعين عَلَماً، وبعض المـدافع كـذلك توجـد فى هـذه القلعـة. يوجد اللّيمون والنارنج كذلك فى هذا المكان، ولم يبقَ للحجاج إلّاالتعب والمشقة...

ليلـة الأحـد الثانى من شـهر محرّم، لثلاث ساعات بقينَ من الوقت ركبنا من منزل (رابغ)، وأدينا فريضة الصـبح خلال الطريق، ثم ركبنا ثانية. وفى العصـر نزلنا لأداء فريضة الظهر والعصـر، ثم ركبنا ثانية حتى سـبع ساعات مضـينَ من اللّيل، سِـرْنا باسـتمرار حتى وصلنا إلى منزل (بئر عثمان). كانت هناك بعض آبار الماء فى هذا المنزل. لا أحد يخطر بباله أنّ كلّ واحد منّا ما ظَلَّ راكباً إحدى وعشرين

ص: ٢٠۴

ساعة! ومن قِلّة الجمال والحركة البطيئة للبقية الباقية منها، فقد كانت معاناة الحجّاج بشكل لا يمكن وصفه في هذه السطور. الكلّ مُتعب وحَيْران ودون عشاء، والجميع أصيبوا بالدهشة خاصة المشاة منهم!

وبعد مشقة وعناء ركبنا ثانية، وكان الركوب المذكور في يوم الثلاثاء الرابع من شهر محرّم الحرام. كان الطريق اليوم كلّه أودية مُحاطة بأشجار ام غيلان من طرفيها. ووقتصلاة العصر، نزلنا، وبعد أداء الواجب ركبنا. لثلاث ساعات مضينَ من اللّيل، وصلنا ليلة الاربعاء الخامس من الشهر. كان الحجّاج الشاميّون ساقطين. وكانت الجمال كلّها سائبة خلال الطريق بشكل لا يمكن وصفه.

وفي منتصف تلك اللّيلة قام الحجيج الشاميّون بالطّبخ، ثم تحركنا وقت أذان الصبح، وبقىَ الحجيج كلّهم على الأرض. هذا المنزل الذي يُعرَف ب (أبو زجاج) (١)، ويُقال (بئر قچي) و (شيخ علي) كذلك، ويقولون: إنَّ أهل هذه القرية كلّهم من الشيعة، هذا المنزل تكثر فيه النخيل، وفيه قناتان أو ثلاث للماء الجاري أيضاً...

قضت القافلة أربع ساعات على هذا المنوال، لقد تحمل الحجّاج المساكين الكثير من الأذى على يد هؤلاء الجمّاليين، كان لابدّ من الإتيان تدريجيّاً بالجمال السائبة، ثم ركبوا. تحركنا من منزل اليوم وهو (بئر قچي)، وقطعنا الطريق كلّه خلال الوديان. كان هناك قليل من الاماكن العامرة، وهناك الكثير من النخيل على سفوح الجبال، كما كانت فيها مياه جارية جيّدة. مما جعله مكاناً لطيفاً وجميلًا جداً. الخميس، السادس من الشهر، لأربع ساعات مضينَ من اللّيل، وصلنا منزل (بئر قچي) وكان الماء يخرج من تحت أرض قچي. وفي الساعة الثامنة تناولنا الطعام ثم نمنا. وعند انبلاج الصبح، تحرّك الحجيج الشامي وكان السّيدصاحب السّمو حسام السلطنة دام اقباله العالي قد تحرّك معهم، وبقي هُنا الأمير ابو النصر ميرزا (٢) مع متاعه. بعد انقضاء ساعتين من النهار، ذهب أحد الحجّاج إلى بستان

١- ١ هكذا في الأصل.

٢- ٢ ابو حسام السلطنة.

ص: ٢٠٥

كان هناك لكى يأتينا بالأنباء، ولحقه بعض المسلمين إلى المكان المشار إليه فوجدوه وقد أُخذ كلّ شىء عنده فبادروا لإنقاذه منهم ومما يعانى من الآلام، وعلم أنه لو لم يذهبوا هناك لقُتِلَ المشار إليه. تصوروا إلى أىّ حَدّ وصل الحقد والعداوة عند هؤلاء ضدّ (الشيعة)، اذ لم يتورّعوا حتى عن قَتْل مساكين كهذا الحاج!

أربع ساعات مضينَ من يوم الخميس، ركبنا من منزل (بئر قچى) وسِرنا.

مع حساب هذا اليوم بقىَ لنا منازل ثلاثة أُخرى حتى المدينة المنوّرة. هذا هو منزل (بنى الحرين). قَسَمَ اللَّه الرحمن لنا الوصول بسلامة وبركة إلى تلك المدينة المباركة والتّشرّف بها وزيارتها. مضت أربع ساعات من ليلة الجمعة من محرّم، وصلنا منزل (خيام). اسم هذا المنزل كما يبدو هو (عكّام)، فاذا وُجِدَ هنا أىّ غلط أو اشتباه فالمُقَصِّر فى هذا هو الرّاوى.

صباح الجمعة السابع من محرّم ١٢٩٨، تحرّكنا بعد طلوع الشمس، ولساعة ونصف الساعة بقيت للغروب، نزلنا لأداءصلاة الظهر والعصر، ومع كون الصحراء كلها مملوءة بالأشواك، إلّاأنّهاصحراء نابضة بالحياة والجلال إلى حَدّ لا يوصف. وقد كانت هناك بعض الاشجار التى لا تحتوى أوراقها على الاشواك، فسألنا عنها، قالوا: هى أشجار يخرج منها الصّمغ فيصنعون منه دهن البلسان.

كان جذع البعض منها سميكاً جدّاً، ولها أوراقصغيرة خضر كأوراق الصَّعْتَر.

وعلى مسافة نصف ساعة أُخرى من المسير، وجِدَتْ بئرٌ وأشجار النخيل تملأ المكان فى الصحراء. ويبدو أَنّنا سنصل إلى المنزل الآخر بعد انقضاء أربع ساعات من اللّيل. على أى حال فإنّ هذه الجِمال الضعيفة المُتْعَبة وكلاب الجمال السود هذه سارت ببطء شديد جدّاً حتى أنّنا وصلنا إلى الحجيج الشامى بعد أذان الصّبح، وكانوا على وشك التحرّك. لقد ظلّ الناس المساكين جالسين فى محفّاتهم عشرين ساعة كاملة. أعانَ اللَّه المساكين السائرين مَشْياً حتى وكأنهم أوشكوا على الهلاك. وحتى نَصْب الخيام، تكون الصلاة قد فات وقتها. مَنَّ اللَّه على القُنصل

ص: ۲۰۶

بشيء من الإنصاف حتى لا يجعلوا الحجيج رَهن هؤلاء السُّود الذين لا يفقهون حديثاً، وهذه الجمال النحيفة.

إنَّ منزل هذا اليوم، السّبت، الثامن من شهر محرّم، يُقال له (بئر ماشی)، ويبدو أنّه بقيت هناك ستّة فراسخ إلى مدينة الرسولصلی الله عليه و آله. وفّقنا اللَّه تعالى لنكون فی المدينة ليلة العاشر من المحرم ذكرى استشهاد الإمام الحسين وأهل بيته وصحبه.

مَضَتْ أربع ساعات من ليلة الأحد التاسع من محرّم الحرام ۱۲۹۸، تركنا (بئر ماشی) راكبين ثم سرنا، اللّيلة هی ليلة التاسع من المحرم، وعند وقت فريضة الصبح وصلنا مسجد (الشجرة). وأقمنا فريضة الصبح فی مسجد الشجرة ثم ركبنا ثانية. ولما سِرنا بعض الشیء، جاء المستقبلون مُصطحبين معهم خَيّالة، فاصطّف العسكر جميعاً، وكانوا يعزفون الموسيقى. ويؤدّون (الهوسة) مع أنَّ هذه الليلة هی ليلة عاشوراء، لم يكن من المناسب ولا من اللّائق أن تُعزف هذه الألحان...

المدينة المنورة:

وبعد أن سرنا شوطاً، بانَتْ لنا قبة الحرم المبارک وهی قبّة خضراء، مع منائر الحرم كذلك. وبعد شكر اللَّه وحمده الذی جعل هذه النعمة العظيمة من نصيب هذه الأمة، أدّيتُ سجدة الشّكر.

مضت أربع ساعات من يوم الأحد، التاسع من محرّم، حيث دخلنا المدينة المنوّرة، فنزلنا قُرب الحرم المبارک فی بيت المؤذّن (الذی هو الخطيب كذلک)، وسكنا فی الطابق الأعلى الذی يطلُّ على بستان وعلى جبل أُحد كذلک، يالِصفاء المدينة وطيب هوائها! الحقيقة أنّها كالجنّة! إنَّ لهذه الجبال جَمالًا يَسلب لُباب البَشر! وبما أنّ الوقت الآن هو الشتاء فإنَّ كلّ شیء سينضُج؛ من أمثال الباقلاء والباذنجان والخُضَر كذلک والشبيه بالزّمرّد.

وبعد دخولنا المنزل تناولنا الغداء، ثم اغتسلت، وتشرّفت بعدها بالحرم المبارک. فقبّلتُ الضريح المبارک، وقرأنا الزيارة، ومن ثَمَّ تشرّفنا بحرم البقيع وزُرنا

ص: ٢٠٧

ثم رجعنا أدراجنا. فى الليلة الأولى تشرّفنا بالحرم المبارك عن طريق باب الرّحمة.

وبعد قراءة الزيارة قضينا فى الحرم المبارك أربع ساعات مضين من اللّيل. كانوا قد أناروا جميع المنائر. وكانت تبدو جذّابة للناظر اليها من الزّقاق. إنَّ تلك المنائر التى كانوا قد أناروها هى على شكل ثلاث طبقات، وهناك ثمانى منائر وفى كلّ طابق منها بالطّبع يضىء مئتا مصباح. وكانت تضىء الحرم المبارك كذلك مصابيح كثيرة.

وكانت أصوات هذه المنائر تُسمع من البيوت أيضاً. وكذلكصوتُ عَزْف عالٍ.

وفى الحرم المبارك بعدصلاة العشاء مقابل مسجد النساء أمام منزل خواجات الحرم، جَلَسَ جمعٌ من الناس فى حلقة ذكرٍ. ومجموعة أخرى كذلك مقابل الحرم المبارك كانت مشغولة بالذّكر أيضاً، وكانوا يردّدون (لا إله إلّااللّه) بلحنٍ جميل. والحقّ أنَّ ذلك المنظر كان ممتعاً للنّاظرين. لقد كانوا يردّدون هذا الاسم المبارك بطريقة متواصلة بحيث ينقطع نَفَسَهم فيغشى عليهم ويسقطون على الأرض، وكان الآخرون من جماعتهم يمسحون أوجههم ورؤوسهم من عَرَق أولئك المغشى عليهم للتبرّك. وكان يُوجد فى الحرم المبارك مقابل الضريح المبارك مَحْمَل رسول اللّهصلى الله عليه و آله ومحمل آخر.

صباح يوم الاثنين الذى كان يوم الاستشهاد أى يوم عاشوراء، بعد أن تشرّفنا بزيارة الحرم المبارك وقراءة الزيارة وزيارة عاشوراء، ركبنا العربة وتشّرفنا بمرقد (حمزة). وزُرنا المكان الذى تُحفظ فيه الأسنان المباركة، ومن هناكصعدتُ إلى الأعلى وزُرْتُ باقى الشهداء حتى وصلت قريباً من الجَبَل حيث يوجد مسجدٌصغير وله محرابٌ كذلك. فدخلنا وصلّينا ركعتين. فى هذا الجبل توجد شجرة نابتة من بين الصخور، وقيل: إنّها انزلت على خاتم الأنبياء. فصعدنا قليلًا حتى وصلنا إلى شقّ الجبل. وهناك أيضاً أدّينا الزيارة ورجعنا.

ليلة الثلاثاء، الحادى عشر من شهر محرّم الحرام ١٢٩٨ دخلنا من باب الرّحمة، وتشرّفنا بزيارة الحرم المبارك، وقرأنا زيارة النبيصلى الله عليه و آله والصّديقة الطاهرة

ص: ٢٠٨

فاطمة الزهراء- سلام اللّه عليها- وجئنا قرب عمود التوبة وصلّينا وقرأنا كذلك الدعاء الخاص بالعمود ورجعتُ.صباح الثلاثاء، الحادى عشر تشرّفنا بالحرم الشريف من باب جبرئيل. وبعد الزيارة جئنا إلى (بيت الاحزان). وأقمنا مجلس العزاء، وبعد الاستماع إلى ذكر المصيبة... قرأنا زيارة السيدة فاطمة بنت أسد فى مكانين، الأول فى البقعة التى تقع خلف البقيع، والشيخ أبو سعيد مدفون هناك كذلك، فقرأنا الزيارة، والثانى فى الحرم المبارك للإمام الحسن عليه السلام، وقرأنا زيارة السيدة فاطمة بنت أسد- سلام اللّه عليها- ورجعنا إلى البيت، وبعد تناول الغداء تشرّفنا بزيارة عبد اللّه عليه السلام والد الرسول الأكرمصلى الله عليه و آله. قرأنا الزيارة ثم رجعنا.

ليلة الأربعاء، الثانى عشر من شهر محرّم، بعدصلاة العشاء، تشرّفَ السادة بزيارة الحرم المبارك، وبعد زيارة سيدنا خاتم الانبياءصلى الله عليه و آله والصّديقة الطاهرة عليها السلام رجعنا إلى البيت.صباح الاربعاء تشرّفنا بالدخول إلى الحرم المبارك من باب جبرئيل، ومن هناك ذهبنا إلى البقيع وقرأنا زيارة أئمة البقيع. ورجعتُ إلى المنزل.

صباح الخميس، الثالث عشر من محرّم تشرّفتُ بزيارة الحرم المبارك عن طريق باب جبرئيل، وبعد الزيارة ذهبت إلى البقيع وزُرت أئمة البقيع عليهم السلام وعند الرجوع، رأيت الحجّاج خلال الزّقاق وقد وصلوا حديثاً، فجئتُ إلى البيت.

وفى ليلة الجمعة الرابع عشر، وبعد الصلاة، تشرّفتُ بالدخول إلى الحرم الشريف عن طريق باب السلام، فقرأت زيارة خاتم الرّسلصلى الله عليه و آله والسيدة الصديقة الطاهرة عليها السلام ثمّصلّيت بالقرب من عمود أبو لُبابة، ودعوتُ هناك ثم رجعنا...

صباح السبت، الخامس عشر من الشهر، وكالعادة تشرّفتُ بزيارة الرسول الكريمصلى الله عليه و آله والصدّيقة الطاهرة عليها السلام، وبعد الزيارة رجعت إلى المنزل، ليلة الأحد وليلة الاثنين وليلة الثلاثاء الثامن عشر كذلك كنت كلّ يوم وكلّ ليلة- بحمد اللّه تعالى- أتشرّف بزيارة الحرم المبارك، وعندما نقلوا مَحَفّة النبيّصلى الله عليه و آله ومحفّة عائشة، لم يسمحوا كالعادة للحجاج الفُرس من الاقتراب من الضريح المبارك وذلك حتى

ص: ٢٠٩

الساعة الرابعة. والعجب أنَّ هؤلاء الاشخاص الذين لا يتورّعون ولا يحتاطون من أيّ شكل من أشكال النجاسة، لكننا نرى معزهم متروكة وسائبة في الأزّقة، وفي الليل تذهب هذه الحيوانات إلى بيت مالكها دون أن يفكّر أحد في سرقتها.

السّير نحو جدّة:

لقد تقررَّ أن يحرّك الشريف الحجاج القادمين عن طريق البحر يوم الثلاثاء.

فحُملت الأمتعة ثم توقّفت العملية. وصباح يوم الاربعاء السابع عشر من محرّم الحرام، وبعد مضيّ خمس ساعات على القافلة، تحركن من المدينة المنورة وبعد مشقّة وعناء كبيرين استطعنا اجتياز الأزقّة والأسواق. وكانوا يوقفوننا في كلّ تحرّك مطالبين بالإتاوة. على أي حال خرجنا من المدينة، وتوقّفنا خارجها لكي يلحق الحجّاج بعضهم ببعض.

ليلة الاربعاء الثامن عشر من الشهر وهي الليلة الأولى من ليالي منتصف الشتاء توقفنا خارج المدينة. وفي الواقع الجوّ هنا يشبه جوّ الربيع وهو مُنعش كثيراً. إنَّصحراء وجبال المدينة شبيهتان بالجنّة، نسأله تعالى أن يمنّ علينا مرّة أخرى بأن نأتي ونتشّرف بتقبيل عتبة ضريح هؤلاء الأعاظم بحقّ أولئك الاشراف المدفونين في هذه البقعة. إنَّ قُبْلة واحدة على العتبة الشريفة أنستنا كلّ مصاعِب الطريق والجمّالين السود.

صباح الأربعاء، ركبنا من خارج البّوابة، كان الهواء متغيّراً قليلًا. وبعد مضي قليل من الوقت، بدأت السّماء تمطر. وأمّا السادة الأشراف الذين كان أهل الحاج قد أكروا منهم الجِمال. فقد ذكروا أنّهم لم يصلهم شيء من السيد حسام السلطنة، ولم يدفعوا نصف الاجرة ورحلوا عن طريق الشام، وعلى هذا قالوا: إنّنا سنمنع هذه الأميرة من الرحيل، وسنحتجزهم في المطر حتى نأخذ مئة تومان. فجاءوا ومنعونا من السّير فقيل لهم: لِمَ تمنعونا من السير؟ فأجابوا قائلين: يُريدون اتاوة.

فقال رجالنا: لقد دفعنا كامل الأجرة، وأعطينا خلْعَة كذلك. فأجاب المؤجرون:

ص: ٢١٠

لقد أعطيتم الاجرة إلى محمد الكائنى (١) وليس لنا. ورأيت الوضع سيّئاً، فقلتُ لرجالنا: ارجعوا إلى المدينة إلى الوالى هناك وأنهوا المسألة مع الحكومة، واللّعنة على هؤلاء، سأذهب مَع حُجّاج جَبَل. سأعطى هذا الوصل إلى والى المدينة ليأخذ النقود من الشريف. فلمّا رأى أولئك أنّ هذه الأرض لا تقبلُ بذرهم، ولا مكان لحيلهم ومكائدهم، جاءوا يتوسّلون، فذهب كلّ الحجّاج الشيرازيين و «نصير المُلك» والآخرون جميعاً، فظلّت جِمالُ الشريف هذه التى أكراها لنا. وبعد المسير اشتدَّ نزول المطر، وأثناء سيرنا،صادفنا نهراً أمامنا، ولم يكن باستطاعة الجمال عبوره. فغيّرنا الطريق، ومعنا أحد الاشخاص يدعى (كامل أفندى)، وهو يقول:

إننى لستُ خادماً لإيران بل إنَّ القنصل ترجى منى أن ارافِق الحجّاج. إنّه رجل شاطر ولبيب. ولما غيّرنا مسيرنا قليلًا،صادفنا مجرى نهر آخر قد تكون من أثر الفيضان. لا مناص من عبور النهر، مع أنَّ المياه تكاد تجرف معها الجمال. ومع مشقة وعناء كبيرين اجتزنا النهر، وحتى ساعة ونصف بقى من الوقت للغروب، كان الرّعد والبرق لا يزالان يقصفان، وكان الهواء كذلك ضَبابيّاً، ثم طلعتِ الشّمس، أقمناصلاة الظهر والعصر ثم ركبنا. بحمد اللَّه تعالى وصلنا المنزل بسلام مع أنَّ عددنا كان قليلًا، أى نحن وخدَمُنا وسط هذه الصحراء والجبال. ولما وصلنا (قبة الرود)، كانت قد مضت من الليل ثمانى ساعات. بعد الوصول ونَصب الخيام، جاءت عيال عبدالحسين خان قائد اللّواء للاعتذار قائلة: إننا لم نكن نعلم.

فأجبتُها قائلة: بحمد اللَّه سار كلُ شىء بسلام، لكن ما كنتُ أعلم أنّ شخصاً مثل نصير الملك إلى هذا الحد يكون مقصّراً، حيث يترك العسكر ويذهب تاركاً القافلة دون أن يكلّف فيها حتى أربعة مسلّحين ليكونوا برفقتها، فيبعث قائلًا: إن شاء اللَّه ينتهى هذا الأمر بخير.

مضت خمس ساعات من يوم الخميس العشرين من محرّم الحرام تحرّكنا من منزل (قبّة الرود)، ومع أنَّ السماء غائمة، إلّاأنّه لا يوجد مطر، وبعض الأماكن

١- ١ ربّما كان المقصود «الكاتبى»

ص: ۲۱۱

اكتست أرضها ببساط أخضر كالزّمرّد.

مضت تسع ساعات من ليلة الجمعة، الحادى والعشرين من الشهر، وصلنا الى منزل (بيراية). كان فيها بعض المنازل، وقد شوهد فيها كذلك بئر ماءٍ وغنم وماعز. ست عشرة ساعة، سرنا خلالها ستة فراسخ، بسبب رداءة جِمال آل حرب هذه وبطئها فى السّير. فى يوم الجمعة، الحادى والعشرين، بعد مضىّ ستّ ساعات على القافلة، ركبنا. إنَّ طريق اليوم كلّه أودية وجبال. وتوجد بعض الممرات الضيقة التى اصطدمت المحفّات والهوادج بجبالها. وليس هناك جمال تسير.

تصوّروا أنَّ قطاراً من النّمل يسير. لقد اصبتُ بنزلة شديدة وبدأصدرى يُؤلمنى كذلك. وبقيتُ مستلقية فى هودجى فى حالة رديئة لا توصف.

كانت هناك الكثير من الأحمال تُنْقَل من (ينبع) إلى (المدينة)، وبعض الحجّاج الذين قدموا عن طريق البحر والذين نفدت نقودهم، ظَلّوا فى مكة المعظمة. واليوم شوهدوا يأتون عن طريق ينبع للتشرّف بالذهاب إلى المدينة. كانوا قد ذهبوا من مكة إلى جدة، وعادوا عن طريق ينبع.

فى ليلة السبت، الثانى والعشرين من الشهر، بعد مضىّ ستّ ساعات من اللّيل وصلنا إلى منزل (بئر خلع)؛ يوم السبت، لخمس ساعات بقين للغروب، تحركنا من منزل (بئر خلع)، وفى الليل حيث لم نصل إلى المنزل بعد، سمعنا أصوات اللّصوص من جهاتنا الأربع. بعد ذلك عُلِمَ أنّه وخلال الطريق، سُرِق هِميان ابن الحاج عبدالهادى الاسترآبادى الذى يشتغل بالتجارة فى بغداد، سُرِق من تحته معصرّة ثيابه. كانوا يقذفون الحجارة نحو طاس المشعل الامامى لكى يطفئوه، حتى يتمكّنوا من الولوج داخلصفوف الحجيج. وتشبه هذه العملية إلى حَدّ بعيد تلك التى ينقلونها عن حسين كُرْد فى الكتب.

هذه الليلة وبحمد اللّه تعالى وصلنا بسرعة إلى المنزل. اسمُ هذا المنزل هو (بئر الحسان). وتقتصر العمارة هناك على بعض الآبار وبضعة منازل ودكّان أو اثنين،

ص: ٢١٢

ولمّا ذهب الحجّاج المساكين ليأخذوا قسطاً من الراحة، عَلَتْ أصوات تقول:

لصوص، لصوص. لقد سرق اللّصوص ابّالة من حِمْل حسن خان نامى من أهالى شيراز، وأراد أن يُظهر شيرازيّته هُنا إذْ خرج فى منتصف الليل يقفو أثر اللّصّ فضُرِبَ على امّ رأسه بالنّبوة وعادَ ورأسه كان مشدوخاً. وقد تبيّن أنَّ اللّصوص قد سرقوا الكيس الذى كان فيه مقدار من الرّز والطحين معصُرّة ثيابه. وأمّا ما بقى له فهو رأسه المكسور.

ولأننا قد وصلنا إلى المنزل بسرعة، وبعد مضىّ ساعة على طلوع الشمس، تحرّكنا من منزل (بئر الشيخ) وبدأنا فى السّير.

إنَّصحراء اليوم عبارة عن أرض مُنبسطة لا ماء فيها ولا كلأ. إنَّ هذين المنزلَين، أى بئر الحسان وبئر الشيخ، لا يوجد فيهما ماءٌ حَسَن، فطعمه غير مُستساغ، وهو مالح المذاق كأنّه يحتوى على الزرنيخ. والمنازل التى فى طريق مكة المشرفة كلّها كانت فيها مياه، وكان الماء فيها عذب طيّب. فلا معنى لأىعاقل يسلك غير هذا الطريق ويترك العسكر، ويُسلّم عقله إلى الجمّال. ما أُريدُ قوله: إنَّ الأسف والنّدم على الماضى لا يؤدّى إلى نتيجة. إنَّ الظنَّ باللّه المتعال هو أن تَنْقَضىَ الأيام القليلة الباقية بسلام كذلك.

مضت أربع ساعات من يوم الاثنين، الرابع والعشرين من محرّم، وصلنا إلى منزل (مستورة). وانفصلت قافلة هندية قبل ساعتين أو ثلاث عن الحجاج الفُرس حتى وصلنا. وارتفعصوتٌ من جهة الهنود. فعُلِمَ أنَّ الصندوق الذى يحتوى على الأوراق والمستندات وسبعمئة ريال فرنسى قد سُرِق.

الهواء فى هذه الليلة بارد بحيث يميل المرء فيه إلى ارتداء اللّباس وإشعال النّار.

بعض الاشخاص من أمثال الشريف وأخيه وكامل افندى وبضعة افراد آخرين، ومنذ رحيل السّيد حسام السلطنة هُم فى خيمة الخَدَم. من الليل حتى الصباح هم مشغولون بشُرب الشّاى والشّيشة. وهناك أفراد يتناوبون فى الحراسة. وقرّروا فى

ص: ٢١٣

الصباح أن يتحرّكوا لساعتين بقيتا للغروب؛ لكي يصلوا إلى المنزل الآخر وقتصلاهٔ الصبح، على أساس أنّه لو حدث نقصٌ فى الأحمال أثناء اللّيل فإنَّ الجمّال سيتحمّل المسؤوليهٔ، هذا فى الوقت الذى كان قد سُرِق كيس ابن الحاج عبدالهادى من على دابّته، ولم يُعَوّضه أحد عن ذلك.

الماء فى (مستورهٔ) مُرٌّ إضافهٔ إلى كونه مالحاً، وقد كان طعم العشاء مُرّاً، فلم يكن هنالك بُدٌّ من ذلك إذ قلتُ لهم: بأن يتناولوا الغداء ويصلّوا صلاهٔ الظهر والعصر وأن يركبوا بعدها.

أربع ساعات بقينَ للغروب، فى يوم الاثنين، الرابع والعشرين من محرّم الحرام، ركبنا من منزل (مستورهٔ) وسرنا نحو منزل (رابغ).صحراء هذا اليوم عبارهٔ عن أرض منبسطهٔ كذلك، وكلُّ تحرّكنا من المدينهٔ إلى الآن هو باتّجاه القبلهٔ.

فى النهار مع كون السّماء غائمهٔ، إلّاأنّه مضت بضعهٔ أيام من الجدى. مُقدّم الهَوْدج مائل إلى الأرض. مع أننا لم نرتدِ إلّاواحداً، فالعرق يجرى من جسمنا.

عند وقتصلاهٔ المغرب نزل الحجيج يقيمون الصلاهٔ، ثم ركبوا، وبعد مضىّ ثمانى ساعات من ليلهٔ الثلاثاء، الخامس والعشرين من الشهر، وصلنا الأرض النَّخالهٔ فى (رابغ). بسبب وجود المياه أمامنا تعطّل الحجّاج. فتح الجمّالون السود البُلَهاء قيود جِمالنا وتركوها ترعى حوالى ساعتين ونصف فى الصحراء. لقد ذهبوا فى جميع الجهات إلّاأنهم لم يجدوا طريقاً سالكهٔ. وبعد مشقهٔ وعناء اجتزنا الحاجز المائى وحتى تمكّنوا من إيجاد الطريق ونصب الخيام،صار وقتصلاهٔ الصّبح. أقمنا الصلاهٔ وشربنا الشّاى.

فى يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شهر محرم، بقينا فى (رابغ) ليلهٔ الأربعاء السادس والعشرين، ووقت طلوع الشمس، وفى يوم الأربعاء، السادس والعشرين، ركبنا من المنزل المذكور. ولساعتين بقيتا للغروب نزلنا لأداء الفريضهٔ، وبعد أداء الصلاهٔ، نزلنا. وبعد مضىّ ساعتين من اللّيل، سدَّ الجمّالون

ص: ٢١۴

الطريق قائلين نُريد أن نفرّغ الحمولة. أرادوا أن يمنعوا ذلك. وبدأوا يخادعون مدّعين أنّهم ضلّوا الطريق. على أى حال فأىّ شخص له ذرّة من العقل والإحساس لن يُسلِّم نفسه بيد جمّالين سود مجانين كهؤلاء. الحقّ أنَّ الكُتب التى ألّفها الناس حول ذَمّ وإهانة طريق الجبل هذا، التى تخيف كلّ من يقرأها لا تخلو من الصّحة والحقيقة.

وفى أثناء الطريق انْتُزِع الهِميان الذى كان تحتصاحبه فى الهودج بعد قطعه. كانصاحبه المسكين يحِسُّ بأنَّ الهودج مائل، إلّاأنّه اعتقد أنَّ الجمّال يحاولُ شدَّه وتسويته. ثم عُلِمَ أن طرفاً من الكيس كان قد سُرِق. والعجب من أنَّ الدولة تعلم عِلْمَ اليقين كلَّ ما يجرى من مَذلَّة للحجّاج. وإذا ما تَمَّ تقديم شكوى أو احتجاج نتيجة ذلك، لا وجود للعدل هناك. الواقع أنَّ مجموعة من الحجّاج ظَلّوا أسيرى هؤلاء الغلمان السّود وتحت رحمتهم. كلّما واجَهَ الحجيج مشكلة فى طريق «جبل»، كانَ يوجد على الأقل شخص ما، يمكن سؤاله والحصول على الجواب منه.

على أى حال، بعد مضىّ عشر ساعات من ليلة الخميس، السابع والعشرين من الشهر، وصلنا منزل (قطيمة)، وتوقفنا نهاراً، ولثلاث ساعات بقين للغروب من يوم الخميس، السابع والعشرين، تحرّكنا من المنزل المذكور، وفى الساعة السادسة من اللّيل، أوقف الجمّالون الحجيجَ خلال الطريق قائلين: لقد ضلَلْنا الطريقَ. وبعد أن أبدوا قليلًا من الخداع تابعوا السّير، ولمّا ساروا مقداراً من الطريق، تجمّعوا كذلك وعلاصوت الصياح والضوضاء. قال أحدهم: هوذا بحر! وصاح الآخر: إنّه مُستنقَع! وبعد مدّة من التّأخير، عُلِمَ أنّه هو قليل من ماء المطر.

كان أحد المسؤولين عن المشاعل قد تأخر فى إيصال المشعل. لقد مُزِّق الهميان من تحتنا كما يظهر، وقد سُرِقَ ما كان فى الهيمان. كان قد بقى فرسخٌ واحدٌ حتى منزل (خيط) عندما اوقِفَ الحجيج قائلين لقد ضَللنا الطريق، يجب أن نتوقّف هنا. كلّ

ص: ٢١٥

الحجّاج اجتمعوا، أرادوا أن يُصرفوا هؤلاء الغلمان السود الأربعة عن ذلك، فلم يكن بالإمكان فعل شيء. فكان لابدّ من النزول. لم يكن هناك قدْر يكفى من الماء حتى للوضوء للتّهيؤ لصلاة الصبح. وبعد مشقة وعناء كبيرين أقمنا الصلاة على أى حال، ثم ذهبوا على بعد فرسخ وجاءوا بماءٍ وَحل وسخ كثيراً تسبح فيه كلّ أنواع الجراثيم. يالَها من مصيبة تلك التى يصبّونها على رؤوس الحجيج! الواقع أن ذلك لا يمكن تدوينه هنا.

فى يوم الجمعة، الثامن والعشرين من الشهر، قضينا الوقت فيصحراء لا اسم لها، ولأربع ساعات بقينَ للغروب من اليوم المذكور تحرّكنا وبدأنا المسير، لنرى ما سيحصل هذه اللّيلة، هل سيوصلون الحجّاج المشدوهينَ إلى جَدّة أم أنّهم سيختلقون لُعبة أخرى فى هذه الصحراء. بعد مضىّ ساعة واحدة من الغروب، نزلنا لأداءصلاة المغرب. وبعد أداء الفريضة ركبنا، وفى الساعة السادسة، سُمِعَصوتصياح يقول: إنَّ البعير قد سُرِقَ مع حِمْلِهِ. فخرجوا لاقتفاء الأثر، فلم يجدوا فرصةً لسرقة الجَمَل اذْ تركوه فى البرية وهربوا، وكان الصندوق ملكاً للحاج ميرزا محمّدجِهْر الحاج محمّدصادق الأصفهانى التاجر المعروف. تحرّكت هذه الجِمال وسارت كَسَيْر النملة من الليل حتى الصباح. لأجلصلاة الصبح نزلنا أرضاً جميلة، فيها كلّ أنواع الورود والزروع، وكان يكثر فيها الخطمى الوردى والزّهور الصفراء. كانت الصحراء كالزمرد الأخضر بعد طلوع الشمس. ومع أنَّ الأرض هنا رَمليّة، فإنّه بقدرة اللَّه نَبَتت كلّ هذه النباتات من خلال قطرتَيْن.

ويبدو أنَّ المطر لم يهطل فى هذه البلاد منذ أربع سنوات، والحمد للَّهفإنّه بسبب قدوم الحجّاج الميمون هذه السّنة هطلت أمطار كثيرة مفيدة.

بقيت أربع فراسخ حتى مدينة جدّة، جاء القُنصل للاستقبال. وقد أصرَّ كثيراً علينا للذهاب إلى القُنصلية. ولأنه لم يكن لديه عيال (زوجة) فلهذا السّبب لم أذهب. لقد أبدى منتهى الأدب.

ص: ٢١٦

في جدة:

مضت ستّ ساعات من يوم السبت، التاسع والعشرين من محرّم الحرام سنة (١٢٩٨)، وصلنا مدينة جدّة. لقد نزلنا في طابق علوى من بيت حيث يُشاهَدُ البحر كلّه. هذه الليلة الوابور (السفينة البخارية) واقفٌ على البحر دون حراك.

ليلة الأحد، غرّة شهرصفر المظفّر (١٢٩٨) رأينا الهلال من السطح، وحمدنا اللَّه لكوننا سالمين لحدّ الآن! نتمنّى من حضرة البارى سبحانه أن يحفظ أرواحنا وتنجو من هذا البحر العظيم. يَعلم اللَّه أين سنكون غرّة ربيع الأول.

«اللهم اجعل عواقب امورنا خيراً بحقّ محمّد وآله».

صباح يوم الأحد، غرّة شهرصفر، جاء الحاج عبد اللَّه ديرباج بالباخرة وقال: هذه السفن البخارية ليست جيّدة، فعلى الحجّاج أن يتوقفوا هنا عدّة أيام حتى تصل سفينة جيّدة أخرى. في كلّ عصر كنتُ أنظر إلى البحر بالمنظار. هذا هو تقدير اللَّه، فأين أنا من جدّة والتفرّج على البحر؟! في الحقيقة أنّ الانسان يجهل عاقبة اموره أين تؤول. لحدّ اليوم وهو يوم الثلاثاء، لم يكن أثرٌ للسفينة. في حين لا تزال السفن البخارية السبع مرابطة في مكانها السابق في البحر.

إنَّ بيوت جدّة كبيوت مكة المعظّمة. هذا المنزل الذي نسكن فيه حالياً، فيه ثمانون درجة سُلّم من الأسفل حتى السطح، والى هذه الغرفة التي نقيم فيها هناك أربع وستّون درجة. ليومين متتالين تهبّ الريح هنا. وما دامت هناك ريح فإنَّ الهواء بارد بحيث يميل الفرد إلى ارتداء السترة. وبمجرّد توقّف الريح، يصبح الجوّ حارّاً.

منذ اليوم الأول لدخولنا الجزيرة العربية، والذي كان في أوائل برج الميزان، وحتى الآن وهو الوقت الذي يقترب فيه من انتصاف الشّتاء، تُرى هذه الحالة في كلّ وقت وفي كلّ مكان. إلى الوقت الذي يكون فيه هناك نسيم، فالجوّ جيّد، وليس حارّاً، ومتى ما انقطع النسيم، فالجوّ يشبه جهنّم إلى حدّ كبير. والآن ومع هبوب النسيم ليومين متتالين، إلّاأنَّ الماء ما زالَ بارداً داخل الجرار. عجَّل اللَّه في مجيء الوابور

ص: ٢١٧

إن شاء اللَّه ووصوله. ما أجمل أن يعرف الانسان عاقبة الأمور! فبدل التأخير الذى تحمّلناه فى جدة، ألَم يكن من الأجدر أن نقضيه فى المدينة المنورة، التى هى فى الحقيقة جَنّة عامرة تجدّد الحياة والروح فى الإنسان؟! روحى فداك يا رسول اللَّهصلى الله عليه و آله: أناشِد اللَّه بحقّ ذلك العظيم أن يرزقنا التشرّف ثانية بزيارة ذلك الضريح المبارك الشريف.

عندما تحرّكنا من مكة المعظّمة باتّجاه المدنية الطيّبة، سلكنا طريق (فرع).

وأمّا أسماء المنازل المذكورة هى: وادى فاطمة، عسفان، قطيمة، رابغ، بئر رضوان، أبو عاع، ريان، قصير، بئر ماشى، المدينة الطيبة.

وأمّا الرجوع فكان عن طريق (السلطانى)، وذلك بحسب هوى الجمّالين والشّريف عديمى الإنسانية.

إنَّ الميزة التى كانت فى طريق (السلطانى) هى المرتفعات والمنخفضات التى فيه، إلّا أنّه من حيث الماء والجمال لا مقايسة بينه وبين طريق (فرع) على الإطلاق.

والمنازل التى مرّت بنا عند الرجوع من المدينة إلى جدّة عن طريق (السلطانى) هى: قبّة الرود، عار، بئر حسان، بئر الشيخ، مستورة، رابغ، قطيمة، خيط، جدّة.

إنَّ مدينة جدّة مدينة كبيرة؛ وهى أكبر من المدينة الطيّبة. وقد وُضِعَتْ سَبعة مدافِع متجهّة نحو البحر وقريباً منه. كان هناك كلّ أنواع المأكولات فى المدينة الطيّبة، فى حين لا توجد هنا إلّابعض الأشياء مثل النباتات الخُضريّة والنارنج.

وأمّا البرتقال والليمون فيوجدان بكمية ضئيلة فى السوق. وبالنسبة إلى الخيار الأخضر فهو على عدد الأصابع. وان كان لا ينفع الندم ولا الحسرة، إلّاأنَّ التأخير هنا لو كان فى المدينة لكانت تلك نعمة جزيلة. ما أسوأَ أن نتوقّف قرب منزل واحد عن مكة المعظمة ولا يكون بالإمكان التشرّف بها...!

إنَّ ما يحزّ فى نفسى هو أن أكون فى منزل قرب مكة المعظمة ولا نُسْعَدُ بالتشرّف بزيارة الحبيب مرة اخرى. لَمْ يبدِ المرافقون أىّ هِمّة أو جدارة وإلّا كنّا

ص: ٢١٨

تشرّفنا بالزيارة. على أيّة حال، الآن أنا تحت رحمة طابق علوى فى جدّة...

نحن بانتظار الوابور كلّ يوم. لقد توقّف العمل فى وابور الحاج موسى بسبب عدم رغبة الحجيج إليه، فكانت الأجرة فى بداية الأمر ثلاثين ريالًا وأربعين ريالًا للشخص الواحد، والآن وصلت الاجرة إلى خمسة عشر ريالًا واثنى عشر ريالًا كذلك. ولأن الحجّاج تأخروا فى جدة طويلًا، لم ينتبهوا إلى الثالث عشر منصفر، حيث تحرّك فى يوم الخميس الثانى عشر منصفر (٨٣٠) شخصاً من الحجيج على وابور الحاج موسى. حفظ اللّه الجميع.

نحن الآن ما نزال مقيمين فى جدّة، حتى نرى ما يكون من التقدير المقدَّر، والحصول على إذن من أم البشر للرحيل. ومن فرط النسيان لحدَّ اليوم وهو الثانى عشر من شهرصفر، لم اتشرّف بزيارة جدّتنا (حواء)، والآن وبعد التحقُّق فى الأمر، ذُكِرَ أنّها قريبة من المنزل، فلم نجد بُدّاً من الذّهاب مشياً. وبينما كنّا نمرّ خلال الزّقاق، لَمحنا ساحة دارٍ ودهليز فَخْمَين كانا قد وُضِعَ فيهما كراسىّ ومقاعِد كثيرة، وقد وقف شيخٌ على باب الدار. فتقدّمنا وتفرّجنا ثم أردنا العبور. فأفهمنا الشيخ بالعربية أنَّ هناك أشخاصاً فى الداخل. ومتى أردتم التفرّج على الطابق العلوى، فذلك ممكن. وكانت معنا زوجة عبدالحسين خان قائد اللّواء، واخت سهام الدولة، ودخلنا إلى الطابق العلوى. كان الطابق العلوى قد دخل بعضه فى بعض.

وقد وضعوا المقاعِد هناك. كانت سيدة البيت وهيصاحبة البيت قد ذهبت فى زيارة خارج الدار. كانت هناك ابنتانصغيرتان وبعض الإماء الحبشيات الحسناوات. قال الشيخ باللغة العربية: تفرّجوا على كلّ مكان جيداً. كانت بنايةً فاخرة. كان فيها حمّام جميل من المرمر. وقد بَنَوا قبّة كذلك كما هو متعارف لدينا.

كانوا قد نصبوا زجاجاً. وهناك حنفيّة ماء بارد واخرى للماء الحار آيتان من الخارج. كان الحمّام فاخراً جدّاً. سألتُ الشيخ: أين مولاك؟ أجاب: فى السوق.

خرجتُ من هناك والمسافة طويلة حتى بيت الجدّة. والهواء حارّ كذلك. على

ص: ٢١٩

أيّ حال وصلنا. قبر أمّ البشر، السيدة حواء عليها السلام على هيئة أو شكل ميزاب سحب من طرفيه إلى الأعلى. وعند القدم توجد فتحة شباك حديدية، فقبّلنا وقرأنا الفاتحة، ثم طلبنا إذن الخروج. وتفصيل ذلك كما هو مكتوبٌ من قِبل السّيد العالى معتمد الدولة- روحى فداه- فى كتاب «يوميات السّفر إلى مكة المعظمة» (١). وهذه البقعة هى محل السُّرّة المباركة. هناك بقعتان اخريان كذلك بين تلك شبيهتان بقبر السيدة حوّاء حيث بُنِيَ حائط وعُمِّر المكان. ويبدو من الذى ذكره السّيد العالى فى كتابه اليوميات أن أحدهم هو قبر عثمان باشا والآخر هو أحد أقرباء عثمان باشا.

يالَهُ من عمل قبيح هذا الذى فعلوه حيث دفنوا آخرين مقابل جسد السّيدة! بعد الزيارة حصلنا على الإذن للخروج، ثم رجعنا.

بمجرّد الدخول إلى المنزل أخبرونا أنَّ الوابور قد وَصل، وإن شاء اللَّه سنذهب الى بوشهر. اليوم غادرَ وابوران وعادَ وابوران. وبما أنَّ اليوم هو يوم الجمعة والثالث عشر منصفر، فإنّه قد توقّفنا أربعة عشر يوماً فى جدة. ليس لدينا عملٌ إلّا الهمّ والغمّ. الهواء حارٌّ جداً منذ عدة أيام وليال، ومع ارتداء لباس واحد وفى مكان عالٍ يتمّ الوصول اليه بصعود ستين أو سبعين درجة، إلّاأن العرق يجرى باستمرار. الحمد للَّهعلى كلّ حال حيث هطل مطرٌ نافعٌ قبل وصولنا إلى جدّة، وإلّا لا أحد يعلم ما كان سيحصل من قلة المياه خصوصاً وأنّهم يقولون: إنَّ المطر لم يهطل هنا منذ أربع سنوات، وكيف كنّا سنتحمّل كل ذلك التأخير؟!

اليوم، الحجّاج الذين تأخروا عَنّا عندما كنّا نغادر المدينة، وهم كانوا ما يزالون يدخلونها، جاء بعضهم عن طريق (ينبُع) والبعض الآخر عن طريق (رابغ) فراراً. لقد أعطوا ألف ريال إلى مسؤول القافلة كإتاوة. وقد أخذ مسؤول القافلة الأموال وهرب. وفى (رابغ) سَدّوا الطريق أمام الحاج مطالبين إيّاهم بالإتاوة، وبما أنَّ هؤلاء الحجاج المساكين كانوا قد أعطوا أموالهم إلى مسؤول القافلة فقد أوقفوهم هناك، وهرب البعض الآخر. ويبدو أنَّ الحجّاج الذين جاءوا عن طريق

١- ١ تقصد «كتاب هداية السبيل» لفرهاد ميرزا.

ص: ۲۲۰

(ینبع) قد قابلوا الشریف فی (ینبع).

إنَّ الخُدَع التی أرادوا أن یمرّروها علینا أیام کنّا نخرج من المدینهٔ، فقد مَرّروها علی الحجاج المساکین. أنزل اللّه البلاء علی رأس شریف هؤلاء، ویقیناً أنَّ رسول اللّهصلی الله علیه و آله بریء من هذه الذریّهٔ. العجب کلّ العجب من هذه الطائفهٔ التی تقول: لا إله إلّااللّه ولا یتورّعون أو یحتاطون من أیّ شکل من أشکال النجاسهٔ، ففی نفس المکان الذی یتبوّلون فیه، یتوضأون علی الفور ویسیرون حُفاهً فیه.

هنالک أشیاء غریبهٔ تُشاهَد من هؤلاء. وقد بَنوا دورهٔ المیاه بشکل لا یمکن تحاشی ترشیش الماء علی الانسان. ومع عدم اکتراثهم وعدم تحوّطهم، فهم یدخلون حرم رسول اللّهصلی الله علیه و آله فی حین کانوا یمنعون الفُرس المساکین عن الحرم!!...

الهوامش:

زعماءُ مکّهٔ

ص: ٢٢١

زعماءُ مكّة

قاسم محمّد

نحاول أن نتحدث عن إلمامة تاريخية سريعة عن تاريخ الزعماء، الذين انيطت بهم إدارة مكّة المكرمة من أول الأنبياء آدم عليه السلام حتى خاتم الأنبياء محمدصلى الله عليه و آله. وعن المشاريع والتشريعات والأحداث التى حدثت لكلّ واحد من هؤلاء الزعماء والقادة. وقد تشرفت مكة فى هذه الفترة أن يكون من بين زعمائها مجموعة من الأنبياء عليهم السلام والصالحين من القادة؛ ولذا حظيت مكّة بأفضل الأنساب وأفضل القيادات، وصدرت منها أفضل التشريعات، حتى فى الجاهلية التى احتفظت ببعض الأعراف والتقاليد الجيدة وعندما جاء الإسلام أقرَّ الكثير منها، ثم إنّ الكثير من الأحداث التى حدثت فيها تعدُّ أحداثاً عالمية تأثرت بها معظم الأمم والشعوب، وتحدثت عنها الكتب السماوية المقدسة بما فيها القرآن الكريم، وامهات الكتب التاريخية المهمّة، وما حظيت مدينة فى العالم من الاهتمام كالذى حظيت به مكّة.

ص: ۲۲۲

أهمیة مکّة

تعود أهمیة زعماء مکة، إلی أهمیتها من الناحیة التأریخیه، والمعنویة والاقتصادیة.

الناحیة التأریخیة والخلاف فی قدم مکة

فمن الناحیة التأریخیة. فقد اختلف فی تأریخ مکة، هل کانت قائمة قبل إبراهیم علیه السلام ثم عرض علیها الخراب بعد ذلک فجدّدها إبراهیم وإسـماعیل علیهما السـلام، أم أنّ تاریخ بنائها وإنشائها یعود إلی إبراهیم علیه السلام؟ ذهب بعض أهل التفسیر وکتّاب التأریخ من المسـلمین إلی أنّها أسـبق من إبراهیم علیه السلام ویعود تأریخها إلی آدم علیه السلام، مستدلین علی ذلک بمجموعة من الروایات والأـقوال والأقاصـیص. فی حین ذهب الرأی الآـخر إلی أنّ هـذه الروایـات أخبـار آحـاد. والأقوال والأقاصـیص خرافات وإسـرائیلیات، وبعضـها یعتمـد علی مـا حرّف من التـوارة والإنجیـل، فلاـ مجـال للاعتمـاد علیهـا. وإنمـا المـتیقن أنّ إبراهیم هـو أول من بناهـا. کتـاباً وسنةًصحیحةً.

وبعضهم توقف عن الحکم. وقالوا: اللَّه أعلم؛ لأنّ العقل لا مجال له للحکم فی هذا الباب سلباً أو إیجاباً (۱).

دافع السید الطباطبائی (۲) عن الرأی القائل بقـدم مکـة: فقال فی معرض تعلیقه علی هـذه الأخبار «ونظائر هذه المعانی کثیرة واردة فی أخبار العامـة والخاصة وهی وإن کانت آحاداً غیر بالغة حدّ التواتر لفظاً أو معنی، لکنّها لیست معادمة النظیر فی أبواب المعارف الدینیة ولاـ موجب لطرحهـا من رأس» وفی موضع آخر أثناء رده علی الرأی الآخر: قال: «ما ذکره لا یخلو من وجه فی الجملـة إلّاأنّهُ أفرط فی المناقشة، فإنّ التناقض أو التعارض إنما یضرّ لواحد بکلّ واحد منها.

أمـا الأخـذ بمجموعهـا من حیث هی- بمعنی لا یطرح الجمیع لعـدم اشـتمالها علی ما یسـتحیل عقلًا أو یمنع عقلًا- فلا یضـره التعارض الموجود فیها، هذا بالنسبة لأخبار المعصومین (الأنبیاء والأئمة علیهم السلام)، أما غیرهم من المفسّرین فحالهم حال

۱- ۱ الکاشف، مغنیة: ۲۰۳ الهوامش.

۲- ۲ المیزان فی تفسیر القرآن، محمد حسین الطباطبائی ۱: ۲۸۵.

ص: ٢٢٣

غيرهم من الناس، وحال ما ورد من كلامهم الخالى عن التناقض حال كلامهم المشتمل على التناقض، وبالجملة لا موجب لطرح رواية أو روايات إلّاإذا خالفت الكتاب والسنة القطعية، أو لاحت منها لوائح الكذب والجعل» (١).

ويمكن إضافة بعض المرجحات التى تدعم هذا الرأى:

المرجح الأول: ما جاء فى الكتاب العزيز عند قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: (ربّنا إنّى أسكنتُ من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم) (٢)

فقول إبراهيم عليه السلام عند بيتك المحرم يدل على أنّ البيت كان قبل ذلك، إلّا أنّه دخل عليه الخراب. نعم هناك توجيهات اخر للآية كأن يقال: إنّ كلام إبراهيم عليه السلام هذا كان آخر عمره بعد بنائه للبيت الحرام. وبعدما سكنته جرهم.

وهذا يمنعه أن يكون دليلًا، ولا يمنعه أن يكون مرجحاً. وكذلك الكلام فى قوله تعالى: (إنّ أوّل بيت وضع للناس للذى ببكة) (٣)

فيمكن حمل الأول على أقدم بيت وضع للعبادة فى عصر آدم عليه السلام لا كونه أقدم من القدس كما فى بعض التفاسير.

المرجح الثانى: ما ورد فى خطبة القاصعة فى نهج البلاغة (۴). قال أمير المؤمنين: (ألَا ترون أنّ اللَّه سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم (صلوات اللَّه عليه) الى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذى جعله للناس قياماً؟) وفيهصراحة أن البيت وضع من لدن آدم عليه السلام.

المرجح الثالث: مرجح عقلى، وهو أنّ اللَّه سبحانه وتعالى بعد إخراج آدم من الجنة. لايعقل أنيتركه منغير أن يعلمه مراسم عبادية تناسب موقعه الجديد حتى يأنس بها ويروى غريزة العبودية للَّهتعالى. وعلى قول الشهيد الصدر رضوان اللَّه عليه: (۵) إنّ العبادة حاجة إنسانية ثابتة فى نفس الإنسان فى جانبها الحسى المعنوى.

والقبلة والحج من أبرز المظاهر العبادية الحسية والمعنوية. فما المانع أن يكون البيت الحرامولدمعآدم عليه السلام ليلبى تلك الحاجة. ونحن نعلم ما للحج من فضيلة وأثر فى هذا

١- ١ الميزان ١: ٢٨٨.

٢- ٢ ابراهيم: ٣٧.

٣- ٣ آل عمران: ٩۶.

۴- ۴ نهج البلاغة ٢: ١۴۶، الكافى ۴: ١٩٩.

۵- ۵ الفتاوى الواضحة: ۵٩٧.

ص: ۲۲۴

المجال؟! فقد ورد عن الباقر عليه السلام (۱): «لا زال الدين قائماً ما قامت الكعبة» وعن أبى عبدالله عليه السلام: «الحجّ أفضل من الصلاة والصيام».

وإنّ القرآن الكريم قرن ترك الحج بالكفر إذ قال تعالى: (ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلًا ومَن كفر فإنّ الله غنىّ عن العالمين) (۲)

وغير هذا كثير.

وإذا ثبت هذا عند ذلك نقول: إنَّ زعامة مكة بدأت بآدم عليه السلام وبأوصيائه من بعده، إلى أن دبّ الفساد فى بنى آدم، عند ذلك هجروا الكعبة. وبقيت مهجورةً من زمن نوح عليه السلام بعد الطوفان، من غير زعامة ولا سكن إلى أن جاء إبراهيم عليه السلام فأعاد بناءها وجدّد مناسكها. وظهر ماء زمزم فيها، ثم بقيت قائمةً شامخةً تهوى إليها أفئدةٌ من الناس إلى يومنا هذا.

الأهمية المعنوية

ولعلّها الأهم فى هذا الباب؛ لأنّها الدافع الأول للتنافس على زعامتها، ولأنّ غالباً ما تمتد الزعامة المعنوية إلى أبعد من مكة والجزيرة، لتشمل العالم كلّه.

ولأهمية زعامتها هذه نجد كثيراً من الأحيان أن يتقاسم هذه الزعامة مجموعة من الوجوه أو القبائل، كلّ له جانب من جوانب تلك الزعامة، وسميت بأسماء بقيت موضع فخر لمن حاز طرفاً من تلك الزعامة، وأحياناً يزداد عدد الزعماء والمهام، فيتألف بذلك نظام حكومى أشبه ما يكون بالجمهوريات المعاصرة.

وتعود أهمية مكة المعنوية إلى كونها المنطلق الأول للبناء التكوينى للحضارة الإنسانية، وكذلك البناء التشريعى حيث عرف الإنسان أول الشرائع على يد آدم عليه السلام فى مكة المكرمة. واضيفت إليها تشريعات جديدة كلما تجددت الحياة.

وعندما تحرك الإنسان من هذه الأرض حمل معه ميراثه من هذه الشرائع. إلّاأنّه للأسف الشديد عمد إلى تغييرها وتحريفها، تدفعهُ إلى ذلك المصالح الشخصية والأهواء النفسية. ومع ذلك بقيت مكة محط أنظار العالم تنطلق منها بين الفينة

۱- ۱ علل الشرائع للشيخ الصدوق: ۳۹۶.

۲- ۲ آل عمران: ۹۷.

ص: ۲۲۵

والأخرى أنوار هدى يستضىء بها العالم.

وبقيت معظمةً من قبل جميع الأديان والقوميات، يقدمون لها الهدايا والقرابين والنذور ويزورونها للدعاء حتى قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها. فكان الهنود يعظمونها ويقولون: إنّ روح «سينا» وهو الأقوم الثالث عندهم حلّت فى الحجر الأسود.

حيث زار سينا مع زوجته بلاد الحجاز (۱).

وكانت الصابئة من الفرس والكلدانيين يعدونها أحد البيوت السبعة المعظمة. وربما قيل: إنّه بيت زحل لقدم عهده وطول بقائه (۲)، وكان الفرس يحترمون الكعبة أيضاً زاعمين أنّ روح هرمز حلّت فيها (۳). وكان أسلافهم يقصدون البيت الحرام ويطوفون به تعظيماً له ولجدهم إبراهيم. وكان آخر من حجّ منهم ساسان بن بابك. وقد أهدى غزالين من ذهبٍ وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً، فدفن فى زمزم.

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام وقال:

وما زلنا نحجّ البيتَ جمعاً ونلقى بالأباطح آمنينا

وساسان بن بابک سار حتى أتى البيت العتيق يطوف دينا (۴) وكان اليهود يعظمونها ويعبدون اللَّه فيها على دين ابراهيم عليه السلام وبهاصور وتماثيل منها تمثال إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام وصور العذراء والمسيح عليهما السلام ويشهد ذلك على تعظيم النصارى لأمرها (۵). وموضع البيت الحرام يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض. ويدعو عنده المكروب، فكلّ من دعا هناك استجيب له. وكان الناس يحجّون إلى موضع البيت حتى بوّأ اللَّه مكانه لإبراهيم عليه السلام لما أراد عمارة بيته وإظهار دينه وشريعته (۶).

ولم أهبط منذ أنزل اللَّه آدم عليه السلام إلى الأرض محرماً بيته تتناسخه الأمم والملل امة بعد امة وملّة بعد ملّة (۷).

وكان النبىّ من الأنبياء إذا هلكت امته لحق بمكة، يتعبد فيها ذلك النبى ومن

۱- ۱ الميزان ۴: ۴۱۴.

۲- ۲ مروج الذهب، للمسعودى ۲: ۲۲۸.

۳- ۳ الميزان ۴: ۴۱۴.

۴- ۴ مروج الذهب ۱: ۲۴۲.

۵- ۵ الميزان ۴: ۴۱۴.

۶- ۶ أخبار مكة للازرقى: ۵۱.

۷- ۷ أخبار مكة للأزرقى: ۵۵، معجم البلدان- الكعبة.

ص: ۲۲۶

معه حتى يموت فيها، فمات فيها نوح وهود وصالح وشعيب، وقبورهم بين زمزم والحجر (۱). وبين زمزم والركن قبور سبعين نبى (۲).

ومن هذا نعلم مدى أهمية زعامة مكة عالمياً، وليس فقط بالنسبة للجزيرة والعرب.

الأهمية الاقتصادية

يمكن إيجاز الأهميـة الاقتصاديـة لمكّة بكونها الممر التجارى للقوافل، التى تنقل البضائع من مختلف بقاع العالم، وتكون حلقة وصـل بين الحضـارات المختلفـة؛ لـذلك أنشـئت فى مكـة مجموعـة من القنصـليات لمختلـف الـدول والممالـك المحيطـة بـالجزيرة العربية كالأحبـاش، والروم، والفرس، وعيّن فيها ممثلون لبعض الممالك العربيـة التى أسـست على أطراف الجزيرة العربيـة. وأنشـئت مجموعة من الأسواق للتبادل التجارى بين هذه الأمم. كسوق عكاظ وذات المجاز وغيرها، وأنشئت أحلاف وعلاقات للحفاظ على هذه التجارة وحركة القوافل بين القبائل والممالك المختلفة.

والشـىء الآخر الذى أعطى مكة أهمية اقتصادية هو الهدايا والنذور والقرابين التى تقدم للكعبة والحرم، وقد خصـص مكان لجمع هذه الهدايا والنذور.

زعامة آدم عليه السلام

عندما أنزل اللَّه سبحانه وتعالى آدم إلى الأرض حمّله الأمانة على هذه الأرض (إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّهُ كان ظلوماً جهولًا) (۳)

.

ثم أخذ منه ومن ذريته ميثاق الربوبية (وإذ أخذ ربُّك من بنى آدم من ظهورهم ذريتَهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) (۴)

.

وعندما أحسّ آدم وحواء عليهما السلام بالوحدة والوحشة طلبا من اللَّه سبحانه

۱- ۱ أخبار مكة: ۶۸.

۲- ۲ أخبار مكة: ۷۳.

۳- ۳ الاحزاب: ۷۲.

۴- ۴ الاعراف: ۱۷۲.

ص: ۲۲۷

وتعالى أن يأتيهماصالحاً يأنسا به، فأوحى اللّه إلى آدم: (سأخرج منصلبك من يسبحنى ويحمدنى، وسأجعل فيها بيوتاً ترفع لذكرى، وأجعل فيها بيتاً أخصّه بكرامتى واسميه بيتى، وأجعله حرماً آمناً... تعمره أنت يا آدم ما كنت حيّاً، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك...) (۱)

.

ولما حقق اللّه لهُ ذلك، وأصبحت لهُ ذرية ورعية، واجه آدم فى زعامته المشكلة الأولى، وهى الصراع بين قابيل وهابيل.

وعلى ما فى بعض الروايات احتكموا إليه فى أمر زواج كلّ واحد من توأم أخيه الآخر، وكانت توأم قابيل أكثر جمالًا، فحكم عليهم أن يقربا قرباناً تأكل النار من تقبل منهما ويستحق الاخت الجميلة (واتلُ عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتُقبل من أحدهما ولم يُتقبل من الآخر) (۲)

.

فاستشاط قابيل غيضاً عندما جاء الحكم ليس بصالحه ورفض الحكم، وقتل أخيه هابيل بعد أن قال له هابيل (لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يَدِىَ إليك لأقتلك) (۳)

لكن قابيل (فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله) (۴)

.

ومن هذا الحدث الخطير انقسمت الانسانية ومنذ عصر آدم عليه السلام إلى قسمين:

أهل الخير وأهل الشر. احتفظ أبناء آدم الخيرين من ذرية آدم بموقعهم قرب الكعبة فى جبال مكة وضواحيها. بينما ذهب قابيل وبنوه إلى سهول الجزيرة واليمن، واندفعوا فى أرض اللّه الواسعة بعيداً عن نور النبوّة ومشعل الهدى فراحوا فى ظلام الجهل يتخبطهم الشيطان، يفعلون المنكر ويأتون الشهوات ويعيثون فى الأرض فساداً، وتعلموا الطرب والغناء وما شابه ذلك من الموبقات.

زعامة شيت

عندما مرض آدم عليه السلام مرضه الأخير. جعل الوصيّة لابنه شيت، وأمره أن يكتم علمه عن قابيل حتى لا يفعل به ما فعله مع هابيل، ومنع بنيه من الاختلاط

۱- ۱ الكامل فى التاريخ ۱: ۳۹- ۴۰.

۲- ۲ المائدة: ۲۷.

۳- ۳ المائدة: ۲۸.

۴- ۴ المائدة: ۳۰.

ص: ۲۲۸

بأبناء قابيل، حتى يحصّنهم من الأمراض التى انتشرت بين أبناء قابيل من اللهو واللعب والفساد والافساد.

ومن نشاطات شيت (۱): أنّهُ بنى الكعبة من الحجارة والطين بعدما كانت من الخيام.

واستطاع شيت أن يضبط من كان تحت ولايته على المنهج الإلهى الصحيح فترة حياته، وينجح فى عزلهم عن أبناء قابيل؛ ليحافظوا على الفطرة التى فطرهم اللّه تعالى عليها، والأمانة التى أودعها سبحانه وتعالى، ويلتزموا بالميثاق الذى أخذه اللَّه على الإنسان.

وعندما حضرته الوفاة أوصى لابنه آنوش ما أوصاه آدم عليه السلام إليه. وما زال أبناء آدم الذين سكنوا الحرم محافظين على التزامهم ما لم يختلطوا بأبناء قابيل وذريته، ويتوارد زعامتهمصالح بعدصالح إلى أن جاء «برد» فنزل بعض ذرية شيت من الجبل، واختلطوا بذرية قابيل التى عمّها الفساد ومن بعد «برد» «اخنوح» وقيل: إنّه إدريس النبى عليه السلام (۲) فزاد الاختلاط وكثر الفساد حتى بين أبناء شيت، ولم يبق من الصالحين إلّانفر قلائل، فنقضوا الميثاق وعبدوا الأوثان، وبدأت مرحلة العمل الاصلاحى التى تزعمها نوح عليه السلام.

زعامة نوح:

وفى زمانه استشرى الفساد وعبدوا الأوثان كما ذكر القرآن الكريم (وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوقَ ونسراً وقد أضلوا كثيراً) (۳)

. ولما طالت دعوته دون أن يستجيب له أحد، بل وجد الأبناء أشر من الآباء اعتذر نوح إلى ربّه (قال ربِّ إنى دعوتُ قومى ليلًا ونهاراً* فلم يزدهم دعائى إلّافراراً) (۴)

.

فأجابه ربّه: (أنّه لن يؤمن من قومك إلّامَن قد آمن...) (۵)

عند ذلك دعا نوح ربّه: (ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) (۶).

۱- ۱ أخبار مكة ۱: الكامل فى التاريخ ۱: ۶۲.

۲- ۲ مروج الذهب ۱: ۳۹، الكامل فى التاريخ ۱: ۶۷، اليعقوبى ۱: ۳۴.

۳- ۳ نوح: ۲۳، ۲۴.

۴- ۴ نوح: ۶- ۳۰.

۵- ۵ هود: ۳۶.

۶- ۶ نوح: ۲۶.

ص: ۲۲۹

فاقتضت الحكمة الإلهية أن تطهر الأرض من الكافرين لتبدأ دورة حياة جديدة للإنسان. فأمر اللَّه تعالى نوحاً أن يصنع الفلك (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) (۱)

وفعلًا تحقق أمر اللَّه فيهم وعلموا ما كانوا يجهلون (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور) (۲)

وحتى لا تنقرض الحياة على هذا الكوكب (قلنا احمل فيها من كلّ زوجين اثنين وأهلك إلّا من سبق عليه القول ومن آمن) (۳)

واستثنى اللَّه تعالى ابن نوح (... إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غيرصالح) (۴)

ثم جاء أمر اللَّه إلى السماء والأرض (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) (۵)

ولم ينفع ابن نوح الذى اعتصم بأحد الجبال الشاهقة حيث (لا عاصم اليوم من أمر اللَّه إلّامن رحم) (۶)

وعندما طهرت الأرض من الظالمين (وقيل بعداً للقوم الظالمين)(۷)

عند ذلك جاء الأمر الإلهى الآخر (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء) (۸)

.

وبهذا بدأت دورة حياة جديدة للإنسانية. وزّع عناصرها نوح عليه السلام- مما بقى معه فى السفينة- على الكرة الأرضية (۹). فكان سام الابن الأكبر لنوح ووصيه كذلك، جعله فى القسم الذى فيه مكة.

وفى الفترة بين نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام لم يحدثنا التاريخ أنّ مكة بنيت فى هذه الفترة أو مصّرت. إلّاأنّها بقيت مقدسةً، وكان يأتيها المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض ويدعو عندها المكروب، فكلّ من دعا هنالك استجيب له. وكان الناس يحجّون إلى موضع البيت حتى بوّأ اللَّه مكانه لإبراهيم عليه السلام (۱۰).

زعامة ابراهيم

فى خضم الصراع البشرى بين الحق والباطل وبين الإيمان والكفر. ينتصر إبراهيم عليه السلام لرسالة الحق بعد أن ادّخره اللَّه وحفظه بالاعجاز من طاغوت عصره النمرود؛ ليكلفه تبليغ رسالة السماء. وتكلفه هذه الرسالة الشىء الكثير، وتضطره للهجرة هنا وهناك، والتنقل من بلاد إلى اخرى، ويبتليه اللَّه تعالى كما ابتلى سائر

۱- ۱ هود: ۳۷.

۲- ۲ هود: ۴۰.

۳- ۳ هود: ۴۰.

۴- ۴ هود: ۴۶.

۵- ۵ القمر: ۱۲.

۶- ۶ هود: ۴۳.

۷- ۷ هود: ۴۴.

۸- ۸ هود: ۴۴.

۹- ۹ الكامل فى التاريخ ۱: ۷۵، المروج ۱: ۴۱، اليعقوبى ۱: ۵۱.

۱۰- ۱۰ أخبار مكة للأزرقى: ۵۲.

ص: ۲۳۰

الأنبياء والرسل، ويمتحنه عـدهٔ امتحانات، ومما امتحن به ابراهيم عليه السـلام خلوه من الولد- بعد أن بلغ من العمر عتياً- ليكون وصـيه يحمل همّ الرسالهٔ من بعده. فمد يد الضراعهٔ إلى اللّه والسؤال (ربِّ هب لى من الصالحين) (۱)

ويأتى الجواب من ربّ العالمين (فبشرناه بغلام حليم) (۲)

لكن لا من زوجته ساره. وإنما من هاجر، التى وهبتها سارهٔ لإبراهيم عليه السـلام. بعـد أن دفعتها مشاعر الحنو إليصوت الطفولـهٔ؛ ليبـدد سكون البيت المملل. ولكن لما ولدت هاجر اسماعيل انقلبت المشاعر إلى مشاعر الغيرهٔ الكامنهٔ فى النفس، فتطلب سارهٔ من إبراهيم أن لاـ يسـكنا مع هـاجر فى مكـان واحـد. فيأتى الأمر الإلهى لإبراهيم عليه السـلام أن يهاجر بهاجر وابنها إلى حرم اللّه. ولما انتهت الرحلهٔ بأرض مكهٔ القاحلهٔ، توجه إبراهيم إلى ربّه (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم) (۳)

فاستجاب له ربّه أن هَيّأَ أسباب الحياهٔ فى ذلك الوادى، فنبع الماء من تحت قدم إسماعيل، ثم جاء الخير الذى ترجوه هاجر بعدما دلت الطيور النازلهٔ فى ذلك الوادى على الماء، فاجتذبت تلك الطيور إحدى القوافل إلى ذلك الوادى فوجدوا هاجراً وابنها تحت عريشها، فاسـتأذنوها بـالهبوط معهـا فى ذلـك الوادى، فـأَذنت لهم مستبشـرهٔ بـذلك، ولمـا علموا أنّها حرم إبراهيم وهـذا ابنه إسـماعيل زادوها احتراماً، واهدوا لولدها مجموعهٔ من الماعز، ولما بلغ إسماعيل عليه السلام مبلغ الرجال تزوج منهم زوجته الأولى.

وكـان لإبراهيم عليه السـلام ثلاـث زيـارات لإسـماعيل قبل بناء البيت، وعنـد زيارهٔ ابراهيم الأولى، لم يجـد ابراهيم الحفاوهٔ والتكريم المعهود فى عصره من زوجهٔ إسماعيل بعد أن كان إسماعيل غائباً عنها فى الصيد. فترك رسالهٔ شفويهٔ رمزيهٔ.

تقول له: «غير عتبـهٔ دارك» (۴). ومفادها أن يطلق زوجته فامتثل ابراهيم عليه السـلام أمر أبيه وطلّقَ زوجته وتزوج بثانيـهٔ. وعنـدما زاره للمرهٔ الثانيـهٔ وجـد الحفاوهٔ التامـهٔ والكرم حتى إنها (زوجـهٔ إسـماعيل الثانيهٔ) غسـلت رأسه من غبار التعب. فترك إبراهيم عليه السـلام رسالهٔ شفويهٔ أخرى تقول له «حافظ على عتبهٔ دارك» (۵).

۱- ۱ الصافات: ۱۰۰.

۲- ۲ الصافات: ۱۰۱.

۳- ۳ ابراهيم: ۳۷.

۴- ۴ الكامل فى التاريخ ۱: ۹۰، مروج الذهب ۲: ۴۷، ۴۸.

۵- ۵ الكامل فى التاريخ ۱: ۹۰، مروج الذهب ۲: ۴۷، ۴۸.

ص: ۲۳۱

وأما الزيارة الثالثة. فقد جاء بأمرٍ عظيم. ألا وهو الأمر الإلهى ببناء الكعبة؛ لتكون مثابة للناس وأمناً (وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ربّنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) (۱)

.

ولما فرغ إبراهيم وإسماعيل من البناء أتاه جبرئيل عليه السلام وأقاما مراسم الحج معاً؛ لتكون سُنّه للأَجيال القادمة، وعندها دعا إبراهيم الناس للحجّ (وأذّن فى الناس بالحج يأتوک رجالًا وعلى كلّ ضامر يأتين من كلّ فجٍّ عميق) (۲)

.

اسماعيل عليه السلام

الذبح: عندما تقترن الزعامة بالنبوّة. تصبح لها نكهة خاصة، تجذب إليها النفوس الكريمة، وتهوى إليها الافئدة الطاهرة، ويقترب منها الصالحون. وعندما يختار اللّه سبحانه وتعالى عبداً لحمل رسالته، يدخله فى دورة من الابتلاءات والامتحانات حتى تكتمل شخصيته، ويكون مؤهلًا لحمل الرسالة. وإسماعيل عليه السلام كان واحداً من أولئك العباد الصالحين، الذين اختارهم اللّه لرسالته، وادخله دورة تأهيلية لحمل النبوّة. ومن مفردات تلك الدورة قصة الذبح. حيث يرى إبراهيم عليه السلام فى المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل (يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحک) (۳)

ورؤيا الأنبياءصادقة كاليقظة. فيلبى إبراهيم أمر ربّه، وفى رحلة الحج أو غيرها يقف ابراهيم على إسماعيل وهو يصلح النبل للصيد، ليبلغ إسماعيل عليه السلام بالأمر الصعب. فهل يستجيب له كما استجاب فى المرّات السابقة من الطلاق وبناء البيت والحج وغيرها؟ (يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء اللّه من الصابرين) (۴)

ويحاول إبراهيم أن ينفذ الأمر فى ابنه (فلما أسلما وتلّه للجبين) (۵)

تنفيذاً لأمر اللّه وعندما وضع السكين على رقبته أدركتهُ الرحمة الإلهية فجاءه النداء الإلهى (... أن يا ابراهيم* قدصدّقت الرؤيا إنّا كذلک نجزى المحسنين* وإنّ هذا لهو البلاء المبين* وفديناه بذبح عظيم) (۶)

.

وانطلق إسماعيل يبدأ خطى الحياة من جديد. بعد أن أصبح مؤهلًا للزعامة

۱- ۱ البقرة: ۱۲۷.

۲- ۲ الحج: ۲۷.

۳- ۳ الصافات: ۱۰۲.

۴- ۴ الصافات: ۱۰۲.

۵- ۵ الصافات: ۱۰۳.

۶- ۶ الصافات: ۱۰۴- ۱۰۷.

ص: ٢٣٢

الدينية والدنيوية. ويحسن إدارة مكة مستعيناً بأبنائه الاثنى عشر وعلى رأسهم نابت وقيدار، الذين يرتبط نسب العرب المستعربة بهم، والذين نزل القرآن بلغتهم. ولذلك كان الرسولصلى الله عليه و آله يقول: أنا ابن الذبيحين يعنى إسماعيل وعبداللّه.

وورد عنهصلى الله عليه و آله كذلك. «إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً فإنّ لهم ذمة ورحماً» وكان يقصد هاجر أمّ إسماعيل المصرية ومارية أمّ ابراهيم زوجة النبيصلى الله عليه و آله القبطية المصرية.

ولما حسنت إدارة مكة على عهد إسماعيل وبنيه، كثرت الهجرة إلى مكة وتمصرت، خاصة بعد خراب سد مأرب حيث انتشرت الأقوام المحيطة فى السد، وقسم منها هاجر إلى مكة. ويُستدل من بعض الأخبار أنّ مكة قد عمرت بالسكان فى عهد إسماعيل حتى كان لها نظام حكم وسلطة وإدارة، خصوصاً أن مكة كبرت واتسعت وتشابكت مصالح سكانها، وأصبحت لها مواسم تختلف مهماتها من طقوس دينية وعروض تجارية وغير ذلك (١). وبقيت هكذا تزدهر إلى أن توفى إسماعيل، وجاء من بعده ابنه نابت، وكان الرئيس بعده والقائم بالأمور والحاكم المطلق فى مكة والناظر فى أمر البيت وزمزم. ثم جاء بعد نابت قيدار بن إسماعيل وسار بالطريقة التى سار بها أخوه نابت وأبوه إسماعيل عليهما السلام.

زعامة جرهم:

اختلف المؤرخون فى إدارة مكة بعد نابت وقيدار، فمن قائل: إنّ إدارتها كانت لجرهم بعدهما، وآخر ينسب ذلك إلى العماليق، وثالث يقول: إنّها كانت مشتركة بين جرهم والعماليق، ثم حدثصراع بينهم أدى إلى نفى العماليق عن مكة، والى سيطرة جرهم عليها. وآخر يعيد ذلك الحدث من الصراع الى «طسم» أو أبناء قنطورا. إلّاأن أشهر الأخبار تشير إلى أن الذين تولوا إدارة مكة بعد أبناء إسماعيل هم جرهم، وهم الذين تزوج إسماعيل منهم زوجته، إلّاأنهُ كذلك اختلف فى كيفية استيلائهم على الادارة، هل كانت بالحرب والقوة أم بالسلم؟ واختلف كذلك هل

١- ١ موسوعة العتبات المقدسة، قسم مكة، جعفر الخليلى: ٣٤.

ص: ۲۳۳

كانت جرهم تسكن مكة أو قريباً منها قبل إبراهيم وزوجته هاجر وابنها، أم أنّها كانت غير مسكونة، وإنما اتفق مجيء قافلة من جرهم، وفي أثناء مرورهم علموا من نزول الطير وجود ماء في وادي مكة، وعثروا على هاجر وابنها في تلك الحال (۱)؟

ثم إنه هناك من يقول: إنّ جرهم اثنان. الأولى ابيدوا على يد القحطانيين.

والثانية هي التي تولت إدارة مكة بعد أبناء إسماعيل (۲).

وعلى كل حال أنّ جرهم تصاهرت مع إسماعيل وكانوا يتكلمون العربية، وأنّ إسماعيل أخذ منهم اللغة العربية بعد أن عاش بين ظهرانيهم منذ نعومة أظفاره حتى وفاته.

ثم إنّه في أيام إدارة جرهم، لم يكن أحد يقوم بأمر الكعبة غير ولد إسماعيل تعظيماً لهم. فقام بأمر الكعبة بعد ثابت أمين، ومن بعده يشجب بن أمين، ثم الهميع، وبعده أدر الذي عظم شأنه في قومه وجلّ قدره، وأنكر على جرهم أفعالهم، وهلكت جرهم في عصره (۳). على إحدى الروايات وفي رواية المسعودي في المروج (۴): أنّ أول ملوك جرهم بمكة مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هيتي بن نبت بن جرهم بن قطحان، ثم بعده عمرو بن مضاض، ثم الحارث بن عمر، ثم عمر بن الحارث، ثم مضاض بن عمر الأصغر. وفي رواية أخرى لليعقوبي (۵)؛ أنّ أول ملوك جرهم مضاض بن عمر، ثم الحارث بن مضاض، ثم عمر بن الحارث، ثم المفسم بن ظليم، ثم الحواس بن جحش بن مضاض، ثم عداد بن ضداد بن جندل، ثم محص بن عداد، ثم الحارث بن مضاض بن عمر، وكان آخر من ملك من جرهم.

دفاع جرهم عن مكة: وقد دخلت جرهم في حروب متعددة دفاعاً عن موقعها، فمن ذلك أنّ الحارث بن مضاض أول من ولي البيت، وكان كلّ من دخل مكة بتجارة عشرها عليه في أعلى مكة. وملك العماليق السميدع بن هوبز بن

۱- ۱ اليعقوبي ۱: ۲۷۰.

۲- ۲ دائرة المعارف الإسلامية ۶: ۳۵۰، تاريخ ابن خلدون ۲: ۳.

۳- ۳ تاريخ اليعقوبي ۱: ۲۷۱.

۴- ۴ مروج الذهب ۱: ۵۱.

۵- ۵ تاريخ العقوبي ۱: ۲۷۱.

ص: ۲۳۴

لاوى بن قيطور بن كركر. وكان يعشر من دخل مكة من ناحيته، وكانت بينهما حروب فتارة تكون على الجرهمين وأخرى لهم، واستقام الأمر لجرهم آخر المطاف (۱) وينقل حسين أمين فى موسوعة العتبات المقدسة (۲): أنَّ فى أيام الحارث ابن مضاض الجرهمى نشطت حركة بنى إسرائيل، وزحفوا يريدون مكة من الشمال، فقاتلهم الحارث بن مضاض، فهزمهم واستولى على تابوت من الكتب يحملونه، وفيه ما انتحلوه من الزبور.

سقوط جرهم

وردت أخبار متباينة فى كيفية سقوط جرهم. فمن ذلك ما ذكره ابن هشام (۳): أنّ جرهماً بغوا بمكة واستحلوا حلالًا من الحرمة، فظلموا من دخلها من غير أهلها، وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى لها، ففرق أمرهم، فلما رأت بنو بكر ابن عبد مناة من كنانة، وغبشان من خزاعة ذلك أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة، وكانت مكة فى الجاهلية لا تقر فيها ظلماً ولا بغياً، ولا يبغى فيها أحد إلّا أخرجته، ولا يريدها ملك يستحل حرمتها إلّاهلك مكانه. فيقال: إنها ما سميت بكة إلّاأنها كانت تبك أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئاً. فلما أحسَّ عمرو بن الحارث الجرهمى خرج بغزالى الكعبة وبحجر الركن فقذفها فى زمزم، وانطلق هو ومن معه إلى اليمن، فحزنوا على ما فارقوا عن أمر مكة وملكها حزناً شديداً، فقال عمرو بن الحارث بن عمرو بن مضاض فى ذلك شعراً:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

فقلت لها والقلب منى كأنما يلجلجه بين الجناحين طائر

بلى نحن كنا أهلها فأزالنا صروف الليالى والجدود الغوائر

وكنا ولاة البيت من بعد نابت نطوف بذاك البيت والخير ظاهر ولهذا الشعر قصة لطيفة: إنّ عمرو بن الحارث كان قد نزل بقنونا من أرض

۱- ۱ مروج الذهب ۲: ۴۹، سيرة ابن هشام ۱: ۱۱۷، بدل العماليق مَطورا.

۲- ۲ سيرة ابن هشام ۱: ۱۱۹.

۳- ۳ سيرة ابن هشام ۱: ۱۱۹.

ص: ۲۳۵

الحجاز، فضلت له إبل فبغاها حتى أتى الحرم، فأراد دخوله ليأخذ إبله، فنادى عمرو بن لحى: من وجد جرهمياً فلم يقتله قطعت يده. فسمع بذلك عمرو بن الحارث، وأشرف على جبل من جبال مكة، فرأى إبله تنحر ويتوزع لحمها، فانصرف بائساً خائفاً ذليلًا وأبعد فى الأرض، وبغربته يضرب المثل، ثم قال هذا الشعر.

وفى رواية اليعقوبى (۱). أن جرهم لما طغت وظلمت وفسقت فى الحرم، وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى إليها، سلط عليهم الذر فاهلكوا عن آخرهم.

ورواية المسعودى (۲) تقول: لما بغت جرهم فى الحرم وطغت حتى فسق رجل منهم فى الحرم بامرأة، بعث اللَّه على جرهم الرعاف والنمل وغير ذلك من الآفات، فهلك كثير منهم. وكثر ولد إسماعيل وصارو ذوى قوة ومنعة، فغلبوا على أخوالهم جرهم، وأخرجوهم من مكة فلحقوا بجهينة، فأتاهم فى بعض الليالى السيل فذهب بهم.

مشاريع جرهم:

۱- حلف الفضول: من مشاريع جرهم حلف الفضول الأول. وذلك أن نفراً من جرهم وقطوراء يقال لهم الفضيل بن الحارث الجرهمى والفضيل بن وداعة القطورى المفضل بن فضالة الجرهمى اجتمعوا فتحالفوا أن لا يقروا ببطن مكة ظالماً. لا ينبغى إلّاذلك لما عظم اللَّه من حقها. ثم درس ذلك فلم يبق إلّاذكره فى قريش، إلى أن أعيد فى حياة النبيصلى الله عليه و آله فى دار عبداللَّه بن جدعان، وقبل البعثة النبوية الشريفة (۳).

۲- بناء الكعبة: والحدث الآخر بناء الكعبة بعد أن أخذها السيل وزادوا فى بناء البيت، ورفعته على ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السلام (۴).

۳- الإطعام: والشيء الآخر إطعام الطعام للوافدين إلى مكة، وطبخوا الكثير

۱- ۱ تاريخ اليعقوبى ۱: ۲۷۱.

۲- ۲ مروج الذهب ۲: ۵۰.

۳- ۳ الكامل فى التاريخ ۱: ۴۷۳.

۴- ۴ مروج الذهب ۲: ۵۰.

ص: ۲۳۶

وسمى المكان بطابخ (۱).

بعد سقوط جرهم عادت مكة لأبناء إسماعيل. وكان أول من تولى الزعامة من ذرية إسماعيل عليه السلام أياد بن نزار بن معد، لكن لم يستتب الأمر إلى أياد حتى نشب نزاع بين أياد ومضر، فكانت بينهم حروب كثيرة حتى ظهرت مضر على أياد، فأنجلوا من مكة إلى العراق قرب الكوفة، واجلاهم كسرى أنوشيروان إلى تكريت والجزيرة والموصل، ثم نزحوا منها إلى بلاد الرومان والشام (۲).

وذكر اليعقوبى (۳) أنّ أياداً لما أرادوا الرحيل من مكة حملوا الركن على جمل فلم ينهض به، فدفنوه وخرجوا، وبصرت بهم امرأة من خزاعة حين دفنوه فلما بعدت أياد اشتد على مضر وأعظمته قريش وسائر مضر، فقالت الخزاعية لقومها:

اشرطوا على قريش وسائر مضر أن يصير إليكم حجابة البيت حتى أدلكم على الركن ففعلوا ذلك، فلما أظهروا الركنصيروا إليهم الحجابة.

تضاربت الأخبار فى كيفية وصول خزاعة إلى زعامة مكة، وكذلك اختلفوا فيهم هل هم من قحطان أو من عدنان؟ هناك رأى يذهب إلى أنّ قبيلة خزاعة كانت تنزل حول الحرم فى أيام جرهم، وأنّ أصلها من اليمن كالجرهميين، وقد هاجرت بسبب ما كان ينتظر من الدمار، الذى خلفه السيل وأقامت فى مكة، فقامت خزاعة فى وجه جرهم ووقع القتال بينهما، واعتزل بنو إسماعيل القتال، فتغلبت خزاعة على جرهم، وانتزعت منهم الإمارة وأجلتهم عن مكة (۴).

فى حين كتب الدكتور حسين أمين فى الموسوعة نفسها (۵): أن خزاعة خزع من قبيلة الأزد العربية الكبيرة، ويضيف أنّ معظم النسابة ينسبون هذه القبيلة إلى عمر بن لحى بن حارثة. ويذكر المسعودى (۶) أنّ سبب تسميتهم خزاعة لما خرج عمر بن عامر وولده من مأرب انخزع بنو ربيعة فنزلوا بتهامة، فسموا خزاعة لانخزاعهم. أماصاحب الميزان (۷) يُسميهم الإسماعيليين، ثم نسبهم إلى عمر بن لحى، وهو أول زعيم لخزاعة على مكة. ويعتقد الأخباريون أن أول من نصب

۱- ۱ سيرة ابن هشام ۱: ۱۱۸، مروج الذهب: ۵۱.

۲- ۲ موسوعة القرن العشرين، فريد وجدى ۶: ۲۴۷، مروج الذهب ۲: ۲۷۴.

۳- ۳ انظر موسوعة العتبات المقدسة قسم مكة: ۲۸.

۴- ۴ المصدر السابق: ۶۸.

۵- ۵ المصدر السابق: ۶۸.

۶- ۶ مروج الذهب.

۷- ۷ الميزان.

ص: ۲۳۷

الأوثان على الكعبـة هو عمرو بن ربيعـة، وهى لحى بن حارثة بن عمر بن عامر الأزدى، أبو خزاعة، ويعتبر أول من غيّرَ دين إسـماعيل، فنصب الأوثان، وسيب السائبة، وبحر البحيرة وحمى الحمى (۱). ويذهب ابن الأثير (۲) إلى أنَّ أول من ولىالبيت بعد جرهم عمرو بن ربيعـة وقيل وَلِيَه عمر بنالحارث العسانى ثم خزاعـة بعده. وقال: إنّ خزاعة أبقت لمضـر ثلاث خصال: الإجازة بالحج من عرفة وذلك الى الغوث بن حر بن اد، وهوصوفة. والثانية الإضافة من جُمع إلى منى، وكانت إلى بنى زيد بن عدوان. والثالثة: النسىء للشهور الحرام فكان ذلك إلى القلمس.

الاصنام:

يذكر أنّ أول من أدخل الأصنام إلى مكة هو عمر بن لحى (۳). وقصة ذلك:

عندما مرض عمر بن لحى وصـفوا له أحد العيون فى البلقاء من ربوع الشام، أن من يغتسل بها يشفى، ولما استحمّ بها وبرئ من مرضه، رأى أهل ذلك البلد يعبدون الأصـنام، ولما سألهم عنها أجابوه: هذه أرباب نتخذها لنا نستنصـر بها ونستشـفى بها. عند ذلك طلبصنماً منها فأعطوه «هبل» فوضعه بعد عودته فوق الكعبة، ومن ذلك اليوم بدأت تنتشر الأصنام بين العرب، وأصبح لكلّ قبيلةصنم، ومع ذلك بقيت ثلة مؤمنة على دين الحنفية دين إبراهيم عليه السلام.

كانت نهاية خزاعة على يد قصـى بن كلاب، والذى اسـمه الحقيقى زيد بن كلاب. مات أبوه وتركهصـغيراً، فتزوجت أمّه من ربيعة بن حزام كبير بنى عذرة، فنقلها إلى بلد عذرة من مشارف الشام، وحملت معها زيداً لصـغره، فشب فى حجر ربيعة، وسمّى قصياً لبعده عن دار قومه. ولمـا عيره أخوه لأـمّه الفضـاعى بالغربـة، رجع إلى امّه وسألهـا عما قال. فقالت له: يا بنى أنت أكرم منه نسـباً ونفساً أنت ابن كلاب بن مرّة، وقومك فى مكـة عنـد البيت الحرام. وعنـدها شدّ الرحال إلى مكة وأقام مع أخيه زهرة، ثم خطب إلى حليل بن حبشـة ابنته فزوجه، وحليل يومئذٍ يلى الكعبة وهو شيخ كبير. فولدت لقصى أولاده عبد مناف وعبدالعزى وعبد

۱- ۱ بلوغ الأرب ۲: ۲۰۰، الأغانى ۱۳: ۱۰۹.

۲- ۲ الكامل فى التاريخ ۱: ۴۷۵.

۳- ۳ مروج الذهب ۱: ۲۷۴، ابن هشام ۱: ۷۸.

ص: ۲۳۸

قصی. وكثر ماله وعظم شرفه، ولما هلك حليل أوصى بولاية البيت لابنته حبی.

فقالت: إنی لا- أقدر علی فتح الباب وإغلاقه، فجعل فتح الباب إلی ابنه المحترش، فاشتری قصی منه ولاية البيت بزق خمر وبعود فضربت العرب المثل فقالت:

أخسرصفقة من أبی غبشان. وقيل: أحليل من حبشة أوصی قصياً بذلك، وقال:

أنت أحق بولاية البيت من خزاعة. عندها جمع قومه وأرسل إلی أخيه من قضاعة يستنصره، فحضر قضاعة فی الموسم. وكانتصوفة تدفع بالناس من عرفات وتجيزهم إذا تفرقوا من منی. فأتاهم قصی ومن معه من قومه ومن قضاعة فمنعهم وقال: نحن أولی بهذا منكم، فقاتلوه وقاتلهم قتالًا شديداً فانهزمتصوفة، وغلبهم قصی. فانحازت خزاعة بعد أن عرفت أنه سيمنعهم كما منعصوفة، وكثر القتال بين خزاعة وبنی بكر من طرف وقصی وقضاعة من طرف آخر. ثم تداعوا الی الصلح، علی أن يحكموا بينهم عمرو بن عوف بن كعب بن ليث من كنانة، فقضی بينهم بأن قصياً أولی بالبيت من خزاعة، وإنّ كلّ دم أصابه من خزاعة وبنی بكر موضوع يشدخه تحت قدميه، وإنّ كلّ دم أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وبنی كنانة ففی ذلك الدية مؤداة (۱).

زعامة قريش

الزعيم الأول قصی:

تولی قصی الزعامة بعد أن حكم له عمرو بن عوف بالأحقية فی ولاية البيت، وهو أول رئيس. ووردت الأخبار أنه لمّ شعث قومه وجمعهم من الأودية والشعاب والجبال إلی مكة، وابتنی مقر رئاسته وسمی دار الندوة، يجتمع فيه أعيان قريش ويقررن ما شاءُوا من الأحكام فی أمور السلم والحرب، فكان يشبه المجلس النيابی أو مجلس الشوری. وسنّ تشريعات جديدة تقضی بعدم أحقية من لم يبلغ الأربعين من السنين أن يدخل هذه الدار. وكلما توسعت مكة وكثر سكانها وروادها

۱- ۱ الكامل فی التاريخ ۱: ۴۵۸- ۴۶۰، موسوعة العتبات المقدسة: ۶۸، طبقات ابن سعد ۱: ۴۶- ۴۷، ابن هشام ۱: ۱۳۰.

ص: ۲۳۹

والمهاجرون إليها، كلما تعددت الأغراض وتوسعت المهام واحتاج الوضع إلى نظام إدارى أفضل، وخاصة بعد أن أصبحت مكة وأسواقها المركز التجارى الأول فى العالم؛ للاختلال الذى وقع فى النقل البحرى بسبب الصراع القائم بين الدول العظمى والروم والفرس والأحباش، فأصبح الممر التجارى البرى أكثر أماناً، فاندفعت آلاف الإبل تنقل البضائع وتحط الرجال فى مكة المحطة العالمية الأمينة، خاصة بعد انهدام الممالك العربية فى أطراف الجزيرة ودخول الأحباش لها.

عند ذلك عمد قصى إلى أن يؤسس نظاماً إدارياً أشبه ما يكون بالنظام الجمهورى، فكان هذا النظام قائماً على أساس تقسيم المهام وتوزيعها على مجموعة أفراد. والمهام هى:

۱- السدانة: وهى الحجابة، وباستطاعة المتولى فتح الباب وغلقها لأن المفتاح بيده.

۲- دار الندوة: ويمكن أن نعبر عنها مجلس الشورى والقضاء.

۳- اللواء: وهو الراية فكان لقريش راية اسمها العقاب، وكانوا إذا أرادوا الحرب أخرجوها. فإذا اجتمع رايهم على واحد سلموه إياها، وإلّا فإنهم يسلمونها إليصاحبها.

۴- السقاية: وهى عبارة عن حياض من أدم (جلود كانت على عهد قصى توضع فى فناء الكعبة، ويسقى فيها الماء العذب من الأبار على الإبل ويسقاه الحجاج).

۵- الرفادة: خرج من المال كانت قريش تخرجه من أموالها فى كلّ موسم فتدفعه إلى قصى يصنع به طعاماً للحجاج يأكله من لم يكن معه سعة ولا زاد.

۶- القيادة: هى إمارة الركب وتقودهم إلى القتال فى الحرب ويتزعمهم فى قيادته وفى الخروج للتجارة.

وتفرعت من هذه المناصب مناصب أخرى أهمها (الاشناق) وهى تنظر فى

ص: ۲۴۰

الـديات والغرم. (القيـة) وهى تجهيزات الجيش فى الحرب. (الاعنـة) وهى تـدبير شؤون الخيـل عنـد قريش فى الحرب (المشورة) وهو منصب مهمته إسـداء النصـيحة والمشـورة. (السـفارة) وهى القيـام بالاتصـال بين قريش وغيرهم من القبائـل إذا وقعت حرب، أو تطلّب الأمر مـذاكرة وصـلحاً. (والايسار) وهى الأزلام التى كانوا يستقسـمون بها للاسـتخارة مما يشـبه سـحب القرعـة. (الحكومـة) وهى التى تحكم بين النـاس إذا اختلفوا أشـبه بالقضـاء. (الأموال المحجرة) وهى الأـموال التى كانت تخص آلهتهم من النقـد والحلى والسـلاح، وهى تشبه بيت المال فى الإسلام. وكانت ولايتها فى بنى سهم.

(العمارة) ويراد بها أن لا يتكلم أحد فى المسـجد الحرام يهجر ولا يرمث ولا يرفعصوته. ويمكن أن يوصفصاحبها المسؤول والمحافظ على حرمة البيت (۱) وهـذا النظام جعل مكة عامرة ذات أمجاد وشـهرة انفردت بها بين جميع المدن العربية قبل الإسـلام. وتعطى هذه المناصب وتوزع على وجهاء بطون قريش لاسترضائهم للمشاركة فى فعاليات مكة وضمان وحدتها.

الصراع على الزعامة

لما كبر قصى وعلم قرب وفاته أجمع على أن يقسم أمور مكة بين بنيه.

فأعطى عبدالدار السدانة ودار الندوة واللواء، واعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة (۲). فى حين يرى اليعقوبى (۳) أنّ قصياً جعل السقاية والرئاسة لعبد مناف، والدار لعبدالدار، والرفادة لعبد العزى، وحافتى الوادى لعبد قصى.

ولما مات قصى حدثصراع بين عبد مناف وعبدالدار فى الاستئثار بالمناصب، وانقسمت لذلك قريش فطائفة مع بنى عبدالدار، وأخرى مع بنى عبـد مناف، فكانصاحب أمر بنى عبد مناف عبد شـمس ومعه من قريش بنو أسد بن عبدالعزى، وبنو زهرة بن كلاب وبنو تميم بن مرة وبنو الحارث بن فهر. وكانصاحب أمر بنى عبدالدار عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار، وكان بنو

۱- ۱ موسوعة العتبات المقدسة مكة: ۴۰- ۴۴.

۲- ۲ أخبار مكة: ۶۶.

۳- ۳ تاريخ اليعقوبى ۱: ۲۹۲.

ص: ۲۴۱

مخزوم بن مرة، وبنو السهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، وبنو جمح بن عمر بن هصيص، وبنو عدى بن كعب مع بنى عبدالدار. وخرجت عامر بن لؤى ومحارب ابن فهر فلم يكونوا مع واحد من الفريقين.

وعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً، وضعوها لاحلافهم فى المسجد عند الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتحالفوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم، فسموا المطيبين.

وتعاقد بنو عبدالدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً فسموا الاحلاف. ويقال إنّهم وضعوا أيديهم فى دم جزور ذبحوها، ولعق أحدهم من ذلك الدم فسموا الأحلاف ولعقة الدم.

ثم تداعوا بعدذلك للصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبدالدار كماكانت، و تحاجز الناس عن الحرب (۱).

زعامة عبد مناف

قام عبد مناف بن قصى على أمر أبيه بعده، وأمر قريش، واحتفظ بمكة رباعاً بعد الذى كان قصى قد قطعه لقومه.

ولماجلّ قدره وعظم شأنه وشرفه وكبر أمره، جاءته خزاعة وبنو الحارث ابن مناة بن كنانة يسألونه الحلف؛ ليعزوا به فعقد بينهم الحلف الذى يقال له حلف الأحابيش (۲).

زعامة هاشم:

وهو أكبر أبناء عبد مناف واسمه عمرو العلا. وإنما سمى هاشماً؛ لأنّه أول من هشم الثريد لقومه وأطعمهم. ويمتاز بشخصية قوية ونفوذ واسع لما قدم من خدمات لقومه، وما ابتدع من مشاريع. وكان منها حفر الآبار. مثل بئر (سجله) وبئر بدر.

وهاشم أول من سنّ الرحلتين لقريش رحلة الشتاء للحبشة. ورحلة الصيف

۱- ۱ سيرة ابن هشام ۱: ۱۳۸، ابن الأثير ۲: ۱۴.

۲- ۲ تاريخ اليعقوبى ۱: ۲۹۲.

ص: ۲۴۲

الی غزة وبلاد الشام... ذكرها القرآن الكريم (لإيلاف قريش* إيلافهم رحلة الشتاء والصيف).

وهو الذی أخذ الحلف من قيصر لقريش علی أن تأتی قريش للشام وتعود آمنة (۱).

ومن أخلاقه وكرمه أنّه خرج بتجارة عظيمة يريد الشام، فجعل يمرّ بأشراف العرب، فيحمل لهم التجارات مجاناً، ولا يلزمهم مؤنة حتیصار إلی غزة فتوفی فيها (۲).

كما كان هاشم يخرج مالًا كثيراً، ويأمر بحياض من أدم فتُجعل فی موضع زمزم، ثم يسقی فيها من الآبار التی بمكة، فيشرب منها الحاج، وكان يطعمهم بمكة ومنی وعرفة وجُمح، وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق، ويحمل لهم المياه حتی يتفرق الناس إلی بلادهم فسمی هاشماً (۳).

وكان يخطب الناس ويحثهم علی إكرام ضيوف اللّه فيقول: «يا معشر قريش إنكم جيران اللّه وأهل بيته فهم أضياف اللّه، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره. فأكرموا ضيفه وزواره فإنهم يأتون شعثاً غبراً من كلّ بلد علی ضوامر كالقداح وقد أعيوا ونفلوا وقملوا وارملوا فأقروهم وأغنوهم»، فكانت قريش ترافد علی ذلك (۴).

صراع أمية وهاشم

ويبدو أنّ ما أصاب هاشماً من علو المكانه وسمو المجد أثار حسد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصی، وكان ذا مال فيتكلف أن يصنعصنيع هاشم فعجز منه، فشمت به ناس من قريش فغضب، ونال من هاشم ودعاه إلی المنافرة، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره فلم ترعه قريش وأحفظوه، قال هاشم: فإنی أنافرك علی خمسين ناقة سود الحدق تنحرها ببطن مكة، والجلاء عن مكة عشر سنين، فرضی أمية بن عبد شمس بذلك، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعی وهو جدّ عمرو بن

۱- ۱ تاريخ اليعقوبی ۱: ۲۹۴، سيرة ابن هشام ۱: ۱۴۳.

۲- ۲ تاريخ اليعقوبی ۱: ۲۹۵.

۳- ۳ تاريخ اليعقوبی ۱: ۲۹۳، سيرة ابن هشام ۱: ۱۴۳.

۴- ۴ تاريخ اليعقوبی ۱: ۲۹۳.

ص: ۲۴۳

الحمق ومنزله بعسفان، وقد قضى لهاشم بالغلبة، فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعمها من حضره، وخرج أمية إلى الشام عشر سنين، فكانت هذه أول عداوة بين هاشم وأمية (۱).

وقد أجاد في شعره مطرود بن كعب الخزاعي عندما مرَّ برحل مجاور في بني هاشم وفيه بنات له وله امرأة في سنةٍ شديدة:

يا أيّها الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد مناف

هبلتك أمّك لو حللت بدارهم ضمنوك من جوع ومن إقراف

عمرو العلى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

نسبوا إليه الرحلتين كليهما عند الشتاء ورحلة الاصياف الآخذون العهد في آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف (۲) تولى الزعامة بعد هاشم بن عبد مناف أخوه المطلب بن عبد مناف، وكان أصغر من عبد شمس وهاشم وذا شرف في قومه وفضل وكان سيداً مطاعاً في قومه، وكانت قريش تسميه الفيض لسماحته، فولي بعد هاشم السقاية والرفادة، وهو الذي عقد الحلف لقريش مع النجاشي في متجرها، وخرج مرّةً لتجارة إلى أرض اليمن، وتوفي بردمان من بلاد اليمن (۳).

زعامة عبد المطلب

لما أراد هاشم الخروج إلى الشام حمل امرأته سلمى بنت عمرو إلى المدينة؛ لتكون عند أبيها وأهلها، وكان معهُ ابنهُ (شيبة). فلما توفي هاشم في سفره، أقامت بالمدينة مع ابنها. واتفق أن مرَّ رجل من تهامة بالمدينة فرأى غلماناً يتناضلون فإذا غلام منهم إذا أصاب يقول: أنا ابن سيد البطحاء، فقال له الرجل: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف، وانصرف الرجل حتى قدم مكة، فوجد المطلب جالساً في الحجر، فقصّ الرجل على ما رأى من ابن أخيه، فقال

۱- ۱ طبقات ابن سعد ۱: ۵۶، ابن الأثير ۲: ۱۰.

۲- ۲ تاريخ اليعقوبي ۱: ۲۹۵.

۳- ۳ سيرة ابن هشام ۱: ۱۴۴، طبقات ابن سعد ۱: ۶۲، اليعقوبي ۱: ۲۹۶.

ص: ۲۴۴

المطلب: أغفلته أما واللّه لا أرجع إلى أهلی حتی آتيه.

ثم خرج على راحلته حتى أتى بنی عدی بن النجار، فلما نظر إلى ابن أخيه قال: هذا ابن هاشم فأردفه خلفه وعاد به إلى مكة، وقال البعض من غير علم أمه، وزعم الآخرون كان بإجازة من أمّه.

فلما استقبل أهل مكة المطلب وهم يرحبون به ويحيونه ويقولون: من هذا الذی معک؟ فيجيب هذا عبدی ابتعته بيثرب. وبقيت قريش إذا رأته تقول: هذا عبدالمطلب، فلجّ اسمه عبدالمطلب وترک شيبة (۱). هذه هی قصة اليتيم الثانی بعد قصی، وكلٌ كانت لهُ زعامة استثنائية، وننتظر اليتيم الثالث فی مكة، الذی تزعَّم الإنسانية كلّها وإلى الأبد، ذلک رسول اللَّه محمدصلى الله عليه و آله.

ولما حضر رحيل المطلب إلى اليمن قال لعبدالمطلب: أنت يا بن أخی أولى بموضع أبيک فقم بأمر مكة. فتوفی المطلب فی سفره، فقام عبدالمطلب بأمر مكة.

إعادة حفر زمزم

لما تكامل لعبدالمطلب مجدُهُ، وأقرت لهُ قريش بالفضل، رأى وهو نائم فی الحجر، آتياً أتاهُ فقال له: قم يا أبا البطحاء واحفر زمزم، وتكررت الرؤيا وفيها علامات تدل على مكان زمزم، فانطلق فأتى بمعول وابنه الحارث وحيده، فاجتمعت إليه قريش فقالوا: ماذا تفعل؟ فقال: أمرنی ربّی بما يروی الحجيج الأعظم، فاعترضوا ولم يكترث باعتراضهم. فلم يحفر إلّاقليلًا حتى بدا الطی فكبّر، واجتمعت قريش وعلمت لما رأت الطی أنّهصادق. وحفر حتى وجد سيوفاً وسلاحاً وغزالين من ذهب، فضرب من الأسياف باباً للكعبة، وجعل أحد الغزالينصفائح ذهب فی الباب، وجعل الأخرى فی الكعبة (۲).

يدعی الأخباريون أنّ عبدالمطلب لم يكن لهُ من الولد أولًا إلّاالحارث، فنذر للَّه إن رزقه اللَّه عشرة أولاد أن يذبح ولداً قرباناً للَّه، ولما تكاملوا عشرة بولادة عبداللَّه وهو أجملهم وأكثرهم خصالًا كريمة، جمعهم وأقرع بينهم فكانت القرعة

۱- ۱ تاريخ اليعقوبی ۱: ۲۲۷، ۲۷۶، سيرة ابن هشام ۱: ۱۴۴- ۱۴۵.

۲- ۲ تاريخ اليعقوبی ۱: ۲۲۸- ۳۰۰، مروج الذهب ۲: ۱۲۷، ابن هشام ۱: ۱۲۰- ۱۵۵.

ص: ۲۴۵

علی عبـداللّه خصـمهم علی أن یفی بنذره ویضـحی بولده المذکور، ولما عرفت قریش منه الجد فی ذلک اجتمعت علیه؛ لتصـرفه عن هذا الأمر، لئلا یصـبح سنهْ بین العرب، واقترحوا علیه أن یأخذ مائهْ من الإبل ویقرع بینها وبین عبداللّه، ففعل ذلک ثلاث مرات فجاءت القرعـهْ فی کلّ مرّهْ علی الإبل فنحرها وترکها للناس، فتواثبوا علیها من کلّ جانب. ویـذکر أن دیـهْ القتل لهـذا أصبحت مئـهْ من الإبل (۱).

حادثهْ الفیل

ومن الأمور التی حـدثت أثناء زعامـهْ عبـدالمطلب وأعطته دفعهْ معنویهْ، وجعلت الناس تکنّ له الاحترام وتهابه؛ قصهْ الفیل التی ذکرها القرآن الکریم فی سورهْ الفیـل (أَلم ترَ کیف فعـل ربّک بأصـحاب الفیل* أَلم یجعل کیـدهم فی تضـلیل* وأرسل علیهم طیراً أبابیل* ترمیهم بحجارهْ من سجیل* فجعلهم کعصفٍ مأکول).

وخلاصـهْ القصـهْ التی ذکرتها جمیع التفاسیر وکتب التاریـخ المطولـهْ والمختصـرهْ هی: أنّ إبرههْ الأشـرم أحد قواد النجاشـی الحبشـی العظـام، لما فتـح الیمن بنی کنیسـهْ کبیرهْ أراد بها أن یصـرف العرب عن حـجّ مکـهْ إلیها. فتغوط بعض العرب فیها، وقیل هـدموا بعض جدرانها بقصد الإهانهْ، فعزم إبرههْ أن یسیر إلی مکهْ فیهدمها.

وإنّ مقدمات إبرههْ أصابت نعماً لقریش، فأصابت فیها مائتی بعیر لعبدالمطلب، فاستأذن عبدالمطلب الملک، فلما رآه أکرمه ونزل من سریره وجلس بجنبه، ثم قـال له: مـا حاجتـک؟ قال: حاجتی أن تردَّ إلی إبلی فاستصـغره الملک، فأجابه عبـدالمطلب: أنا اکلمک أیّها الملک فی مالی، ولهذا البیت ربٌ یحمیه فراع ذلک الملک.

وإنّ عبـدالمطلب أمر قریشـاً أن یخرجوا إلی رؤوس الجبال، بعـد أن قالوا: لا طاقـهْ الیوم لنا بأبرهـهْ وجیشه، بینما التجأ عبـدالمطلب إلی الکعبهْ وهو یدعو:

لا هم أن المرء یمنع رحلهُ فامنع جلالک.

لا یغلبوا بضیلبهم ومحالهم عدواً محالک.

۱- ۱ سیرهْ المصطفی هاشم معروف الحسنی: ۴۰، الیعقوبی ۱: ۳۰۳، ابن هشام ۱: ۱۶۰، المروج ۲: ۱۲۷.

ص: ۲۴۶

فأظهر من الجلد والشجاعة والثقة باللّه ما لم يظهره أحد غيره، فكان لهذا أثره البالغ عند عامة العرب، وتضاعفت ثقتهم بِهِ فاتسعت زعامته فى خارج مكة، بعد أن رأوا مكر اللّه بأبرهة وجيشه وفيله، وهى لا تلوى على شىء، فارةً مذعورةً، والطير وراءها يسقط عليهم تلك الأحجار فأين ما وقعت قتلتصاحبها، وآخر من قتل ابرهة على مشارف اليمن فانشقت بطنه فإلى لعنة اللّه (۱).

ومن مفاخر عبدالمطلب أنه من القلائل، الذين أقروا بالتوحيد وتركوا عبادة الأوثان، وبقى على دين ابراهيم عليه السلام (۲).

وكذلك حضانته لرسول الإنسانية حتى كان يقدمه على أولاده. وبالرغم من وجود أمّه وانصرافها إليه، فلقد أصبح الشغل الوحيد لعبدالمطلب وأعزّ شىء لديه، وأوكل امر إرضاعه إلى جارية لولده أبى لهب تدعى ثويبه، وضمّ اليه اليتيم وأمّه، ثم رأى أن يرسل حفيده إلى بادية سعد؛ ليرضع هناك وينشأ، ويتعلم فى البادية النطق بالكلمات كما كانت عادة الأشراف فى مكة. وكان عبدالمطلب قد تعود أن يستظل نهاراً بالكعبة على فراش مرتفع يحيط به ولده وأشراف مكة، فيأتى محمدصلى الله عليه و آله وهو غلامصغير فيثب على فراش جده، فيأخذه أعمامه ليصرفوه عنه فيقول لهم: دعوه إنّ لابنى هذا شأناً عظيماً (۳).

وعند وفاته أوصى عبدالمطلب إلى ابنه الزبير بالحكومة وأمر الكعبة، وإلى أبى طالب برسول اللّه وسقاية زمزم وقال له: قد خلفت فى أيديكم الشرف العظيم الذى تطأون به رقاب العرب.

وروى عن رسول اللّه أنّه قال: إنّ اللّه يبعث جدى عبدالمطلب أمّة واحدة فى هيئة الأنبياء وزى الملوك.

فكفل رسول اللّه بعد وفاة عبدالمطلب أبو طالب عمُّه فكان خير كافل، وكان أبو طالب سيداً شريفاً مطاعاً مهيباً رغم إملاقه.

قال على بن أبى طالب عليه السلام أبى ساد فقيراً وما ساد فقير قبله (۴).

۱- ۱ الميزان ۲۰: ۴۱۹، اليعقوبى ۲: ۳۰۴، وجميع التفاسير وكتب التاريخ.

۲- ۲ مروج الذهب ۲: ۲۲۷، اليعقوبى ۲: ۳۳۱.

۳- ۳ سيرة المصطفى: ۴۶، ابن هشام ۱: ۱۷۷.

۴- ۴ اليعقوبى ۲: ۳۳۵.

ص: ۲۴۷

الهوامش:

مهمّات مشهبوهة فی الدیار المقدسّة (۴)

ص: ۲۴۸

ص: ۲۴۹

ص: ۲۵۰

ص: ۲۵۱

مهمّات مشهبوهة فی الدیار المقدسّة (۴)

بیرکهارت: المستشرق الرحالة... فی خدمة الدوائر البریطانیة!

حسن السعید

فی الثامن عشر من تموز (یولیو) ۱۸۱۴ م. نزل فی جدّة أحد أخطر الرحالة الغربیین فی القرن التاسع عشر. وسار منها إلی الطائف لمقابلة الخدیوی محمد علی باشا، ثمّ قصد مکة المکرمة؛ لإداء فریضة الحج علی مایدّعی متخفیاً تحت اسم مستعار هو «الشیخ إبراهیم».

إنّه الرحالة السویسری الأصل البریطانی الجنسیة «یوهان لودنج بیرکهارت» أهم الرحالة الأوربیین، وأغزرهم علماً وثقافة وأبعدهمصیتاً وشهرة.

فمن هو بیرکهارت هذا؟

وماهی طبیعة مهمته؟

وماذا أنجز منها؟

بطاقته الشخصیّة

یسمیه الإنجلیز «جون لویس»، مستشرق سویسری رحالة. ولد فی لوزان عام ۱۷۸۴ م، وتخرّج من لیبزیج وغوتنجن فی الکیمیاء، وزار انجلترا وتعلّم فی کمبردج الطب وعلم الفلک واللغة العربیة (۱۸۰۶– ۱۸۰۹ م)، وتجنّس بالجنسیة

ص: ۲۵۲

البریطانیة، ثمّ قصد حلب حیث أتقنَ اللغة العربیة، وقرأ القرآن وتفقه فی الدین الإسلامی، وتظاهر باعتناقه عام ۱۸۰۹ م، وتسمی بإبراهیم بن عبد اللَّه.

زار تدمر ودمشق ومصر وبلاد النوبة وشمالی السودان، ثمّ مضی إلی الحجاز، فأدّی مناسک الحج!، لیعود إلی القاهرة عام ۱۸۱۵ م، وقد أخذ منه الاعیاء کلّ مأخذ. وفی السنة التی بعدها زار سیناء وعاد إلی القاهرة فی حزیران (یونیو) ۱۸۱۶؛ لیبدأ منها رحلة جدیدة للاستکشاف، ولکنه مرض وتوفی فی القاهرة عام ۱۸۱۷ م.

تلک هی- باختصار شدید- أبرز محطات حیاة بیرکهارت، وبالإمکان القول: إنّ بیرکهارت یُعدّ نقلةً نوعیّة، فی تأریخ الرحّالة الاوروبیین؛ وذلک لتضافر ثلاث حلقات تمازجت فتکاملت.. فکان بیرکهارت.

فمن طبیعة المناخ الدولی الذی شهدته اوروپا عقب حملة نابلیون علی مصر، وماأفرزته من تداعیات، علیصعید التنافس بین الدول الکبری، لا سیما بین فرنسا وبریطانیا.

إلی طبیعة الإعداد الخاص الذی تلقّاه بیرکهارت فی أروقة لندن وجامعة کمبردج بالذات، تمهیداً لتکلیفه بمهمّة خاصة، لیست بمنأی عن الاستخدام الاستعماری للحقول الاستشراقیّة.

ثمّ إنّ طبیعة الاستعدادات الخاصة لدی بیرکهارت؛ من نزوع إلی المغامرة، وشغف بالعلم، وقدرة علی تحمّل الصعاب، ومهارة مدهشة علی التخفّی بعباءة الإسلام، ومَلَکة عالیة لقراءة الحاضر والمستقبل.. کلّ ذلک أضفی علی طبیعة مهمته أهمیة خاصة؛ نظراً لأنها دشّنت مرحلة جدیدة فی تأریخ الاستشراق.

ولابدّ من إلقاء بعض الأضواء الکاشفة، ولو بشکل سریع:

حملة نابلیون: تداعیات التنافس

کان احتلال نابلیون مصر عند مطلع القرن التاسع عشر

ص: ۲۵۳

(۱۷۹۸ – ۱۸۰۱) منطلقاً لمرحلـة جديـدة من العلاقات الفرنسـية مع الامبراطوريـة العثمانية، التی تميّزت بمزيد من التركيز والحزم. ومنذ ذلـك الحين أدركت فرنسـا أنّ دورهـا لم يعـد يقتصـر علی حمايـة الكاثوليـك، بـل عليهـا أن تناضـل فی سبيـل الحفـاظ علی هيبتها ونفوذها، فی وجه المنافسة العنيفة الجديدة، فی الامبراطورية العثمانية، من قبل دول عظمی كروسيا وبريطانيا وألمانيا.

وقد كتب المؤرخ تويينی يقول:

«... كانت الضربة الحاسمة غزوة نابليون لمصر (۱۷۹۸– ۱۸۰۱)، تلك الغزوة التی تركت طابعاً لا يُمحی علی الخيال الشرقی، ولم يكن لهزيمـة فرنسا، فی المرحلة الأخيرة من مراحل حروب نابليون أی أثر سـيّئ فی محو هذا الطابع. وكانت بريطانيا العظمی التی كانت قد أتمّت ثورتها الصـناعية، فی أثناء حرب ۱۷۹۲– ۱۸۱۴، قد انتزعت من فرنسا حصّة الأسد فی التجارة مع بلدان المشـرق. غير أنّه لجميع الشـعوب الشـرقية غربی برزخ السويس، وغربی نهر الفرات ظلّت اللغة الفرنسـية والآداب الفرنسـية، والنظريات السياسـية الفرنسـية، منبع الحضارة الغربيّة (۱).

يقول البروفيسور ادوارد سعيد: «إذا اتخذنا حملة نابليون..

تجربة أولی مقوية للاستشـراق الحديث، فإننا نسـتطيع أن نعتبر إبطالها المدشّـنين– فی الدراسات الإسـلامية، ساسـی ورينان ولَيْن (۲)۲ المرجع السـابق، فصـل «المدينـة المنورة فی المراجع الغربيّـة»، (۳)– بنـاة للحقـل، خالقين لتراث، وأسـلافاً للأخوة الاستشـراقية. ومافعله ساسـی وريـنـان ولَيْن هو أنّهم منحوا الاستشـراق أسـساً علميـة وعقلانيـة. وقـد نتـج عن ذلـك لا ـ كتاباتهم النموذجيـة وحسب بل خلقُ مفردات وأفكار يمكن أن تسـتعمل بصورة لا شـخصانية، من قبل أی إنسان يرغب فی أن يصـبح مستشرقاً، وكان تدشينهم للاستشراق انجازاً كبيراً؛ إذ إنه جعل وجود مصطلحات علمية أمراً ممكناً، ونفی التعقيد الابهامی وأنشأ شكلًا

۱– ۱ جعفر الخياط: مكـة فی المراجع الغربيـة، مقال مفصل منشور ضـمن موسوعـة العتبات المقدسة، ج ۲، قسم مكّة، بإشـراف جعفر الخليلی، ط ۲، بيروت ۱۴۰۷ ه– ۱۹۸۷ م: ۲۶۴.

۲– ۱ جعفر الخياط: مكـة فی المراجع الغربيـة، مقال مفصل منشور ضـمن موسوعـة العتبات المقدسة، ج ۲، قسم مكّة، بإشـراف جعفر الخليلی، ط ۲، بيروت ۱۴۰۷ ه– ۱۹۸۷ م

۳– ج ۳، قسم المدينة: ۲۴۲.

ص: ۲۵۴

خاصاً من الاضاءة للشرق، وأسس شخصية المستشرق بوصفه السلطة المرجعية المركزية للشرق؛ ومنح الشرعية لنمط خاص من العمل الاستشراقى الذى يمتلك انسجاماً وتماسكاً محددين؛ وأدخل إلى مجال الاستعمال الثقافى نوعاً من العملة النقدية الاستطرادية أصبح الشرق، بسبب حضورها، من يتحدّث، منذ الآن، باسمه؛ وفوق كلّ شيء، فإنّ عمل المدشنين قد اقتضى حقلًا دراسياً وعائلة من الأفكار، كان بمقدورها هى بدورها أن تشكّل مجتمعاً من الباحثين كانت الوشائج بينهم، وكان تراثهم، وطموحاتهم، فى آن واحد، داخلية تنبع من الحقل الدراسى، وخارجية بما يكفى لضمان التمتع بمزايا خاصة. وبمقدار ماازداد فرض اروربا لنفسها على الشرق وعبورها لحدوده، خلال القرن التاسع عشر، بمقدار ماازداد اكتساب الاستشراق للثقة العامة بهِ (۱).

وحين نبدأ بمعاينة الاستشراق بوصفه نمطاً من الإسقاط الغربى على الشرق وارادة السيطرة عليه؛ فلن يواجهنا إلّاعدد قليل من المفاجآت، وذلك أنه إذا كانصحيحاً أنّ مؤرخين مثل ميشليه، ورانكه، وتوكفيل، وبيركهارت، يحبكون سردهم «كقصة من نمط خاص» فإنّ الشيء نفسه يصدق على المستشرقين الذين حبكوا التأريخ الشرقى، والشخصية الشرقية، والمصير الشرقى لمئات من السنين.

لقد أصبح المستشرقون، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، جماعة أكثر جديّة؛ لأنّ آماد الجغرافيا التخيليّة والواقعية كانت، بهذا الوقت، قد تقلّصت، إذ إنّ العلاقة الشرقية- الاوروبية كانت قد تحدّدت بتوسّع أوروبى لا يُصَدُّ بحثاً عن الأسواق، والمصادر الطبيعية، والمستعمرات. وأخيراً؛ لأنّ الاستشراق كان قد انجز تقمصه وتحوّله من إنشاء بحثى إلى مؤسسة امبريالية (۲).

وهكذا غدا التراث الاستشراقى

۱- ۳ خير الدين الزركلى: «قاموس الأعلام»- ۸: ۳۳۴ ط ۷، بيروت، دار العلم للملايين، ۱۹۸۶ م، نجيب العقيقى: «المستشرقون»- ۲: ۵۲ ط ۴، القاهرة، دار المعارف، ۱۹۸۰.

۲- ۴ زين نور الدين زين: «الصراع الدولى فى الشرق الأوسط وولادة دولتى سوريا ولبنان» بيروت، دار النهار للنشر، ۱۹۷۱: ۳۴.

ص: ۲۵۵

بمثابة دليل للاستعمار فی شعاب الشرق وأوديته، من أجل فرض السيطرة علی الشرق وإخضاع شعوبه واذلالها «فالمعرفة بالأجناس المحكومة أو الشرقيين التی تجعل حكمهم سهلًا ومجدياً. فالمعرفة تمنح القوة. ومزيد من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة.. فهناك باستمرار حركة جدلية بين المعلومات والسيطرة المتنامية (۱)».

ابحثوا عن التبشير.. و عن كمبردج

وفيما يخصّ بحثنا، وتحديداً الموقف البريطانی، الجهة المموّلة والمكلّفة لبيركهارت فی مهمته، فمرة اخری؛ كانت القوتان الاستعماريتان الرئيسيتان بريطانيا وفرنسا، رغم انّ روسيا وألمانيا لعبتا بعض الدور كذلك.

وكان الاستعمار فی البدء يعنی تمييزَ بل، بالفعل، خلقَ المصالح وتحديدها؛ المصالح التی قد تكون تجارية، أو دينية، أو ثقافية، أو متعلقة بالاتصالات، فقد شعرت بريطانيا، مثلًا، فيما يتعلّق بالإسلام والبلدان الإسلامية أنها، بوصفها قوة مسيحية، ذات مصالح مشروعة ينبغی المحافظة عليها. وقد نما جهاز معقّد لرعاية هذه المصالح. فبعد المنظمات المبكّرة مثل «جمعية نشر المعرفة المسيحية» (۱۶۹۸)، و «جمعية نشر الإنجيل فی المناطق الأجنبية» (۱۷۰۱)، تشكّلت جمعيات دعمتها مثل «جمعية التبشير الإنجيلية» (۱۷۹۲)، «جمعية التبشير الكنيسية» (۱۷۹۹)، «جمعية الكتاب المقدّس البريطانية والأجنبية» (۱۸۰۴) و «الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود» (۱۸۰۸). وقد شاركت هذه الارساليات بصورةصريحة فی التوسّع الاوروپی.

فإذا أضفت إليها الجمعيات التجارية، والجمعيات المتفقهة، ومؤسسات الإستكشاف الجغرافية، ومؤسسات الترجمة، وغرس المدارس، والبعثات، والمكاتب القنصلية، والمصانع، والجاليات

---

۱ – ۵ فيما عُرف الأولان بعدائهم السافر للإسلام، أقام الثانی فی مصر بين سنتی ۱۸۳۳ – ۱۸۳۵ متستراً بالإسلام وراء اسم «منصور أفندی»!

ص: ۲۵۶

السکانیهٔ الاوروبیهٔ الواسعهٔ، أحیاناً، فی الشرق، فإنّ مفهوم «المصلحهٔ» یکتسب قدراً کبیراً من المعنی. ولقد أصبحت هذه المصالح تُحمی، فیما بعد، بحماسهٔ شدیدهٔ ونفقات عالیهٔ (۱).

ومن هنا، لسنا بحاجهٔ إلی التأکید علی أنّ الطابع السیاسی العسکری قد غلب علی مجمل العلاقات البریطانیهٔ مع الشرق، والذی تُوّج بالغزو العسکری الاستعماری، بعد أن مثّل مستشرقو بریطانیا طلیعهٔ هذا الغزو وجهاز الرصد والاستطلاع لنجاحه. وکان معظم هؤلاء المستشرقین- إن لم نقل جمیعهم- قد تخرجوا من المعاهد البریطانیهٔ ومؤسساتها، للقیام بهذه المهمهٔ الدبلوماسیهٔ تحت ستار العلم والاکتشاف (۲).

ویأتی فی مقدمهٔ المعاهد البریطانیهٔ، التی خدمت المصالح البریطانیهٔ فی الشرقصرحان أکادیمیان هما: جامعهٔ أکسفورد التی یعود تأسیسها إلی القرن الثانی عشر المیلادی، وجامعهٔ کمبردج التی تأسست سنهٔ ۱۲۵۷ م.

وفیما یتعلّق الأمر بالجامعهٔ الأخیرهٔ، لأنّ بیرکهارت، أحد أبرز خریجیها، فلقد کانت أوّل ماأسست کرسیّاً للدراسات العربیهٔ فی بریطانیا، وکان ذلک سنهٔ ۱۶۳۲، بفعل «السیر توماس آدامز» الذی کان من کبار تجّار الجوخ فی بریطانیا.

وطبیعی أن لا یکون الهدف «العلمی الصافی» هدفاً أساسیاً وراء هذا التأسیس، بل یتجاوزه إلی الناحیهٔ التجاریهٔ ثمّ السیاسیهٔ والعسکریهٔ أیضاً. وهذا ماعبّر عنه بکلّ وضوح، دون أی لبس أو غموض، أوّل استاذ قام بترأّس کرسی للدراسات العربیهٔ فی جامعهٔ کمبردج، وهو «ابراهام ویلوک» فی رسالهٔ موجههٔ إلی مؤسسها «آدامز» بقوله: «إنّها لا تهدف فقط تنشیط الآداب ونشر المعرفهٔ، ولکن أیضاً لخدمهٔ الملک والدولهٔ فی مجال التجارهٔ مع البلدان الشرقیهٔ، وتوسیع آفاق

۱- ۶ ادوارد سعید: «الاستشراق: المعرفهٔ. السلطهٔ. الإنشاء» تعریب کمال أبو دیب، ط ۲، بیروت، ۱۹۸۲: ۱۴۵.

۲- ۷ المرجع نفسه: ۱۲۰.

ص: ۲۵۷

الكنيسة ونشر الديانة المسيحية بين القابعين في الظلام».

وبدأت بريطانيا تتطور في هذا المضمار، كما بدأت تطوّر من أساليبها أيضاً، خصوصاً بعد أن برز عدد من المستشرقين فيها على جانب كبير من الأهميّة... ولعلّ أهم حادثة جرت في القرن الثامن عشر، بالنسبة إلى الاستشراق، هي تأسيس «الجمعية الآسيوية في البنغال» سنة ۱۷۸۴، على يد السير وليم جونز.

في هذا الإطار، أنّ عدداً من مستشرقي هذا العصر كانوا ممّن عملوا في السلك الدبلوماسي، أو ممّن انخرطوا في سلك الجندية، وعملوا في خدمة التاج البريطاني كضباط، أو كانوا أبناء ضباط، أو موظفين في وزارة المستعمرات البريطانية.

وفي أوائل القرن التاسع عشر شرعت جامعة كمبردج، تحت قيادة «ادوارد غرنول براون»، في تنظيم دروس للموظفين الملحقين في السلك القنصلي في المشرق، والذين سيتولون أعمال الترجمة، وهكذا كان ينظر إلى تعلّم لغات الشعوب الإسلامية في كمبردج من ناحية تطبيقية، وليس فقط من الناحية الأكاديمية، كما كانت الحال في سائر الجامعات البريطانية (۱).

والسؤال المطروح هو: أين موقع بيركهارت من كل هذا؟

في خدمة الامبراطورية العظمى

ثمّة تجربة مريرة عاشتها عائلة بيركهارت، تركت آثارها العميقة على توجهاته، تلك هي أنّ عائلته أُجبرت على الفرار من موطنها سويسرا، بعد الاحتلال الفرنسي، واستقرت في ألمانيا، حيث أكمل بيركهارت دراساته، قبل انتقاله إلى بريطانيا.

ولكن... لماذا انتقل بيركهارت إلى بريطانيا؟

وهل هناك علاقة بين هذا الانتقال وحالة العداء الذي يضمره لفرنسا التي احتلت دياره، وسبّبت مأساة التشريد لعائلته؟!

وهل لعب والده، الذي كان

۱- ۸ د.صالح زهر الدين: «الإسلام والإستشراق»، بيروت، ۱۴۱۲ ه ۱۹۹۱: ۱۰۷.

ص: ۲۵۸

ضابطاً فى الجيش، دوراً فى دفع ابنه إلى التوجه لخدمة التاج البريطانى، بغضاً بعدوّه التقليدى فرنسا؟

ليس بين أيـدينا أدلّة وثائقية، بيد أننا نميل كثيراً إلى أنّ الدافع الأكبر لانتقال بيركهارت، ومن ثمّ تجنّسه بالجنسية البريطانية، لم يكن علمياً بحتاً، خاصة وأن لنـدن كانت مزدهرة، فى تلك الفترة، بنشاط محموم لتدجين المشرق وتحويله إلى «حقل للعلم الأوربى» كما يقول ادوارد سعيد (۱)، وذلك فى ظل التنافس المتزايد بين بريطانيا وفرنسا.

فى لنـدن تعرّف بيركهارت إلى سير جوزيف بانكس عضو الجمعية الأفريقية، التى كانت موّلت رحلات استكشافية سابقة إلى منطقة النيجر، انتهت جميعها بوفاة المستكشفين. أمّا الباحث البريطانى «بيتر برينث» فيؤكّد أنّ بيركهارت قد ذهب إلى لنـدن؛ لوضع نفسه تحت تصرّف الجمعية الأفريقية.. وكانت هناك مجموعة من العلماء والتجار الارستقراطيين نصف الامپرياليين تتوق لحل سر غموض افريقيا الغربية ومجرى نهر النيجر، وذلك لنشر النفوذ البريطانى على ضفاف ذلك النهر.

كان أحد الطرق إلى ذلك النهر لا يقع إلى الشرق من سواحل غامبيا، وهو الطريق الذى سلكه هوثورن وبارك من قبل، بل يقع فى جنوب غربى مصر، عبر واحة فزان ومنها إلى النهر. وهناك كانوا يأملون أن يجدوا الطريق فى مكان ما فيما وراء الصحراء، حيث توقع أولئك الذين يسلكون هذا الطريق أن يجدوا تمبكتو على أحد جانبيها، ومصب النهر المجهول على الجانب الآخر (۲).

وعنـدما قـدّم بيركهارت فكرته ببلوغ تمبكتو بمرافقة قوافل الحجاج العائدة من مكة المكرمة تبنتها الجمعية، ووظفته بقيمة جنيه استرلينى فى اليوم (۳). وما ان قبلت الجمعية الجغرافية بيركهارت كممثل لها، فى هذه المغامرة الخطرة، حتى قرر أن يعدّ نفسه اعداداً كافياً لتلكَ الحياة

۱- ۹ أدوارد سعيد: م. س؛ ۱۲۴.

۲- ۱۰ د.صالح زهر الدين: م. س؛ ۱۰۸.

۳- ۱۱ المرجع نفسه: ۱۱۰، ۱۱۱.

ص: ۲۵۹

المليئة بالمصاعب والاختبارات والمحن التى تنتظره (۱). فالتحق بجامعة كمبردج عام ۱۸۰۸؛ لدراسة اللغة العربية والطب وعلم الفلك وعلوم اخرى. وراح يعوّد نفسه على الحياة الصعبة (۲)، حتى وهو فى انكلتره، نجد أنه قيّد حياته بقيود جعلته يهجر حياة الترف الغربيّة، فينام على الأرض مثلًا، ويمشى ساعات طويلة، ويأكل الخضر فقط (۳)، ليخطو بعد ذلك أولى خطواته تجاه شواطئ آسيا، وهو يحمل فى جوانحه المعتقدات العنصرية للغرب، من قبيل نظرية التفوّق القائمة على قانون المركز والأطراف ونهب الثانى لحساب الأوّل، ومن قبيل أنّ الغرب هو موطن الحضارة؛ لذا فبريطانيا (رائدة الغرب) مدعوّة لحمل رسالة (الرجل الأبيض) ولقيادة (البرابرة) و (المتوحشين) نحو الحضارة!!

وليس من شك أنّ كلّا من هذه الاستعدادات والتصورات تنطوى على مهمّة سريّة ليست عادية، إذ ماعلاقة اللغة العربية بعلم الفلك؟ وماذا يربطهما بالطب؛ ليتعلمها بيركهارت فى وقت واحد، وفى كمبردجصاحبة التأريخ العريق فى المبادرات الاستعمارية، ومحاولات تشويه الإسلام؟!

إنّ بعضاً من خفايا المشهد الخلفى لمهمة بيركهارت يتضح حينما نعلم أنّ بريطانيا كانت وقتئذٍ، مدفوعةً بحماية طرقها إلى الهند من جهة، ولموجهة المضايقة والنفوذ المتزايدين من فرنسا، أو محاولة إيقافه من جهة اخرى إذ إنّ فرنسا، بعد هزيمتها فى الهند، عملت على مضايقة الجزء الشرقى من الامبراطورية البريطانية باعتراض طرقها عن طريق مصر المسلمة، لكلّ هذا أخذت بريطانيا تظهر مزيداً من الاهتمام بالمشرق، ولا سيما مصر (۴).

وفى الوقت الذى كانت فيهِ شبه الجزيرة العربية تشهد احتدام المواجهة بين محمد على باشا والوهابيين، الذين مدّوا سيطرتهم من نجد إلى الحجاز..

۱- ۱۲ للمزيد يراجع كتاب الإستشراق لأدوارد سعيد، فصل «الجغرافية التخيلية»صفحة: ۸۰ ومابعدها.

۲ - ۱۳ بيتر برينث: «بلاد العرب القاصية؛ رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب»، ترجمة خالد أسعد عيسى، وأحمد غسّان سبانو، بيروت، ۱۴۱۱ ه ۱۹۹۰ م: ۱۰۸.

۳- ۱۴ رلى الزين: «اوروپيون فى الشرق»، الحلقة الخامسة،صحيفة الحياة لندن الإثنين ۲۷ نيسان ابريل ۱۹۹۲- ۲۵ شوال ۱۴۱۲ ه. العدد ۱۰۶۷۱: ۱۵.

۴- ۱۵ بيتر برينث: م. س

ص: ۲۶۰

وصل الشام أحد الرحالة الذى امتاز بالذكاء والنشاط وتعدّد المواهب، فأصبح مثالًا ونموذجاً لُاولئك الذين حاولوا اختراق شبه الجزيرة العربية، وإثبات مصداقية الاسطورة العربية (۱).

ولم يكن هذا الرحالة سوى بيركهارت، الذى بدأ مهمته فى مدينة حلب السوريّة... وليشرع فى مغامرته الكبرى.

الشام: خطوة فى مسيرة الألف ميل

أمضى بيركهارت سنتين فى هذه المدينة، وهناك أتمّ ثقافته ليس فى اللغة العربية فحسب، بل فى آداب اللغة العربية ولا سيما القرآن الكريم وتفاسيره، لدرجة أنّه استطاع ان يستحوذ على احترام اولئك الذين كانوا يحرصون على النقاش فى المعانى الداخلية لأىنص من النصوص، فقد ظهرت مهارته واتقانه فى هذا المضمار (۲)، كما أظهر براعته عندما أكمل ترجمته لكتاب «روبنسون كروز» ودرس الدين الإسلامى بالجديّة ذاتها. واتخذ لنفسه اسم إبراهيم بن عبد اللَّه.

خلال إقامته فى سوريا كان يتجوّل مع البدو، خصوصاً قبيلة «عنيزة». ووصل إلى تدمر والفرات، ونُشرت نتائج زياراته وأبحاثه تباعاً، وهى تشكل اليوم أوّل دراسة اثنوغرافية لقبيلة فى الصحراء. وعن ذلك الوقت كتب بيركهارت:

«أمضيت بين البدو أسعد الأيام فى حياتى. وفى الوقت ذاته أمضيت ساعاتصعبة ومملة. وكنت أنتظر- فى بعض الأيام- بفارغ الصبر غياب الشمس؛ لأننى كنتُ أعلم أنّ حفلات الغناء والرقص فى المساء ستخرجنى من لعبة الداما مع رفاقى (۳).

وخلال إقامته فى سوريا- وجزيرة العرب لاحقاً- دوّن ملاحظات طريفة عن أعراف وعادات البدو الذين أحبّهم واعجب بهم. وكانت ملاحظاته هى أوّل مسعى «موضوعى» لدراسة

۱- ۱۶ رلى الزين: م. س

۲- ۱۷ بيتر برينث: م. س، ورلى الزين: م. س أيضاً.

۳- ۱۸ د. حلمى خضر سارى: «صورة العرب فى الصحافة البريطانية»، ترجمة عطا عبد الوهاب، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ۱۹۸۸: ۳۲.

ص: ۲۶۱

المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبدو (۱).

فی شباط (فبراير) ۱۸۱۲، شعر بيركهارت بأنه مستعد لمتابعة رحلته نحو النيجر، وتحرّك ببطء من سوريا إلى القاهرة، مكتشفاً فی طريقه آثار البتراء فی الأردن (۲)، وبتوغله إلى الجبال المتاخمة للبحر الميت اعتبر أوّل اوروپی شقّ طريقه، خلال تلك الصخور الناتئة، المحيطة بعاصمة الأنباط القديمة التی قهرت «سيتزن»، فلم يستطع الوصول إليها. وقد استطاع أن يرسل وصفاً لمدينة البتراء الأسطورية، مما أدهش العالم حينذاك (۳).

وبينما كان يستعد للرحيل إلى القاهرة، كانت «الليدی هستر ستانهوب» قافلة من هناك، فی طريقها إلى مقر إقامتها فی لبنان، حيث كانت هی الاخرى تقوم بمهمة سريّة، من مفرداتها رصد عيون نابليون من الفرنسيين فی الشام، والعمل على استمالتهم، وتجنيدهم كجواسيس لبريطانيا... وأثناء عودة ستانهوب، وفی مدينة الناصرة تحديداً، فوجئت يوماً بدخول شاب غربی السمات، عربی الملبس، قدّم نفسه لها على أنه «الشيخ إبراهيم» وأخذ يحادثها بانجليزية سليمة، ولم يكن هذا الشاب سوى الرحالة الكبير بيركهارت...

مكتشف البتراء، وآثار أبی‌سمبل (۴).

وعلى مايبدو أنّ بيركهارت كاشفها بمهمته أو بعض خباياها، وخاصة فيما يتعلق بجهوده المضنية مع بدو الصحراء، وماحققه من إنجاز معهم، بحاجة إلى تواصل وتوظيف.

وقد قررت ستانهوب، بعد فترة قصيرة من وصولها لبنان، السفر إلى دمشق، ومنها بدأت اتصالاتها بالبدو، وعقدت معهمصداقات، كما قامت برحلة إلى تدمر.. واتصلت بشيوخ القبائل فی بادية الشام، ولم يبخل عليهم بالمال، فكانت بعملها هذا أوّل أمرأة اوروپية وطئت قدماها أرض مدينة زنوبيا التأريخية (۵).

وليس من المستبعد أبداً أن

۱- ۱۹ بيتر برينث: م. س؛ ۱۰۸.

۲- ۲۰ المرجع نفسه.

۳- ۲۱صحيفة الحياة: م. س

۴- ۲۲ للمزيد يراجع كتاب: «صورة العرب فی الصحافة البريطانية» م. س: ۴۴ هامش ۹۵.

۵- ۲۳صحيفة الحياة: م. س

ص: ۲۶۲

یکون بیرکهارت قد لعب دور العرّاب، بصورة مباشرة أو غیر مباشرة، فی مهمّة ستانهوب الصحراویة هذه. کما أنّ ستانهوب بدورها قد زوّدت بیرکهارت- علی الأرجح- برسالة خاصة إلی محمد علی باشا، الذی تحتفظ بعلاقات وطیدة معه، حتی إنه لم یرد لها طلباً، علی حدّ تعبیرها (۱)، لا سیما وأنها أقامت فی ضیافته شهراً کاملًا من تلک السنة، آیار (مایو)، وهاهی قادمة توّاً من القاهرة.

وبـذا تکون سـتانهوب قد اختزلت کثیراً من الجهد علی بیرکهارت، تماماً کما ذلّل لها، هو الأخر، کثیراً من المتاعب، فی تحرکها علی بادیة الشام.

تطواف فی وادی النیل

شقّ بیرکهارت طریقهصوب القاهرة، بعـد أسابیع قلیلة من لقائه بسـتانهوب. وصل إلی هناک فی أیلول (سـبتمبر) ۱۸۱۲، وحلم الوصل إلی تمبکتو یحـدوه، ویشـغل کـلّ اهتمـامه، وحـال وصوله القـاهرة قابل محمـد علی باشا، وهو یأمل أن یجـد طریقاً أو قافلـة تنقله إلی المناطق الغربیّة، فی المرحلة الاولی لرحلته إلی نهر النیجر، ولکن الصحراء الکبری تمتد أمامه وتقلّل من فرص نجاحه (۲).

ولم یمض وقت قصـیر، حتی علم بیرکهارت أنّ القافلـة المتجهـة إلی أفریقیا الغربیة لن تتحرک قبل حزیران (یونیو) ۱۸۱۳. وهذا یعنی أنه سـیمکث حوالی تسـعة أشهر فی القاهرة. لم یرق لهُ الأمر، وقرّر أن ینزل إلی النیل، علی أمل إیجاد طریق تتجه غرباً من بلاد النوبة، وفکّر أنّه حتی لو لم ینجح فی ذلک، فیکون اسـتکشف مناطق جدیـدة، إذ لم یکن أی اوروپی دخل الأراضـی الواقعـة جنوب أسوان بعد.

وتمکـن بیرکهـارت من اجتیـاز ۲۰۰ میـل إلی الجنـوب، مکتشـفاً فی طریقـه «معبـد أبی سـمبل». وهنـاک واجهصـعوبات مـع الحکـام المحلیین.

وعندما اتضحّ لهُ أن لا مجال لمتابعة

۱- ۲۴ بلاد العرب القاصیة: م. س؛ ۱۰۹.

۲- ۲۵ د. محمود السمرة: «لیدی هسترستانهوب» تعریف بکتاب الشهر، مجلة العربی الکویتیة، العدد ۹۹- شوال ۱۳۸۶ ه- شباط ۱۹۶۷: ۱۳۱ ومابعدها.

ص: ۲۶۳

سيره جنوباً أو غرباً، قطع النيلصعوداً وعاد إلى نقطة انطلاقه. وفى اسيوط، بعدما اقتنع بأنّ ذهابه إلى افريقياً الغربيّة لن يحصل قبل سنة، اتخذ قرار التوجّه إلى الحجاز، ولعلّ ماشجعه على تغيير وجهته وجود محمد على باشا هناك، إذ كان يتابع حملته على الوهابيين، ولعلّها الأوامر قدصدرت إليه من مرؤوسيه بالتوجّه إلى مكّة.

وتبعاً لطريقته المنظمة، خلف بيركهارت وصفاً دقيقاً لأمتعته: كان يرتدى قميصاً وسروالًا وعباءة عربية، وعلى رأسه قبعة لفّ حولها قماشة، وحمل معه دفترين وقلماً وسكينة وبوصلة و ۵۰ دولاراً أسبانياً وقلادتين من الذهب. وذكر أيضاً أنّ البضائع والمأكولات التى حملها مع رفاقه لعبور الصحراء النوبيّة، وهى رحلة استغرقت أربعة أشهر، احتوت على ۴۰ رطلًا من الطحين، و ۲۰ من البسكويت، و ۱۵ من التمر، و ۱۰ من العدس، و ۱۰ من الزبدة، و ۵ من الملح و ۳ من الأرز، و ۲ من البن، و ۴ من التبغ... كما حمل معه رسائل من محمد على، باشا مصر لحمايته.

فى ۷ تموز (يوليو) ۱۸۱۴، قطع بيركهارت برفقة العبد الذى كان اشتراه ب ۱۶ دولاراً البحر الأحمر، ووصل إلى جدّة بعد ۱۱ يوماً. وهناك مرض بيركهارت، ثمّ تعرّض لضائقة مالية، إذ انّ التاجر الذى قدّم له الرحالة رسالة الاعتماد رفضها، ولم يسلفه الأموال. فأجبر على أن يبيع عبده ب ۴۸ دولاراً؛ أى ثلاثة أضعاف سعر الكلفة. وفى الوقت ذاته كتب إلى محمد على باشا مستنجداً به، فاستجاب فوراً لطلبه، وأمر أن يُعطى الأموال والثياب (۱).

فى جدّة.. والطائف

مكث بيركهارت فى جدّة شهراً، وكتب عنها نحو «۱۰۰»صفحة واصفاً الحياة فيها والتجارة والعادات (۲)، وفى هذا الإطار، وصف تلك المدينة وسكانها، كما وصفها

۱– ۲۶ المرجع نفسه.

۲– ۲۷ من القاهرة كتبت ستانهوب إلى أحد أصدقائها تقول: «لقد كان محمد على حفيّاً بى، ولم يكن يستقبلنى إلّا واقفاً، وقد سمح لى أن أزوره متى أردت، ولم يرفض لى طلباً طيلة اقامتى فى ضيافته، حتى انه سمح لى أن أزور أرامل المماليك الذين قتلهم عندما طلبتُ منه ذلك» تُراجع مجلة العربى؛ المرجع السابق: ۱۳۲.

ص: ۲۶۴

الآخرون من الرحالة: البنايات الحجرية العالية، الأسوار ووسائل الدفاع التی بدأت بالتهدّم، إلی الأراضی القفراء التی كانت تضمّ وتأوی السكان متعددی الأجناس، الذين أتوا من جميع أجزاء شبه الجزيرة العربية، ومن سوريا وتركيا ومن الهند، ومن جزر الهند الشرقية.

وإضافةً إلی ذلك، فقد استطاع بيركهارت أن ينفذ إلی تفهّم اقتصاد تلك المدينة، وأسباب انحطاطها، والتهديدات التی تستهدف مستقبلها، وإلی حدٍّ ماتوصّل إلی معرفة أسباب فنّ الدراسة الديموغرافية لتلك البلاد (أی دراسة المواليد والوَفيات والصحة والزواج).

وهو يخبرنا عن الأهمية العظيمة، التی وصلت إليها تلك المدينة الصغيرة علی الصعيد التجاری، فی أوائل القرن التاسع عشر، بسبب موقعها علی مفترق الطرق، التی يسلكها الحجاج والتجار من جميع أنحاء العالم.. لم ينسَ أن يطلق نبوءاته، حول قرب تراجع أهمية المركز التجاری لجدّة، كما تنبّأ بأنه عندما تنتهی السيادة العثمانية علی الحجاز، والتی دعمها محمد علی بنشاطه، فإنّ العرب عندها سوف ينتقمون لأنفسهم ولخضوعهم للأتراك، مع أنّ ذلكَ الخضوع كان اسمياً فقط، ولسوف ينتهی الحكم التركی، ولكن سوف يصاحب انتهاءه إراقة الدماء (۱).

وراح بيركهارت يصف مدينة جدّة بالتفصيل، بشكل لم يحاول أن يفعله أی رحالة من قبل، ماعدا نيبور، إذ ربّما لم يكن أی واحد من هؤلاء الرحالة يشعر براحة تجعله يلتفت إلی مثل هذه التفاصيل. أو ربّما لم يكونوا متمكنين من ناحية اللغة بشكل كافٍ. ومن بيركهارت علمنا أنّ جدّة تحتوی علی عدد الحوانيت التی أحصاها بشكل دقيق، وذكر أصناف المبيعات، وكذلك البضائع المبيعة، ومناطق استيرادها (۲).

ومن جدّة سافر بيركهارت إلی

۱- ۲۸ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ۱۰۹.

۲- ۲۹صحيفة الحياة؛ م. س.

ص: ۲۶۵

الطـائف، وهو يصف مـارآه للآـخرين أيضـاً، وهو ذلـک السـهل الوعر الـکثير الحجـارة والغبـار والتلاـل، التی تغطيهاصـخور الغرانيت والکوارتز اللامع الذی يبهج الأنظار، خصوصاً عند رؤية أشـجار النخيل المنتشرة هنا وهناک. ثمّ يصف الوديان الخضر، فيما وراء جبل «القری» علی سـفوح تلک السلسلة الجبلية... ورغم اعتدال الطقس، لکن بيرکهارت کان يسافر، فی معظم الأحيان، ليلًا خوفاً علی نفسه من حرارة الشمس (۱).

حال وصوله الطائف التقی محمـد علی باشا، الـذی کان يدير الحملة التی جردتها الدولة العثمانية بقيادته، لاسترداد البلاد المقدسة من الوهابيين. وکان محمد علی باشا قد وصل الحجاز فی ربيع ۱۸۱۳، وأقام فی الطائف للاشراف علی مهمته، والقضاء علی الوهابيين فی عقر دارهم کذلک (۲).

سکن بيرکهارت عند طبيب محمد علی الأرمنی، وأمضی الليلة الاولی مع الباشا، يتحدثان عن «أمور الدنيا»، وأوضح له محمد علی أنّه يخشـی احتلال البريطانيين لمصر، بعد انتصارهم علی نابليون، منتهزين قوتهم ومحوّلين الموقف الدولی لمصلحتهم. وکتب بيرکهارت عن محمد علی قائلًا: «حاکم عظيم لا يعرف سوی سيفه وکيس نقوده، يسحب الأوّل لتعبئة الثانی» (۳).

وفی الطـائف اجتمع بأعيـان البلـد، وکان محمـد علی باشا قـد جعل الطائف مرکز القيادة لجيوشه فی حملته علی بلاد العرب. وقـد نال بيرکهارت إعجاب قاضی مکة بعلمه وثقافته (۴) حتی انه أعلن لاحقاً أنّ بيرکهارت ليس مسلماً فقط بل هو عالم أيضاً (۵)کما أنه نال اعجاب محمد علی باشا، بعد أن روی له تلک القصص عن رحلاته. ولکن يظهر أنّ محمد علی باشا قد راودته الشکوک بالنسبة لهذا (المسلم) الأجنبی، ومع ذلک فقد کان يصغی بشوق لأیمعلومات يُدلی بها بيرکهارت. وکان محمد علی يلقی عليه

۱- ۳۰ المرجع نفسه.

۲- ۳۱ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ۱۱۰.

۳- ۳۲ للمزيد يُراجع المرجع نفسه: ۱۱۱.

۴- ۳۳ المرجع نفسه.

۵- ۳۴ مکة فی المراجع الغربية؛ م. س ۲: ۲۶۴.

ص: ۲۶۶

بعض الأسئلة مثلا: «كم يلزم من الجنود لإخضاع بلاد العرب حتى سهل شنغار؟».. وعندما وصلته نسخة من معاهدة باريس طفق الباشا فى درسها مع بيركهارت، وكان الحاكم المصرى يأمل أن يتجدّد القتال فى اوروپا، حتى تنشغل الدول العظمى بنفسها ولا تتدخل بشؤونه، ولكى يزيد فى سعر الذرة التى يصدّرها إلى الخارج (۱).

ويُستبان ممّا دوّنه بيركهارت أنّ محمد على باشا كان يشك فى إسلامه، ومع هذا فقد سمح له بالتوجه إلى الحج فى مكّة (۲) وهكذا سنحت له فرصة ثمينة، لإنجاز مهمته الاختراقية.

الحجّ إلى مكّة

بعد مسيرة يومين حافلين بأحوال جوّية غير مناسبة من رياح وأمطار ورعد وبرق، وصل بيركهارت إلى مكة (۳)، وكان المستر بيركهارت قد أسلم- على مايزعم- عند قدومه إلى مصر، فى عهد الخديوى محمد على باشا، وسمّى نفسه الشيخ إبراهيم. ويقول ناشر كتبه الإنكليزية، ويليام أوسلى، فى كانون الثانى (يناير) ۱۸۲۹؛ إنّ معرفة بيركهارت العربية، واطلاعه التام على أحوال المسلمين وعاداتهم قد ساعداه على تقمّص دور الرجل المسلم بنجاح، حتى استطاع أن يعيش فى مكّة، خلال موسم الحج كلّه، ويشترك فى مناسكه وشعائره، من دون أن يثير أدنى شك بشخصيته المنتحلة... وكان بيركهارت نفسه يقول: إنّه من بقايا المماليك الذين قضى عليهم محمد على باشا فى مصر، حينما كان يُسأل عن هويته (۴).

دخل مكّة فى ۸ أيلول (سبتمبر) ۱۸۱۴، حيث مكث لغاية كانون الثانى (يناير) اللاحق، والملاحظ مما كتبه بيركهارت نفسه أن إقامته فى مكة كانت مريحة جدّاً، فهو يقول: إنّه لم يتمتع خلال سفراته فى البلاد الشرقية كلّها بمثل ماتمتّع به فى مكّة من الراحة»، وإنه سيظلّ يتذكر إقامته فيها إلى الأبد، برغم انحراف المزاج

۱- ۳۵صحيفة الحياة؛ م. س.

۲- ۳۶ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ۱۱۱.

۳- ۳۷صحيفة الحياة؛ م. س.

۴- ۳۸ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ۱۱۸

ص: ۲۶۷

الـذی ألمَ به، فلم یسـمح له بالتمتع بجمیع ماسـمحت له الأحوال التمتع به (۱)، وقـد کتب: «خلال جمیع رحلاتی فی الشـرق، لم أتمتع براحهٔ کالتی عشتها فی مکّهٔ. وسأحتفظ بذکریات جمیلهٔ عن إقامتی هنا».

ولا ـ شـکّ أن بیرکهارت لم یمضِ وقته سُـدی، إذ وضع ۳۵۰صفحـهٔ من الملاحظات والوصف الدقیق للمدینهٔ وأهلها... وترکَ وصـفاً مفصـلًا لبیت اللَّه الحرام الذی تمتع بجماله، خلال لیالی شـهر رمضان عندما «تلتمع آلاف الفوانیس فی أعمدته» وعندما «تنعشنا النسمهٔ الباردهٔ فیه، بعد یوم طویل وحار من الصیام» (۲).

ماتجدر الإشارهٔ الیه، أنّ بیرکهارت یشرع بوصف الحج وشعائره قبل وصوله مکهٔ، ویبدأ بذکر مایختصّ بالإحرام بطبیعهٔ الحال.

ویستشـهد بما رواه المؤرخون عن هارون الرشـید وزوجته زبیدهٔ اللذین قصدا الحج، فی سـنهٔ من السـنین، مشـیاً علی الأقدام من بغداد إلی مکّهٔ، ولم یکن یستر جسمهما غیر لباس الإحرام، علی طول الطریق.

ویأتی بعد ذلک علی ذکر التوجه إلی المسـجد الحرام، والطواف والسـعی بین الصفا والمروهٔ، وزیارهٔ العمرهٔ، ثمّ العودهٔ إلی مکّهٔ، علی أنّ بیرکهارت یـذکر کـذلک أنّ الکعبهٔ کانت مکاناً مقدساً فی أیام الجاهلیهٔ أیضاً، وأنّ الناس کانوا یطوفون حولها بنفس النمط الذی یطوفون فیه حولها الیوم تقریباً، لکن المبنی المقـدس کانت تزینه یومـذاک ثلاثمائـهٔ وستونصـنماً، وأن علی الرجال والنساء أن یظهروا أمامها عراهٔ کما خلقهم ربّهم؛ لیستطیعوا التجرّد عن الخطایا والذنوب، والتخلّص منها مع الملابس التی یتجردون منها (۳).

وصف مسهب لمکّهٔ

وبعد أن یشـیر إلی التقدیس والتبجیل اللذین یکنّهما العرب جمیعاً لمکّهٔ، وإلی الأسماء التی تطلق علیها مثل: «امّ القری» و «المشرّفهٔ» و «البلد الأمین»، یأخذ بوصفها من

۱- ۳۹ مکهٔ فی المراجع الغربیهٔ؛ م. س.

۲- ۴۰ بلاد العرب القاصیهٔ؛ م. س.

۳- ۴۱ مکهٔ فی المراجع الغربیهٔ؛ م. س، ۲: ۲۶۳- ۶۲۴.

ص: ۲۶۸

جميع النواحى، فيقول: إنّ البلدة تشغل فضاءً يبلغ طوله حوالى ألف وخمسمائة خطوة، أى من محلّة الشبيكة إلى نهاية المعلا. لكن جميع مايطلق عليه اسم مكّة، بالمعنى الأوسع، يمتدّ من ضاحية جرول (المدخل من طريق جدّة) إلى ضاحية المعيدة على طريق الطائف. ويبلغ هذا حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة خطوة.

أمّا الجبال التى تحيط بهذا الوادى، الذى كان يسميه العرب وادى مكّة أو بكّة، فيبلغ ارتفاعها مابين مئتين وخمسمائة قدم، وهى جرداء خالية من الزرع والشجر. وينحدر الوادى برفق نحو الجنوب، حيث تقع محلّة المسفلة؛ ولذلك يتبدّد المطر الذى يسقط أحياناً على مكة فى جنوب مسفلة، فى الوادى المكشوف الذى يسمّى وادى الطرفين، وتقع معظم البلدة فى ضمن الوادى نفسه.

ويقول بيركهارت: إنّ مكّة يمكن أن تعتبر بلدة جميلة؛ لأنّ شوارعها أعرض من شوارع المدن الشرقية الاخرى بوجه عام. وبيوتها عالية مبنية بالحجر، فيها عدد من الشبابيك التى تطلُّ على الشوارع فتسبغ عليها منظراً تملأه الحيوية، بخلاف الدور فى مصر وسوريا، التى لا تطلّ على الطرق فى الغالب،. وهى مثل جدّة، تحتوى على عدد من الدور ذات ثلاثة طوابق، ويقول كذلك: إنّ مكّة مفتوحة من جميع الجهات، لكن الجبال المحيطة بها تكون مانعاً حصيناً ضد العدو، إذا مادوفع عنها بطريقة اصولية. وقد كان لها فى الزمن القديم ثلاثة أسوار تحمى جوانبها المتطرفة (۱)..

ويمضى بيركهارت فى التطرق إلى العديد من التفصيلات، كالماء الذى يعتمد عليهِ سكان مكّة، وبئر زمزم، وقناة زبيدة التى يسهب فى سرد تأريخها وماشهدته من ترميم وإصلاح، على مرّ التأريخ.

ومن أمتع مايكتبه بيركهارت عن مكّة وصفه المسهب لمحلاتها المختلفة، بعد أن شاهدها بنفسه ودقّق

۱– ۴۲ المرجع نفسه، ۲: ۲۶۵.

ص: ۲۶۹

أحوالهـا. فهو یقول: إنّ القادم من جـدّة إلی مکّـة المکرمـة یجـد فی مـدخلها برجین عالیین للحرس، کان قـد أنشأهما الشـریف غالب للدفاع عن عاصمته المقدسة.

وبعـد أن یـدخل القادم من بینهما بمسافـة غیر بعیـدة یصادفه موظفو الشـرف الـذین یجبون الرسوم علی البضائع. ثمّ یـدخل إلی «حارة جرول» التی یعیش فیهـا البـدو المشـتغلون فی تجـارة النقـل مابین مکـة وجـدّة، وتأتی بعـد «حارة الباب» التی تتألف من شارع عریض متسع، یقوم فی جانبیه عدد غیر یسـیر من الدور الکبیرة الحسـنة «حارة الشبیکة» التی تمتد إلی الیمن فی الغالب، ویقول بیرکهارت: إنّ هذه المحلة کان أصحاب النبی علیه السلام قد ضویقوا فیها جدّ المضایقة، فی حروبهم مع قریش (۱).

وعلی هـذا المنـوال، یمضـی بیرکهـارت فی وصف أدق التفصـیلات الاـخری عن مکـة وحاراتهـا أو مطوّفیهـا، وأسواقهـا، وسـفوحها، وأجهزتها الإداریة، ونفوسها وأماکنها التأریخیة... الخ.

حارات مکّة.. ومواقعها التاریخیّة

کان بیرکهارت یحرص علی رصد کلّ شاردة وواردة فی مکة، ویتطرق إلی کلّ شیء تقع علیه عیناه، أو یتناهی إلی سمعه. ومن ذلک اهتمامه بالواقع المعاش کاهتمامه بالتأریخ الغابر، کلّ ذلک بمنهجیّة موضوعیّة ونظرة جامعة مانعة. إنصحّ التعبیر.

وغالباً نراه یشیر إلی المواقع التأریخیـة المبثوثـة فی حارات مکـة، دون أن یغفل واحداً منها. فمثلًا یقول بالمناسـبة: إنّ القمة الغربیّة من وادی الطرفین التی تقابل المسـفلة، کانت تقوم فوقها بنایةصـغیرة وقبة شـیّدت لتخلید ذکری الخلیفة عمر بن الخطاب، فصارب تسـمی «مقام سـیدنا عمر»، لکن الوهابیین حینما اسـتولوا علی مکّة، قبل أن یستردّها منهم محمد علی باشا، هدموا هذه البنایة والقبة وخربوهما (۲).

وفی المحل الذی ینتهی فیه

۱- ۴۳صحیفة الحیاة؛ م. س.

۲- ۴۴ مکة فی المراجع الغربیّة؛ م. س.

ص: ۲۷۰

السعی، من جهة المروة، لاحظ بیرکهارت وجود الدار، التی کان یسکن فیها العباس عمّ النبی علیه السلام...

وتوجد علی مقربة من هذا المکان برکة وسبیل للشرب بناهُ السلطان سلیمان القانونی، واستمدّ له الماء من قناة مکة المشهورة... (۱).

ویـذکر بیرکهارت کـذلک «زقاق الحجر» الذی یقول: إنّ الزهراء البتول علیها السـلام وأبا بکر الصدیق قد ولدا فیه. وقد سُـمّی الزقاق باسم الحجر الذی کان یحیی الرسول الأعظم کلّما کان یمر به، عند رجوعه من الکعبة علی مایُقال... (۲).

وعند انتهاء المعلا، وعلی مسافة غیر بعیدة من قصـر الشریف الکائن فی شمال منطقة البرک، یوجد قبر أبی طالب والد الإمام علی علیه السـلام، وعمّ النبی الکریمصـلوات اللّه علیه. وقـد عمـد الوهابیون إلی تقویض البناء الـذی کان قائماً فوق القبر، فأحالوه إلی کومة من الأنقـاض، ولم یجـد محمـد علی باشـا بعـدهم من المنـاسب أن یعیـد البنـاء إلی سـالف عهـده. ویقول بیرکهـارت: إنّ النـاس فی مکّة یقدسون أبا طالب ویجلّونه غایة الإجلال، ویخشون القسمَ کذباً به.

ویختم بیرکهارت بحثه عن حارات مکّة بالإشارة إلی عـدد نفوسـها، بعد أن یبحث فیصـعوبة تقدیر النفوس فی المدن والبلاد الشـرقیة عامـة. وهو یقدّر نفوس مکّة فی غیر مواسم الحج، فی تلک الأیام، بخمسة وعشـرین إلی ثلاثین ألف نسـمة، یُضاف الیها حوالی ثلاثة إلی أربعـة آلاف عبـد حبشـی وغیر حبشـی، ثمّ یقول: إنّ مکّة کان بوسـعها، فی تلک الأیام، أن تسـکن ثلاثة أضـعاف هذا العدد من الحجاج أیضاً. ویشـیر کـذلک إلی أنّ إحصاءً للنفوس کان قد جری فی عهد السـلطان سـلیم الأوّل (۹۲۳ ه) فوجـد أنّ النساء والرجال والأطفال قد بلغ عددهم حوالی اثنی عشر الف نسمة.

وهو یروی ذلک عن المؤرخ قطب الدین، الذییذکر أیضاً أنّ نفوس

۱- ۴۵ المرجع نفسه، ۲: ۲۶۵.

۲- ۴۶ المرجع نفسه، ۲: ۲۶۸.

ص: ۲۷۱

مکّة کانت أکثر من هـذا بکثير فی القرون الخاليـة؛ لأنّ القرامطة، حينما هاجموا مکة فی ۳۱۴ ه، بلغ عدد من قُتِلَ بأيديهم من سـکان مکة حوالی ثلاثين ألف نسمة (۱).

الأماکن المقدّسة

ويخصـص بيرکهارت فی رحلته فصلًا خاصاً لـذکر بعض الأماکن والبقع المقدسـة التی يقول عنها: إنّ الناس، خلال احتلال الوهابيين لمکة، لم يکونوا يجرأون علی زيارتها أو التقدّم منها، وأنّ جميع الأبنية أو القبب المشادة عليها قد تمّ تهديمها.

وأوّل مايذکر من هذه الأماکن «مولد النبی»، أو الموقع الذی ولدَ فيه سيد الکائنات النبی الأعظمصلوات اللَّه عليه. وهو يقول: إنّه وجد العمال يعيدون بناء المبنی الذی کان مشـيداً فوقه. وقد وجد حفرةصغيرة فی الوسط، قيل لهُ إنّها البقعة التی کانت أمّ النبی جالسة فيها، حينما جاءها المخاض فولدته. والمقول انّ المکان کلّه کان بيت عبد اللَّه بن عبد المطلب والد النبی.

ثمّ يـذکر «مولـد سـتنا فاطمـة» أو المکـان الـذی وُلـدت فيِه الزهراء البتول سيِّدة نسـاء العـالمين، ويوجـد هـذا «المولـد»، علی مـايقول بيرکهارت، فی بناية حسنة مبنيّة بالحجر، يُقال أنها کانت بيت أمها خديجة الکبری، فی شارعصغير يسمّی «زقاق الحجر».

ويؤدی سلمصـغير إليهِ عنـدَ الدخول، لأنه تحتَ مسـتوی الشارع، وتوجد فيهِ بقعتان محددتان؛ احداهما ولدت فيها فاطمة الزهراء عليها السـلام، والثانيـة کانت تجلس فيها لتدير رحاها وتطحن الحب. ويقول: وفی جناح بالقرب من ذلکَ توجد حجرةصـغيرة، کان يجلس فيها النبی عليهِ السلام، حينما کان جبريل ينزل عليهِ بالوحی، ولذلکَ کانت تسمی «قبة الوحی».

ويـذکر بعد ذلکَ «مولد الإمام علی» فی الحارة المسـماة «شـعب علی»، ويقول بيرکهارت: إنّ هذه عبارة عن مسجدصـغير توجد حفرة فی فنائه

۱- ۴۷ المرجع نفسه، ۲: ۲۶۹.

ص: ۲۷۲

لتدلّ على البقعة التى ولد فيها الإمام على بن أبى طالب عليه السلام (۵۱) (۱)، وهذا اشتباه واضح، إمّا من بيركهارت الذى ربّما اختلط الأمر عليه، أو لعلّه من اشتباهات العوام، اذ من المعروف أنّ الإمام علياً عليه السلام هو وليد الكعبة.

ويشير بيركهارت بعد ذلك إلى «مولد سيدنا أبا بكر»، الذى يقول انه ضمن مسجدصغير يقع فى مقابل الحجرالذى كان يحيى النبيصلى الله عليه و آله عند مروره به، ويقول كذلك انّ هذا المكان ليست فيه بقعة خاصة بالذات، لكن ساحته مغطاة بسجادة إيرانية، ويعلّق بعد ذلك فيقول انّ جميع هذه «الموالد» كانت قد أعيد بناؤها وترميمها، بعد اخراج الوهابيين من مكّة، فى تلك الأيام، عدا «مولد النبى» الذى كان يجرى بناؤه مجدداً، وتشارك فى سدانة هذه الأماكن المقدسة عدّة أسر شريفة.

وقد ألفى بيركهارت انّ «مولد أبى طالب»، فى محلة المعلا، قد تمّ تهديمه عن آخره، وهو يتوقع ان لا يُعاد بناؤه من بعد ذلك أيضاً. كما وجد الوهابيين قد هدموا القبة التى كانت مشيدة على قبر «سيدتنا خديجة» ولم يعد بناؤه أيضاً، مع انّ الحجاج وسائر الناس كان من المعتاد أن يزوروه بانتظام، لا سيما فى أيام الجمعصباحاً، ويقع هذا القبر فى المقبرة الكبيرة الموجودة فى محلة «المعلا»، وهو محاط بجدار مربّع ليس فيهِ مايلفت النظر، سوى حجر حفرت عليه آية الكرسى بخط كوفى.

وعلى مسافة غير بعيدة من هذا القبر كان هناك قبر آمنة والدة النبيصلى الله عليه و آله.

وكان مغطّى بحجرٍ حفرت فيه بعض الآيات القرآنية بخط كوفى قديم. ومّما يذكره عن هذه المقبرة انه وجد فى نهاية كل قبر من قبورها تقريباً نباتاً من نباتات (الصبر) قد زرع، ليدل على الصبر الذى يجب ان يتحلّى به الموتى، قبل أن يبعثوا فى يوم المحشر (۲).

وهناك أماكن كثيرة اخرى،

۱- ۴۸ المرجع نفسه، ۲: ۲۷۱.

۲- ۴۹ المرجع نفسه، ۲: ۲۷۳.

ص: ۲۷۳

خارج مكة، يأتى بيركهارت على ذكرها، ويشير إلى قداستها، كجبل أبى قبيس، وقمتيه؛ «مكان الحجر» و «مكان شق القمر»، و «جبل النور»، و «جبل ثور»... الخ.

بيت اللّه الحرام

ويصف بيركهارت فى الجزء الأوّل من رحلته بيت اللّه الحرام بالتفصيل، فيأتى على كلّ شىء فيه، بحيث يستغرق وصفه مايزيد على خمسينصفحة.. ومن طريف مايورده بيركهارت، فى هذا الفصل، قائمة بأسماء الأبواب الموجودة فى المسجد الحرام تحتوى على تسعة وثلاثين اسماً حديثاً، تقابلها الأسماء القديمة لبعض الأبواب. لكنه يقول انّ أهم الأبواب كانت: باب السلام الذى يجب ان يدخل منه كل حاج، وباب العباس، وباب النبى، وباب على، هذه كلّها من الجهة الشمالية. أمّا الشرقية فأهمّ أبوابها؛ باب الزيت، وباب العشرة، وباب الصفا، وباب الشريف، ثمّ باب إبراهيم، وباب العمرة فى الجنوب، وباب الزيارة فى الجهة الغربية. ومعظم هذه الأبواب لها عقود عالية مدببة (۱).

ويستطرد فى هذا الفصل فى وصف محيط المسجد الحرام من الخارج، الذى كانت تزينه سبع منارات، كما ويتحدّث عن سدنة البيت الحرام، والطواشين الذين يقومون بواجبات الشرطة، فى داخل الحرم الشريف، علاوةً على قيامهم بغسل أرضية الكعبة وكنسها يومياً.. ويعتبر أغا الطواشين من شخصيات مكّة على مايلاحظ، بحيث يكون مخولًا بالجلوس مع الشريف والباشا والحاكم... ومعظم هؤلاء من العبيد السود. وبعضهم من الهنود (۲).

وعلى عادته فى التقصّى، يأتى بيركهارت كذلك على ذكر الكعبة المشرفة، فيقول؛ انها تفتح ثلاث مرات فى السنة فقط، فى اليوم العشرين من رمضان، واليوم الخامس عشر من ذى القعدة، والعاشر من محرم الحرام (۳).

ويتمّ ذلك عادة بعد طلوع

۱- ۵۰ المرجع نفسه، ۲: ۲۷۴.

۲- ۵۱ المرجع نفسه، ۲: ۲۷۷.

۳- ۵۲ المرجع نفسه، ۲: ۲۷۶- ۲۷۸.

ص: ۲۷۴

الشـمس بساعة واحدة، بنصب سلّم فيما يقرب من الباب الكبير، وحالما يتمّ ذلك تتدفق عليه جموع المسلمين المحتشدين فى أسفله، وسرعان ماتمتلىء بهم داخلية الكعبة نفسها...

ويقول بيركهارت انه لم يسـتطع البقاء هناك أكثر من خمس دقائق، لأنّ حرارة المكان كانت مرتفعـة بحيث لم يحتملها، وأوشکَ أن يخرّ مغشيّاً عليه منها.

وبعد أن يصف بيركهارت داخلية الكعبة وأستارها، وقد زارها هو مرّتين، فى يومى ۱۵ ذى القعدة و ۱۰ محرم الحرام، فشاهد فى المرّة الأخيرة أنّ السـتائر الجديـدة التى بعث بها محمـد على باشا من القاهرة قـد علّقت، فكان قماشـها ثميناً، ونسـجها أدق من نسج الكسوة السوداء التى تغطّى الكعبة من الخارج. أمّا السـتائر القديمة التى كان قد مرّ عليها أكثر من عشـرين سنة، فقد بيعت علناً للمتمكنين بسعر ريال واحد، لكلّ قطعة مساحتها ست بوصات مربعة (۱).

ملاحظات حول سكان مكّة

وفى رحلته التفصـيلية، يخصـص بيركهارت مايزيـد على سبعينصـفحة منها، للتحـدّث عن سـكّان مكّة وطبقاتهم وطباعهم، مع أحوالهم الإجتماعية والإقتصادية وغير ذلک.

فهو يقول أوّلًا انّ سـكان مكّـة يمكن أن يُقـال عنهم كلّهم انهم غرباء وأجانب عنها. لأنّ قبائل قريش الأصـلية التى كانت تسـكنها قد تفتتت وهاجرت إلى الخارج، بحيث لم يبق لها ذكر يعتـدّ به فى مكّة. على أنّ محيط مكّة وما جاوره مازال يوجد فيه البعض من تلك القبائل البدويـة على الأخص. وقد كانت توجد فى مكّة على أيام بيركهارت ثلاث اسـر قرشـية معروفة فقط، وكان يرأس احداها نائب الحرم. أمّا أكثر طبقات السـكان فقـد كانوا من أهالى اليمن وحضـرموت، وكان يليهم فى العـدد أبناء الهنود المسـتوطنين والمصـريين والسوريين والمغاربة والأتراک. وکان

۱- ۵۳ المرجع نفسه، ۲: ۲۷۵.

ص: ۲۷۵

هناک أیضاً مکیون من أصل إیرانی وتاتاری وبخاری وکردی. ومن کلّ بلد مسلم آخر تقریباً.

علی أنّ أقدم السلالات المکیّة، التی بقیت فی مکّة کذلک، هی سلالة الشرفاء الأصلیین، الذین ینتمون إلی الدوحتین الحسنیة والحسینیة، من أبناء الإمام علی بن أبی طالب علیه السلام، ثمّ یأتی بیرکهارت علی وصف أنواع الشرفاء فی داخل الحجاز وخارجه، ویقول انّ تقاسیم الشرفاء فی مکّة هی تقاسیم جمیلة مقبولة تقارب تقاسیم البدو فی شکلها، ولا سیما فی الوجه والعیون والأنف والأقنی (۱).

وبعد أن یصف لباس المکیین بالتفصیل، یتطرق إلی اقتناء الجواری الحبشیّات، ثمّ یصف حالة مکّة الإقتصادیة باسهاب.. ویعرّج إلی ذکر مایقترفه المکیّون، وهو آسف، من أنواع الفساد والفجور... وهو یسهب فی ذکر ذلک، علی أننا لا- نعرف مقدار الصحة فی کلامه.

علی أنه مع جمیع مایذکره من السیئات یشیر إلی الصفات الحسنة عند المکیین کذلک مثل السخاء والکرم، ومحبّة الغریب ومساعدته، والإمتناع عن السرقة والغشّ.

ویتطرّق بیرکهارت إلی الناحیة العلمیة فی مکّة، فیقول انّ العلم وتعلمه لا- یمکن أن یؤمل ازدهارهما فی مکان یفکر فیه الجمیع بالحصول علی الربح والمغنم أو الجنة.

وهو یعتقد انّ مکّة فی یومه ذاک لم تکن فی مستوی البلاد الإسلامیة الاخری، من هذهِ الناحیة، وحتی من ناحیة العلوم الدینیة. ویروی عن الفاسی المؤرخ انّ مکّة کان فیها إحدی عشرة مدرسة فی أیامه، بجانب عدد من الرباطات وغیرها.

بینما لم تکن توجد ولا مدرسة واحدة تُلقی فیها المحاضرات علی مایقول، ولیس فیها مکتبة عامة ملحقة بالحرم الشریف أیضاً. ومع عدم اهتمام المکیین بالکتب والتعلّم فانّ لغة مکّة، علی مایقول بیرکهارت ماتزال أکثر نقاء ورقة فی اللفظ والترکیب، من لغة

۱- ۵۴ للمزید من الإطلاع علی التفصیلات انظر المرجع السابق، ۲: ۲۷۵، ومابعدها.

ص: ۲۷۶

أی مکان آخر یتکلّم أهله العربیة فی العالم (۱).

فی أعقاب ذلک، یسلّط بیرکهارت الأضواء علی حکومة مکّة والشرفاء، إذ کانت مکّة والطائف وقنفذة وینبع، علی مایقول، تابعة لشریف مکّة، قبل أن یحتلها الوهابیون، والمصریون من بعدهم، فی أوائل القرن التاسع عشر.. وقد مدّد الشریف نفوذه إلی جدّة، لکنّها بقیت منفصلة عن ممتلکاته اسمیّاً؛ لأنّها کان یحکم فیها «باشا» ینتدب لحکمها من استانبول فیقسّم وارداتها مع الشریف. وکان الشریف یتربّع علی دست الحکم فی مکّة بالقوة عادة، أو بنفوذه الشخصی، وموافقة أسر الشرفاء القویة.

وبعد أن یأتی بیرکهارت علی تأریخ الکثیر من الشرفاء وأعمالهم، ولا سیما الشریف سرور والشریف غالب، یبدأ بوصف لباسهم ومواکبهم عند الخروج للصلاة وغیرها، ویذکر بالمناسبة انّ الوهابیین حینما احتلوا مکة أجبروا الشریف علی الخروج ماشیاً إلی المسجد الحرام فی أوقات الصلاة، لأنّ الرکوب والفخفخة لا یناسبان الخشوع والورع، الذی یجب أن یبدیه الحاج أو المصلی بجوار الکعبة (۲).

وبعد خوض مفصّل فی عادات الشرفاء واهتماماتهم.. ومایتسمون به من خصال کالاهتمام الزائد الذی یولونه للسخاء والضیافة والإیمان بالعقیدة الحقة.. فانّ بیرکهارت یعلّق انّ المکّیین یشککون کثیراً فی نزاهة الشرفاء واستقامتهم، ثمّ یذکر انّ القسم الأعظم من شرفاء مکة نفسها، وخاصة الشرفاء الحاکمین من ذوی زید، یحتمل جدّاً أن یکونوا من الزیدیة الذین یکثر أتباعهم فی الیمن، ولا سیما فی جبالصعدة، لکن الشرفاء یکذبون ذلک، ویتمسکون بالمذهب الشافعی الذی یتمذهب به سکان مکّة معظمهم، أمّا الشرفاء المقیمون فی الخارج فلا ینکرون ذلک (۳).

۱- ۵۵ یشیر الرحالة الهولندی هورغرونیه، الذی زار مکة عام ۱۸۸۴، إلی أنّ الکعبة تفتح فی أیام ۱۰ محرم الحرام، و ۲۷ رجب، و ۱۵ شعبان، وبعض أیام رمضان وفی أشهر الحج، لکنها قد تفتح فی أیام غیر هذه للأثریاء الغرباء الذین یدفعون مبالغ غیر قلیلة عن ذلک. یراجع المرجع السابق ۲: ۳۰۹.

۲- ۵۶ المرجع نفسه، ۲: ۲۷۸- ۲۷۹.

۳- ۵۷ المرجع نفسه، ۲: ۲۸۰.

ص: ۲۷۷

الحج مناسك.. وقوافل

وفى الجزء الثانى من رحلته، يخصص بيركهارت فصلًا كبيراً للحج ومناسكه وجميع مايختص به من شؤون. وأوّل مايبدأ به الاشارة إلى أنّ المسلمين قد قلّت حماستهم لتأدية الواجبات الدينية المفروضة عليهم، فى تلك الأيام، ومن جملتها الحج الذى أصبحت تكاليفه الباهظة على الكثيرين من المسلمين، تحول دون تجشمهم المصاعب من أجله. وصار قسمٌ كبير منهم ينيب غيره للحج عنه بالأجرة، إذا لم يترك الأمر بالكلية أو يماطل به.

ويشير بعد ذلك إلى أنّ عدداً غير يسير من المسلمين كانوا قد وصلوا إلى مكّة، قبل موعد الحج بثلاثة أو أربعة أشهر، لأنّ تقضية رمضان المبارك فى البلد المقدّس فيه كثير من الأجر والثواب. ثمّ يأخذ بوصف مواكب الحجاج وقوافلهم التى تأتى من البلاد الإسلامية المشهورة، ولا سيما سورية ومصر.

فيقول: إنّ موكب الحج القادم من سورية كان على الدوام من أقوى المواكب، منذ كان الخلفاء يصحبون الحجاج بأنفسهم من بغداد. ويبدأ الموكب الشامى فى العادة بالتحرك من الاستانة، فيجمع فى طريقه حجاج المدن والبلاد الأناضولية والسورية حتى يصل إلى دمشق الشام، حيث يمكث عدّة أسابيع. وفى خلال الطريق الممتدمن الاستانة إلى الشام كلّه تُؤخذ التدابير اللازمة للمحافظة على سلامة القوافل ومافيها من حجاج، وتصحب الموكب من بلدة إلى اخرى قوات مسلحة يجهزها الحكام المسؤولون.

وفى كل محطّة أو خان كان يجد الحجاج البرك والأحواض العامة من الماء، التى كانالسلاطين القدماء قد أنشأوها لراحتهم والعناية بهم. ويقابلون بمظاهر البهجة والفرح فى كلّ مكان ..

وكان الموكب الشامى على انتظام تام فىسيره وسائر شؤونه، فانّ باشا الشام أو منْ يُنيبه من ضباط كان يرأسه على الدوام، فيعطى الإشارة فى

ص: ۲۷۸

الحل والترحال بإطلاق الرصاص.

وتتقدّم الموكب فى الطريق ثلة من الخيّالة، كما تسير خلفه ثلّة اخرى لرعاية المتخلفين. ويجتمع فى ضمن الموكب الحجاج القادمون من المدن المختلفة فى جماعات تسير سويّة على طول الطريق.

ويتعاقد الحجاج عادة معَ أحد المقومين، وهو يتعهّد بتجهيز الدابة إلى الحاج، مع سائر مايحتاج إليه، خلال السفر، ولذلك يلاحظ كل عشرين أو ثلاثين حاجاً مع مقومهم الخاص، الذى يهيئ لهم الخيم، ويجهّز الخدم، فيوفر على الحجاج أتعاب السفر، ولا سيما بتحضيره شؤون الطعام والقهوة والماء وما أشبه لهم. ولقد كانت اجرة الحاج عند المقوّم فى ۱۸۱۴ مع اعاشته تبلغ مئة وخمسين ريالًا من دمشق إلى المدينة، وخمسين ريالًا من المدينة إلى مكّة (۱).

أمّا قوافل الحجاج المصريين وموكبهم فتسير على نفس النظام الذى تسير عليه القوافل السورية، لكنها نادراً ماتساويها فى العدد، لأنها تتألف من الحجاج المصريين فقط، إلى جنب الحرس العسكرى، ويكون طريقها على جانب أكبر من الخطر والمشقة، لأنّ الطريق الممتد على سواحل البحر الأحمر يمرّ من ديرات قبائل شرسة قويّة الشكيمة، كثيراً ماتحاول قطع الطريق على القوافل بالقوّة. وكان الموكب المصرى فى ۱۸۱۴ يتألف من الجند المرافق للمحمل (۲) وحاشيته مع بعض الموظفين الرسميين. لأنّ جميع الحجاج المصريين فضلوا الحج عن طريق السويس.

وفى ۱۸۱۶ رافق موكب الحج عدد من وجوه مصر وسراتها، وقد جاء أحدهم بمئة وعشرة جمال، لتحمل عفشه وحاشيته، مع ثمانى خيم كبيرة. ولابدّ من أن تكون نفقات سفره قد بلغت حوالى عشرة آلاف دينار، وكان مع الموكب أيضاً حوالى خمسمائة فلاح مع نسائهم من مصر السفلى.. والغريب انّ بيركهارت

۱- ۵۸ المرجع نفسه، ۲: ۲۸۳.

۲- ۵۹ المرجع نفسه، ۲: ۲۸۵.

ص: ۲۷۹

یقول انه شاهد معهم جماعة من البغايا والراقصات، وانّ خیم أولائی النسوة كانت أجمل خیم الموكب وأكثرها زينة وتزويقاً (۱).

ویقول بیرکهارت كذلك أنّ موكب الحج الإيرانی الذی كان يخرج من بغداد، فی سالف الأيام، فيأتی إلى مكّة عن طريق نجد، قد انقطع مجيئه حينما أوقف الوهابيون مجیء الموكب الشامی من سوریة. وبعد ان عقد عبد اللّه بن سعودصلحاً مع طوسون باشا (بن محمد علی) فی ۱۸۱۴، كان العدد القليل من الحجاج الإيرانيين القادمين عن طريق البر، قد عبروا من بغداد إلى الشام، وساروا مع الموكب الشامی بصحبة عكامين من بغداد.

ومن الجدير بالذكر، على مايقول بيركهارت، إنّ الإيرانيين لم يكن يسمح لهم على الدوام أن يأتوا إلى مكّة. فبعد أن اعيد بناء الحرم الشريف فی ۱۶۳۴ م أمر السلطان مراد الرابع بأن لا يُسمح لأیإيرانی من «شيعة علی» بتأدية الحج أو الدخول إلى بيت اللّه الحرام. فبقی التحريم سارياً عدّة سنوات، غير انّ المال الذی بذله الإيرانيون سرعان مافتح الطريق أمامهم إلى الكعبة وعرفات.

وقد توقف مجیء الموكب المغربی للحجاج مدّة سنين عديدة، وقد أصبح قدومهم على دون هدى أو انتظام. وكان من المعتاد أن يرأس الموكب قريب من أقرباء ملك مراكش، فيسير مسيرات بطيئة نحو تونس وطرابلس، ويجمع الحجاج فی طريقه من كل منطقة. ويسلك هذا الموكب من طرابلس الطريق الممتد على ساحل البحر إلى درنة، ومن هناك يسير مع الساحل المصری إلى القاهرة، عن طريق الاسكندرية. ولاـ يرافق هذا الموكب إلّاعدد قليل من الجند، لأنّ الحجاج يكونون مسلحين تسليحاً حسناً فی العادة.. ويقول بيركهارت؛ يوجد مع موكب الحجاج المغاربة عادة اناس من أهالی جزيرة جربا، الذين يعتقد أنهم من شيعة

۱- ۶۰ المرجع نفسه، ۲: ۲۸۶.

ص: ۲۸۰

الإمام على، كما يقول بيركهارت.

وكـان يأتى من اليمن موكبان للحـج عن طريق البر، من قبل، وكان أحـدهما يتحرك منصـعدة فيسـير فى المناطق الجبليـة إلى الطائف ومنها إلى مكّة. أمّا الموكب الثانى فقـد كان يتألف من حجّاج يمانيين، مع حجاج إيرانيين وهنود يصـلون فى العادة إلى موانئ اليمن. وقد أبطل هذا الحج فى ۱۸۰۳، بعد أن كان من المواكب الغنية بالسـلع المختلفة والبُن، وبعد أن كان يرأسه أئمة اليمن. وقد كان لهذا الموكب، كما كان لغيره، مكان خاص فى مكّة المكرمة ينزل فيه..

أمّا الحجـاج البـاقون فيأتون إلى مكّة عن طريق البحر من اليمن وجزر الهنـد الشـرقية، وهؤلاء هم مسـلمو الهنـد، وكشـمير، وكجران، والإيرانيون القادمون عن طريق الخليج والعرب من البصرة ومسقط وعمان وحضرموت.. فضلًا عن القادمين من سواحل مليندا وومومباسا الذين يطلق عليهم «السواحليون»، ويأتى مسلمو الحبشة وسائر بلاد العبيد بالطريق نفسها كذلك..

ويأخذ بيركهارت بوصف مناسك الحج بالتفصيل.. ويقدّر عدد الحجاج الذين وقفوا فى عرفات (سنة ۱۸۱۴) بسبعين ألف حاج. وقد كـان مخيم الحجاج هناك يبلغ طوله بين ثلاثـة وأربعـة أميال، وعرضه حوالى الميلين. وهو يقول فى هـذا الشأن أنّه ليس هناك، على وجه الأرض، بقعـة فى مثل هـذا الحجم الصـغير يقف عليها مثل هـذا العـدد من الناس، الـذين يتكلمون بهـذا العـدد الكبير من اللغات واللهجـات. ويقول كـذلك انه شخصـياً لاحـظ وجود أربعين لغـة بين الحجـاج، وأنه كان هناك عـدد آخر من اللغات الاخرى بطبيعة الحال.. (۱)

ونجـد لزاماً التنويه إلى أنّنا عزفنا عن ذكر الكثير من الملاحظات والمعلومات المهمـة، التى ذكرها بيركهارت، خشـية الاطالـة، مكتفين بالاحالة إلى مضانها للمستزيد.

۱- ۶۱ المرجع نفسه، ۲: ۲۸۹.

ص: ۲۸۱

الهوامش:

ص: ۲۸۲

ص: ۲۸۳

معجم ما كتب فى الحجّ والزيارة والمعالم المشرفة فى الحجاز (۸)

معجم ما كتب فى الحجّ والزيارة والمعالم المشرفة فى الحجاز (٨)

عبدالجبار الرفاعى

١٣١٨- ساختار شهرى مدينة ومحلات قبايل در دوره نبوى

عبدالعزيز عبداللّه بن إدريس

رسول جعفريان

ميقات حج: ع ١۶ (تابستان ١٣٧۵ ه)ص ١٠٢- ١٢١.

١٣١٩- السالك المحتاج الى معرفة مناسك الحاج

رضى الدين على بن موسى بن طاووس الحسينى الحلى ت ۶٧۴ ه.

١٣٢٠- سؤال وجواب پيرامون مسائل حج مطابق با فتواى سيد محمد رضا گلپايگانى (بالفارسية)

قم: دار القرآن الكريم، ط ١، ١٣۶٨ ش، ٩٩ص.

١٣٢١- سُبُل الحجّ فى مناسك الحجّ

عبداللّه بن محمد رضا شبر الحسينى ت ١٢۴٢ ه.

١٣٢٢- سُبُل الفجاج فى مواقف الحاج

باقر واعظ كجورى ت ١٣١٣ ه.

١٣٢٣- ۵۶ موشحة على طريقة السادة الوقائية فى تعظيم البيت

ص: ۲۸۵

والتشویق للکعبة، ومدح الرسول، وغیر ذلک

ظ: الذریعة ۱۲/ ۱۲۹.

۱۳۲۴- سخنی چند با حجّاج محترم

(بالفارسیة)

سلمان غفّاری

طهران: انتشارات همدمی، ط ۱، ۱۳۶۲ ش.

۱۳۲۵- سدنة الکعبة عبر التاریخ

الهدایة س ۱۱: ع ۱۲۹ (۷/ ۱۹۸۸ م)ص ۲۰- ۲۱.

۱۳۲۶- الأسرار فی ذکر الصلاة علی النبیّ المختار، الصلوات الطیبیة.

أحمد الطیب بن البشیر

بیروت: المکتبة الثقافیة، ۱۹۸۵ م، ۱۴۳ص.

۱۳۲۷- سر تحویل القبلة

اسامة أحمد محمد، المجاهد (القاهرة) ع ۱۱۲ (۳/ ۱۹۹۰ م)ص ۳۲- ۳۳.

۱۳۲۸- سرزمین عرفات

(بالفارسیة)

علی قاضی عسکر

میقات حج. س ۴: ع ۱۲ (تابستان ۱۳۷۴ ش)ص ۱۴۲- ۱۶۳.

۱۳۲۹- السعی المشکور فی الرد علی المذهب المأثور فی زیارة القبور

عبدالحی بن عبدالحلیم

(صنفه سنة ۱۲۹۴ ه).

ظ: الثقافة الإسلامیة فی الهند ۲۴۵.

۱۳۳۰- سعی هاجر «گزارش سفر حج»

(بالفارسیة)

شکوه میرزا دگی

طهران: ط ۱، ۱۳۵۶ ش، ۱۳۱ص، ۲۱ سم.

۱۳۳۱- سفر حج

(بالفارسیة)

مجموعة تحقیق مسائل الحجّ

طهران: شرکت انتشار، ط ۱، ۱۳۵۹ ش (نشریه، ۹).

۱۳۳۲- سفر حج

(بالفارسیة)

محمدصادق نجمی

قم: المؤلف، ط ١، ١٣٥٩ ش.

١٣٣٣- سفر الحرمين

(رحلة الى مكة والمدينة أيام

ص: ٢٨۶

عبدالحميد ١١٨٨- ١٢٠٣ ه، بالفارسية).

مجهول المؤلف

ظ: راجستان ١/ ٢۶٩، فهرستواره منزوى ١/ ٨٩.

١٣٣۴- سفر عشق

(مناسك حج)

مرضيه فاميل دردشتى

ميقات حج: ع ٢٣ (بهار ١٣٧٧ ش)ص ١٣٢- ١۵۴.

١٣٣۵- سفرنامه‌اى شيرين وپر ماجرا

على قاضى عسكر

ميقات حج: ع ١٩ (بهار ١٣٧۶ ش)ص ١۶۵- ١٨٧.

١٣٣۶- سفرنامه بيت اللّه

(بالفارسية)

ميرزا عليخان اعتماد السلطنة ت ١٢٨۵ ه

(شرح فيه رحلته الى الحج سنة ١٢۶٣ ه)

خ: الإمام الرضا عليه السلام، وقف ١٣٣۴.

ظ: الذريعة ١٢/ ١٨۶، استورى ١١۵۵، فهرستواره منزوى ١/ ١٠۵.

١٣٣٧- سفرنامه تشرف مكة

(بالفارسية)

مخبر السلطنة مهدى قلى خان هدايت ت ١٣٣۴ ه

طهران: ١٣٣٠ ش، ١٢٩ص، ٢١ سم.

١٣٣٨- سفرنامه حاج ميرزا مشترى بمكه

(منظوم، بالفارسية)

حسام الشعراء محمد ابراهيم مشترى خراسانى ت ١٣٠۵ ه.

طهران: ١٣٠٠ ه.

ظ: الذريعة ١٢/ ١٨٩.

١٣٣٩- سفرنامه حج

(رحلة من بادكوبه الى الحجاز والعودة من جدة الى طهران وذلك فى سنة ١٣١۶ ه، بالفارسية)

مجهول المؤلف

ظ: أشكورى ١۶/ ٣۴۵

فهرستواره منزوى ١/ ١٠۵.

١٣۴٠- سفرنامه حج

(رحلة رفيع الدين شاه أبو تراب فى سنة ٩٨٩- ٩٨٧ ه/ ٧٨-

ص: ٢٨٧

١٥٧٩ م الى الحج، بالفارسية)

أبو الفيض فيضى دكنى

(ت ١٠٠۴ ه/ ١۵٩۵ م)

ظ: استورى ١١۴١ (الرقم ١۵٩٠)، پانكيپور، ذيل ١/ ٧/ ١٩٩۵، فهرستواره منزوى ١/ ١٠۴.

١٣۴١- سفرنامه حج

(بالفارسية)

پادشاه خواجه بن رحمت اللّه خواجه المتخلص بنديم

ظ: فهرست مشترك باكستان ۶/ ٩۶۶، ١٠/ ۶۶، فهرستواره منزوى ١/ ١٠۵.

١٣۴٢- سفرنامه حج

(بالفارسية)

جواد مجابى

طهران: انتشارات موج، ١٣۵٢ ش، ٩٠ص.

١٣۴٣- سفرنامه حج

(بالفارسية)

عبداللّه دهش

طهراند ١٣۵٣ ش، ۶٠ص.

١٣۴۴- سفرنامه حج

(رحلة الى الحج بالفارسية)

على خانصدر اعظم أمين الدولة ظ: فهرستواره منزوى ١/ ١٠۴.

١٣۴۵- سفرنامه حج

(بالفارسية)

لطف اللّه الصافى الگلپايگانى

مطبوع

قم: دفتر انتشارات اسلامى، ط ١، ١٣۶۴ ش.

١٣۴۶- سفرنامه حج

(رحلة الى الحجاز عن طريق العراق وسورية فى سنة ١٣٢١ ه (١٩٠٣ م)، بالفارسية)

محمد حسن خان سرهندى مجددى

ظ: مشترك ٢/ ١۴٠٢ و ١٠/ ۶٧.

ترجمه‌ها ٣۶۴.

فهرستواره منزوى ١/ ١٠۴.

١٣۴٧- سفرنامه حج

(بالفارسية)

محمد حسين بن مهدى عشرت كلبن فراهانى

طهران: ١٣٤٢ ش.

١٣٤٨- سفرنامه حج

(بالفارسية)

حاجى محمد حسين خان بن بايرام

ص: ٢٨٨

على خان

ظ: استورى ١١۴٨.

فهرستواره منزوى ١/ ١٠۴.

١٣۴٩- سفرنامه حج

(رحلة الى مكة مع أخيه آقا محمد فى شهر رمضان سنة ١٣٠٧ ه، بالفارسية)

محمد حسين همدانى رضوى

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴٠٣٠، نشريه ۵/ ٣٧٨.

فهرستواره منزوى ١/ ١٠۵، ١٢۶.

١٣۵٠- سفرنامه حج

(بالفارسية)

محمد على بن محمد رضى بروجردى

ألفه سنة ١٢٧۶ ه.

١٣۵١- سفرنامه حج

(رحلة الى مكة والمدينة من سنة ١٢۵۴ ه الى ١٢۵۶ ه، بالفارسية)

نواب عظيم الدولة محمد مصطفى حسرتى شيفته دهلوى (ت ١٢٨۶ ه)

ظ: مشترك ١١/ ٧٧٠، استورى ٨٩۶، الذريعة ٩/ ٢٣٩ «ديوان حسرتى»، مشار مؤلفين ۶/ ٢٢۶ «وهو: ترغيب السالك للمؤلف»، فهرستواره منزوى ١/ ١٠۵.

١٣۵٢- سفرنامه حج

(بالفارسية)

محمد طالقانى

مطبوع

١٣۵٣- سفرنامه حج

(بالفارسية)

ناصر خسرو قباديانى

باهتمام: نادر وزين پور

طهران: انتشارات جيبى، ١٣۵٠ ش.

١٣۵۴- سفرنامه حج ١٢۶٠ قمرى

(بالفارسية)

محمد ولى ميرزا قاجار

تحقيق: رسول جعفريان

[د. م]: نشر مشعر، ط ١، ١٣٧٣ ش (مع: به سوى ام القرى، وغيره).

١٣۵۵- سفرنامه حج البيت/ سفرنامه مكة

(رحلة الی مکة، بالفارسیة)

ابراهیم بن درویش محمد کازرونی

[کان حیاً فی ۱۲۷۴ م (۱۳۳۴ ه)]

ظ: الذریعة ۱۲/ ۱۸۶،

ص: ۲۸۹

فهرستواره منزوى ۱/ ۱۰۵، ۱۲۶

۱۳۵۶- سفرنامه حج بيت اللّه الحرام

(بالفارسية)

على أكبر ميرزائى المتخلص بتجار

خرم‌آباد: ۱۳۴۲ ش، ۴۸ص.

۱۳۵۷- سفرنامه حج سال ۱۳۳۱ قمرى

(بالفارسية)

ميرزا على اصفهانى

تحقيق: رسول جعفريان

[د. م]: نشر مشعر، ط ۱، ۱۳۷۳ ش (مع: به سوى ام القرى، وغيره).

۱۳۵۸- سفرنامه حج: لحظه‌هاى غنيمت

(بالفارسية)

رضا بنده خدا

طهران: سازمان تبليغات اسلامى حوزه هنرى، ط ۱، ۱۳۷۵ ش، ۹۶ص.

۱۳۵۹- سفرنامه حج وارهنماى حجاج

(بالفارسية)

حسين ذو القدر شجاعى

طهران: ۱۳۳۴، ۷۶ص.

طهران: ۱۳۳۵ ش.

ظ: الذريعة ۱۲/ ۱۸۶.

۱۳۶۰- سفرنامه حجاز

(رحلة الى الحجاز فى أيام أمير حبيب اللّه خان، بالفارسية)

شاه بيگ خان ركن دربار كابل

ظ: مشار ۳/ ۳۰۲۰ «سفرنامه حافظ» مطبوع خطأ، فهرستواره منزوى ۱/ ۱۰۴.

۱۳۶۱- سفرنامه حجاز

(رحلة الى الحجاز، بالفارسية)

محمد حسين بن محمد على شهرستانى

(ت ۱۳۱۵ ه)

ظ: الذريعة ۱۲/ ۱۸۶.

فهرستواره منزوى ۱/ ۱۰۴.

۱۳۶۲- سفرنامه حجاز

(رحلة الى الحجاز ومكة والمدينة مع مولانا محمد إسحاق عن طريق البحر وذلك فى بداية سنة ۱۲۳۰ ه (۱۸۱۵ م)، بالفارسية)

هدايت على بن فضل على

ظ: فهرست مشترك ۱۰/ ۶۲.

فهرستواره منزوى ۱/ ۱۰۴.

ص: ۲۹۰

۱۳۶۳- سفرنامه حرمین شریفین

(بالفارسیهٔ)

حسین محیی الدین حاجی منشی

ظ: فهرستواره منزوی ۱/ ۱۰۵.

۱۳۶۴- سفرنامه حرمین شریفین

(بالفارسیهٔ)

محمد عرفان الدین... (قاضی)

ظ: فهرستواره منزوی ۱/ ۱۰۵.

۱۳۶۵- سفرنامه عتبات

(بالفارسیهٔ)

جلال بن محمد حسین جزایری شوشتری

(کان حیاً سنهٔ ۱۳۱۶ ه)

ظ: الذریعهٔ ۱۲/ ۱۸۷.

فهرستواره منزوی ۱/ ۱۱۴.

۱۳۶۶- سفرنامه عتبات

(رحلهٔ من همدان الی کربلا والنجف فی سنهٔ ۱۳۲۱ ه، بالفارسیهٔ)

حسین خان جامی مهاجرانی

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴۰۲۳.

دانشگاه ۱۴/ ۳۸۳۱.

فهرستواره منزوی ۱/ ۱۱۳.

۱۳۶۷- سفرنامه عتبات

(رحلهٔ الی العتبات فی سنهٔ ۱۳۲۹ ه، بالفارسیهٔ)

رضا خان تبیان الملک

ظ: الذریعهٔ ۱۲/ ۱۸۸.

سنا ۲/ ۱۴۴.

فهرستواره منزوی ۱/ ۱۱۳.

۱۳۶۸- سفرنامه عتبات

(رحلهٔ ناصر الدین شاه الی العتبات مع محمد حسین رئیس الکتّاب فی سنهٔ ۱۲۸۷ ه، بالفارسیهٔ)

محمّد حسین رئیس الکتّاب

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴۰۲۴.

راهنمای کتاب ۱۲/ ۱۸۱.

فهرستواره منزوی ۱/ ۱۱۳.

۱۳۶۹- سفرنامه عتبات

(رحلة الى العتبات بعد سنة ۱۲۵۹- ۱۲۶۰ ه بقليل، بالفارسية)

محمد ولى ميرزا قاجار نجفقلى

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴۰۲۴.

فهرستواره منزوى ۱/ ۱۱۴.

۱۳۷۰- سفرنامه عتبات

(رحلة الى العتبات من هرات وذلك فى بداية القرن الرابع عشر الهجرى، بالفارسية)

ص: ٢٩١

محمد عظيم خان قندهارى

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴٠٢۴.

مجلس ۹/ ۷۴.

فهرستواره منزوى ١/ ١١۴.

١٣٧١- سفرنامه عتبات

(رحلة الى العتبات من اصفهان فى سنة ١٣۴۴ ه، بالفارسية)

گلستانه محمد مؤرخ

ظ: اشكورى ١۶/ ٢۵١.

فهرستواره منزوى ١/ ١١۴.

١٣٧٢- سفرنامه عتبات

(بالفارسية)

ناصر الدين شاه قاجار

ظ: راهنماى كتاب ١٢/ ١٨١ «ملخص سفرنامه عتبات».

افشار ٣/ ٢٢ «الرقم ۴۴١».

فهرستواره منزوى ١/ ١١۴.

١٣٧٣- سفرنامه عتبات

(قطع شعريه فى وصف رحلة الى العتبات، بالفارسية)

مشترى خراسانى

(ت ١٣٠۵ ه)

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴٠٢۴ «سفرنامه منظوم عتبات».

دانشگاه ١۵/ ۴١٨۶.

مجلس ٨/ ١٨۵

فهرستواره منزوى ١/ ١١۴

١٣٧۴- سفرنامه عتبات ومكة

(بالفارسية)

سيف الدولة

مطبوع

ط: به سوى ام القرى ١۴

١٣٧۵- سفرنامه كربلا

(رحلة الى كربلاء فى سنة ١٢٩٩ ه، بالفارسية)

مجهول المؤلف

ظ: فيلم‌ها ٢/ ١٩١.

نشريه ۷/ ۱ «الرقم ۵».

فهرستواره منزوى ۱/ ۱۱۸.

۱۳۷۶- سفرنامه كربلا

(الوقائع اليومية لرحلة ناصر الدين شاه الى كربلا، بالفارسية)

ناصر الدين شاه

ظ: فهرستواره منزوى ۱/ ۱۱۸.

۱۳۷۷- سفرنامه مشهد

(رحلة ناصر الدين شاه الى مشهد مع القائد ميرزا ابراهيم سررشته دار فى سنة ۱۳۰۰ ه، بالفارسية)

ص: ٢٩٢

ابراهيم سر رشته دار

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴٠١٠ «سفرنامه» امين لشكر.

مشهد، فردوس ١٠۵ «سفرنامه ميرزا ابراهيم».

نشريه ٣/ ٩٣ «سفرنامه ايمن لشگر».

فهرستواره منزوى ١/ ١٢٣.

١٣٧٨- سفرنامه مشهد

(بالفارسية)

وكيل الملك ميرزا اسد اللّه منشى وزير مختار

ظ: فيلم‌ها ٢/ ٢٧۵.

فهرستواره ١/ ١٢۴.

١٣٧٩- سفرنامه مشهد

(رحلة الى مشهد فى سنة ١٣١۵ ه، بالفارسية)

رضا تيان الملك تبريزى

ظ: الذريعة ١٢/ ١٨٨ «سفرنامه».

فهرستواره منزوى ١/ ١٢٣.

١٣٨٠- سفرنامه مشهد

(رحلة من طهران الى مشهد «بداية المشروطية»، منظوم بالفارسية)

شفيع خان محرم تفرشى

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴٠٣۴ «سفرنامه منظوم (مشهد)».

الذريعة ١٩/ ٢٠٨ «مثنوى سفرنامه».

دانشگاه طهران ١١/ ٢٠۶٨،

فهرستواره منزوى ١/ ١٢٣.

١٣٨١- سفرنامه مشهد

(رحلة الى مشهد فى نهاية القرن الثالث عشر الهجرى، المتن باللغة الأورديه) مترجم الى الفارسية

صوبيدار بنى أحمد

ترجمه: سيد امتياز حسين

ظ: مشترك ١٠/ ۶٧.

كنج بخش «الرقم ٨١٢٧».

فهرستواره منزوى ١/ ١٢۴.

١٣٨٢- سفرنامه مشهد

(رحلة ناصر الدين شاه الى مشهد مع خادمه وطبيبه حكيم الممالك فى سنه ١٢٨٣ ه، بالفارسية)

على نقى حكيم الممالك

ظ: الذریعة ۱۲/ ۱۸۹، آستان قدس ۳/ ۱۳۴ «سفرنامه حکیم الممالک ۸۳- ۱۲۸۴ ه»، تبریز، دانشگاه، تسبیحی ۴۱ «سفرنامه

ص: ۲۹۳

ناصر الدين شاه به خراسان»، دانشگاه ۱۳/ ۳۱۴۵ «سفرنامه يا روزنامه»، مشهد، فردوسى ۱۰۵ «سفرنامه حكيم الممالك»، نشريه ۳/ ۹۳ «سفرنامه حكيم الممالك» فهرستواره منزوى ۱/ ۱۲۳.

۱۳۸۳- سفرنامه مشهد

(رحلة من اصفهان الى مشهد، منظوم بالفارسية)

محمد داود عشوح اصفهانى

(ت ۱۱۳۳ ه)

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴۰۳۳ «سفرنامه منظوم»، الذريعة ۱۹/ ۲۰۷ «مثنوى سفرنامه»، سپهسالار ۲/ ۵۹۵- ۵۹۸، فهرستواره منزوى ۱/ ۱۲۳.

۱۳۸۴- سفرنامه مشهد

(بالفارسية)

ناصر الدين شاه قاجار

ظ: مشار ۳/ ۳۰۳۰ «سفرنامه ناصر الدين شاه به مشهد»، نشريه ۵/ ۳۹۴ «سفرنامه ناصر الدين شاه»، فهرستواره منزوى ۱/ ۱۲۴.

۱۳۸۵- سفرنامه مكة

(رحلة الى مكة فى سنة ۱۲۸۸ ه، بالفارسية)

مجهول المؤلف

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴۰۳۲.

فيلمها ۱/ ۱۲۱.

ملى طهران ۲/ ۳۰۱.

فهرستواره منزوى ۱/ ۱۲۶.

۱۳۸۶- سفرنامه مكه

(رحلة الى مكة من طهران وذلك فى سنة ۱۲۹۶ ه، بالفارسية)

مجهول المؤلف

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴۰۳۲.

ملى طهران ۲/ ۳۹۹.

فهرستواره منزوى ۱/ ۱۲۶.

۱۳۸۷- سفرنامه مكه

(رحلة الى مكة فى سنة ۱۲۶۱ ه، بالفارسية)

مجهول المؤلف

ظ: ملک ۳/ ۴۶۵.

فهرستواره منزوى ۱/ ۱۲۶.

۱۳۸۸- سفرنامه مكه

(رحلة الى مكة والمدينة مروراً بكربلاء فى سنة ۱۳۰۹ ه، بالفارسية)

مجهول المؤلف

ص: ٢٩۴

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴۰۳۲.

ادبيات حكمت طهران ٢٠.

فهرستواره منزوى ١/ ١٢٧.

١٣٨٩- سفرنامه مكه

(رحلة الى مكة من طريق مشهد فى سنة ١٣١٩ ه، بالفارسية)

مجهول المؤلف

ظ: چند نسخه خطى ١/ ١٠۵.

فهرستواره منزوى ١/ ١٢٧.

١٣٩٠- سفرنامه مكه

(بالفارسية)

ظ: آشنايى با چند نسخه خطى ١٠۵.

١٣٩١- سفرنامه مكه

(بالفارسية)

خ: المرعشى فى قم برقم ۶٣٨٨.

١٣٩٢- سفرنامه مكه

(بالفارسية)

مُهدى إلى ناصر الدين شاه سنة ١٢٩٧ ه.

خ: ملى فى طهران برقم ٨۶۵ ف.

ظ: به سوى ام القرى ١۴- ١۵.

العرب س ٣٢: ج ١، ٢ (٧، ٨/ ١۴١٧ ه- ١١، ١٢/ ١٩٩۶ م)ص ٣٢.

١٣٩٣- سفرنامه مكه/ سفرنامه منظوم

(رحلة الى مكة والعتبات نظمها باسم محمد شاه قاجار، بالفارسية)

ميرزا جلاير

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴٠٣٣.

الذريعة ١٩/ ٢٠٧ «مثنوى سفرنامه مكه».

ملى طهران ٢/ ٣٧۴.

فهرستواره منزوى ١/ ١٢۵ و ١٢٧.

١٣٩۴- سفرنامه مكه

(رحلة الى مكة فى النصف الأول من القرن ١۴ ه، بالفارسية)

داوود وزير وظايف

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴٠٣٠.

آستان قدس ٧/ ١٢٣.

دو کتابخانه مشهد ۸۴۴.

آستان قدس (الفبائی) ۳۰۸ (سفرنامه).

فهرستواره منزوی ۱/ ۱۲۶.

۱۳۹۵- سفرنامه مکه

دلیل الأنام فی سبیل زیارة بیت اللّه الحرام والقدس الشریف ومدینة

ص: ٢٩٥

السلام

(بالفارسية)

سلطان مراد حسام السلطنة بن عباس ميرزا (١٢٣٣- ١٣٠٠ ه)

اعداد: رسول جعفريان

طهران: نشر مشعر، ط ١، ١٣٧۴ ش، ٣۶٠ص، ٢۴ سم.

ميقات حج. س ۴: ع ١٢ (تابستان ١٣٧۴ ش)ص ١٩٧- ١٩٩.

١٣٩۶- سفرنامه مكه/ سفرنامه منظوم

(رحلة الى مكة، منظومة بحدود ١٣٠٠ بيت، بالفارسية)

زوجة ميرزا خليل رقم نويس دربارصفوى

خ: جامعة طهران برقم ٢۵٩١، الأوراق ٧۶۴- ٧٧٩.

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴٠٣۴.

الذريعة ١٩/ ٢٠٧.

افشار ٣/ ٢۴ «الرقم ۴٩١، مثنوى سفرنامه ومجازيه».

دانشگاه طهران ٩/ ١۴٠۶ «سفرنامه زوجه ...».

فهرستواره منزوى ١/ ١٢۵ و ١٢٧.

١٣٩٧- سفرنامه مكه

(رحلة الى مكة، بالفارسية)

شهزاده خانم دختر فرهاد ميرزا همسر نصير الدولة

ميقات حج: ع ١٧ (پاييز ١٣٧۵ ش)ص ۵٧- ١١٧ (رسول جعفريان).

ظ: شنا ٢/ ١٧٢.

نشريه ٧/ ١٧٩ (؟).

فهرستواره منزوى ١/ ١٢۵.

١٣٩٨- سفرنامه مكه

(رحلة الى مكة فى سنة ١١٢٩ ه، بالفارسية)

ضياء الدين آل كيوان قارى

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴٠٣١.

مجلس ١٠/ ١٣۶۵ «سفرنامه حج».

فهرستواره منزوى ١/ ١٢۴.

١٣٩٩- سفرنامه مكه

(بالفارسية)

عبدالحسين خان افشار

ظ: به سوى ام القرى ١۵.

۱۴۰۰- سفرنامه مکه

(بالفارسیهٔ)

ص: ٢٩٦

أمین الدولة علی بن مجد الملک محمد، ت ١٣٢٢ ه.

طهران: ١٣٢٨ ش، ١٩٩ص، ٢۴ سم.

ظ: الذریعة ١٢/ ١٨٩.

١۴٠١- سفرنامه مکه

(رحلة الی مکة فی سنة ١٢۶٣ ه، بالفارسیة)

علی خان اعتماد السلطنة

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴٠٣١، الذریعة ١٢/ ١٨۶ «سفرنامه بیت اللّه»، آستان قدس ٣/ ٩٠، تبریز ١/ ١۶١، آستان قدس، الفبایی ٣٠٨ «سفرنامه علی خان ...»، فهرستواره منزوی ١/ ١٢۴.

١۴٠٢- سفرنامه مکه

(بالفارسیة)

علی خان حاجب الدولة

ظ: به سوی ام القری ١۴.

١۴٠٣- سفرنامه مکه

(رحلة الی مکة، بالفارسیة)

علی خان والی خوزستان

ظ: فهرستواره منزوی ١/ ١٢۵.

١۴٠۴- سفرنامه مکه

(رحلة الی مکة فی سنة ١٣٢۵ ه، بالفارسیة)

علیصدر الذاکرین تفرش تهرانی

ظ: الذریعة ١٢/ ١٨٩.

فهرستواره منزوی ١/ ١٢۵.

١۴٠۵- سفرنامه مکه/ هدایت السبیل وکفایة الدلیل

(رحلة الی مکة فی سنة ١٢٧٢ ه، بالفارسیة)

فرهاد میرزا قاجار (ت ١٣٠۵ ه)

(مطبوع)

خ: مجلس الشوری الثانی بطهران برقم ١٢٢۵

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴٠۵۶، الذریعة ١٢/ ١٨٩ «سفرنامه مکه» و ٢۵/ ١٧٧، استوری ١١۵٧ «الرقم ١۶٢۴»، برگل ٢/ ٨۶٣، ٨۶۴، مشار ۵/ ۵۴۶٠ «طبعة واحدة»، مشار مؤلفین ۴/ ٨٢٠، آستان قدس ٣/ ١۵۵، فیلمها ١/ ١٢١، ملی تبریز ١/ ١٨۴، نشریه ٣/ ١۴١، ٢۵٢، آصفیه هند ٣/ ٣۵٠ «الرقم: ٩۶»، فهرستواره منزوی ١/ ١٢۵ و ١۵٧.

ص: ۲۹۷

۱۴۰۶- سفرنامه مکه

(رحلة الی مکة فی سنة ۱۳۴۸ ه، بالفارسیة)

لطفعلی اعلایی

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴۰۳۱، آستان قدس ۷/ ۱۲۴، آستان قدس «الفبائی» ۳۰۸ «سفرنامه»، فهرستواره منزوی ۱/ ۱۲۴.

۱۴۰۷- سفرنامه مکه

(بالفارسیة)

محمد بن أسماعیل الشهیر بقیری

خ: مسجد أعظم برقم ۲۹۴۷.

ظ: فهرستواره منزوی ۱/ ۱۲۵.

۱۴۰۸- سفرنامه مکه

(رحلة الی مکة، وفیها مقطوعات شعریة فی وصف العتبات المقدسة، بالفارسیة)

محمد إبراهیم مشتری خراسان

(ت ۱۳۰۵ ه)

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴۰۳۴ (سفرنامه منظوم)، الذریعة ۱۲/ ۱۸۹ (سفرنامه حاج میرزا مشتری به مکـة) و ۱۹/ ۲۰۸ (سفرنامه مکه) به نظم، مشار ۳/ ۳۰۲۷ (سفرنامه حاج میرزا مشتری به مکه)، آستان قدس ۷/ ۵۱۱ (ضمن دیوانه)، جامعة طهران ۱۲/ ۲۷۸۸ رقم ۳۸۰۶ (سفرنامه) و ۱۵/ ۴۱۸۶ رقم ۵۲۶۳، ملك ۳/ ۴۶۶ (سفرنامه مکه)، مجلس ۳/ ۴۱۵، فهرستواره منزوی ۱/ ۱۲۶.

۱۴۰۹- سفرنامه مکه

(رحلة الی مکة من طریق رشت وذلك فی سنة ۱۲۷۹ ه، بالفارسیة)

سیف الدولة سلطان محمد بن فتحعلی شاه قاجار

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴۰۳۱، ملی طهران ۲/ ۲۸۲، فهرستواره منزوی ۱/ ۱۲۵.

۱۴۱۰- سفرنامه مکه

(بالفارسیة)

محمد تاجر طهرانی

خ: المرعشی فی قم برقم ۹۰۰۸.

۱۴۱۱- سفرنامه مکه

(بالفارسیة)

محمد رضا بن عبدالجلیل حسنی حسینی طباطبائی تبریزی

ص: ٢٩٨

خ: ملك فى طهران برقم ٢٣٥٧.

ظ: فهرست المكتبة ٣/ ۴۶۵، فهرستواره منزوى ١/ ١٢۵.

١۴١٢- سفرنامه مكه

(بالفارسية)

محمد على فراهانى

خ: مجلس الشورى فى طهران برقم ٢٣١٠.

ظ: فهرست المجلس ۶/ ٢۶٨، فهرستواره منزوى ١/ ١٢۵.

١۴١٣- سفرنامه مكه/ هدايت السبيل

(رحلة الى مكة، بالفارسية)

محمد على منشى

(ابن فتحعلى شاه)

ظ: فيلم‌ها ١/ ١٢١، نسخه‌ها ۶/ ۴٠۵۶، الذريعة ٢۵/ ١٧٧، فهرستواره منزوى ١/ ١٢٧ و ١۵٧.

١۴١۴- سفرنامه مكه

(رحلة الى مكة فى سنة ١٣٢١ ه، بالفارسية)

مدير الدولة

خ: ملك بطهران برقم ٣٨٩٩

ظ: ملك ٣/ ۴۶۶، فهرستواره منزوى ١/ ١٢۶.

١۴١۵- سفرنامه مكه

نائب الصدر الشيرازى

طبع فى بمبى

ظ: الذريعة ١٢/ ١٩٠.

١۴١۶- سفرنامه مكه ومدينه وكربلا

(بالفارسية)

خ: مكتبة إمام الجمعة فى كرمان برقم ٣٩٣.

ظ: العرب. س ٣٢: ج ١، ٢ (٧، ٨/ ١۴١٧ ه/ ١١، ١٢/ ١٩٩۶ م)ص ٣٢.

١۴١٧- سفرنامه ناصر خسرو

حج در آينه سفرنامه‌ها

(بالفارسية)

حسن اسلامى

ميقات حج س ٢: ع ۵ (پائيز ١٣٧٢ ش)ص ٢٣۵- ٢۵۴.

١۴١٨- سفرنامه‌هاى حج در ادب عربى (سر مقاله)

ميقات حج: ع ١٧ (پاييز ١٣٧۵ ش)ص ۵- ٢٠.

۱۴۱۹- سفری به دیار معبود

ثریا قدك پور

ص: ٢٩٩

ميقات حج: ع ١٧ (پاييز ١٣٧٥ ش)ص ٢٠٤- ٢١٨.

١٤٢٠- سفينة الأدعية والزيارات

بعض المعاصرين

ظ: الذريعة ١٢/ ١٩٣، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيتصلوات اللَّه عليهم ٩/ ٥٢٥.

١٤٢١- سكان المدينة المنورة

محمد شوقى بن إبراهيم مكى

الرياض: دار العلوم، ١٤٠٥ ه، ٢٤٣ص، ٢١ سم.

١٤٢٢- السلاح والعدة فى تاريخ جدة

عبدالقادر بن أحمد بن محمد بن فرج الشافعى الخطيب ت ١٠١٠ ه.

خ: الحرم المكى برقم ٢٨.

١٤٢٣- السلام عليكم يا سيدى رسول اللَّه

حامد الجوهرى

الهداية س ١٢: ع ١٣٣ (١٠/ ١٩٨٨ م)ص ٢٠- ٢٥.

١٤٢٤- السلام عليك يا رسول اللَّه

محمد عبده يمانى

الإسلام وطن س ۴: ع ۴٧ (٢/ ١٩٩١ م)ص ١۶- ١٧.

١۴٢۵- سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى

(يشتمل المجلد الرابع منه على أشراف مكة المكرمة إلى وفاة المؤلف)

عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامى المكى (١٠۴٩- ١١١١ ه)

قدم له: محب الدين الخطيب

القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٨٠ ه، ۴ مج (يشتهر هذا الكتاب باسم:

تاريخ العصامى).

١۴٢۶- السمهودى أشهر مؤرخى المدينة

حمد الجاسر

العرب (الرياض). س ٧: ع ٣ (٩/ ١٣٩٢ ه/ ١١/ ١٩٧٢ م)ص ١۶١- ١٧٨.

١۴٢٧- سندى از يك حج نيابتى

جمال الدين ترابى طباطبائى

ميقات حج: ع ٢٣ (بهار ١٣٧٧ ش)ص ۶٩- ٧۴.

١۴٢٨- السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات

ص: ٣٠٠

محمد عبدالسلام خضر الشقيرى

بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٠ م، ٤٣٩ص.

١٤٢٩- السنة والحج المبرور

معوض عوض إبراهيم

الأزهر (القاهرة) س ٦١: ع ١٢ (٧/ ١٩٨٩ م)ص ١٣٢٧- ١٣٣٠.

١٤٣٠- سهولة الحج فى عهد الأمن والإصلاح

المنهل (جدة) مج ٢: ج ٨ (٧/ ١٣٥٧ ه/ ٩/ ١٩٣٨)ص ٢٧.

١٤٣١- سوانح سفر الحجاز

(رحلة الى الحجاز، بالفارسية)

مجهول المؤلف

ظ: استورى ١٦١ برقم ٢٠/ ١٦٣١، فهرستواره منزوى ١/ ١٣٤.

١٤٣٢- سوژه‌هاى سخن در مكه ومدينه

(بالفارسية)

طهران: نشر مشعر، ط ١، ١٣٧٢ ش، ١١٥ص، ٢٤ سم.

١٤٣٣- سوغات حج

(بالفارسية)

كاظم أرفع

طهران: تربت، ط ١، ١٣٧٥ ش، ۶۴ص، ٢١ سم.

١٤٣٤- سياحتى الى الحجاز

غريب بن عجيب الهاشمى

القاهرة: ١٩١٥ م، ٤٥٧ص.

١٤٣٥- السيدة زبيدة ودورها السياسى والعمرانى فى مكة والمدينة

ملك محمد محمد الخياط

مكة المكرمة، جامعة أمّ القرى، كلية الشريعة، ١٩٨٢ م، ٢٥٧ص (ماجستير).

١٤٣۶- سيرة الرسول فى مكة كما بدت فى شعر بعض معاصريه

معيد خان

الرسالة الإسلامية (بغداد) ع ۴۶

(١٣٩٢ ه)ص ١٠- ١٨.

ع ۴٨ و ۴٩ (١٣٩٢ ه)ص ١٨- ٣٠ م.

١٤٣٧- سيرة عن الحرمين

إبراهيم عبده

طُبع بالقاهرة عام ١٣٨٠ ه.

ظ: المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴۷۵

ص: ٣٠١

(٣- ٤/ ١٤١٠ ه/ ١٠- ١١/ ١٩٨٩ م)ص ٢٠۶.

١۴٣٨- سيرة من الحرمين

محمد السنوسى

المنهل (جدة) مج ٢١: ج ٩ (١١/ ١٣٨٠ ه/ ۴/ ١٩۶١ م)ص ۶٣۴- ۶٣۶.

١۴٣٩- سيرى در اماكن سرزمين وحى

(بالفارسية)

على أكبر حسنى

طهران: نشر مشعر، ط ١، ١٣٧١ ش، ١٣۶ص، ٢١ سم.

١۴۴٠- سيرى در مدينه، سفرى به مكه

(بالفارسية)

أحمد محفوظى

زائر س ١: ع ٢ (ارديبهشت ١٣٧٣ ش)ص ١۵- ٢٢.

١۴۴١- سيرى در وادى عشق

(تعريف بمكة المكرمة والمدينة المنورة، بالفارسية)

محمد مهدى شمس الدين

قم: انتشارات شفق، ط ١، ١٣٧٣ ه، ١۶٨ص، ٢١ سم.

١۴۴٢- سيرى كوتاه در سفرنامه‌هاى حج

(بالفارسية)

محمد شهرى برآبادى

مشكوة ع ٢۵ (زمستان ١٣۶٨ ش)،ص ١٨٢- ٢٠٢.

١۴۴٣- سيماى حج در سال ١٣٧٠ ش

(تقرير عن نشاط بعثة الولى الفقيه فى الحج لسنة ١٣٧٠ ش، بالفارسية)

مرتضى سرهنگى، وعبداللَّه گيويان، وهدايت اللَّه بهبودى

طهران: حوزه نمايندگى ولى فقيه در امور حج وزيارت، ط ١، ١٣٧١ ش، ٣٩۶ص، تصاوير.

١۴۴۴- السيول فى منطقة مكة المكرمة

أحمد سعيد حديد

المجلة التاريخية المصرية ع ٣ (١٩٧۴ م)ص ٣۴٢- ٣۶٢.

١۴۴۵- الشؤون الاقتصادية والمالية فى حياة الدولة العربية الاسلامية الأولى

ص: ۳۰۲

الحبیب الجنحانی

قضایا عربیهٔ س ۱۰: ع ۲ (۲/ ۱۹۸۳ م)،ص ۱۰۹- ۱۳۹.

۱۴۴۶- شؤون الحرمین الشریفین فی العهد العثمانی: فی ضوء الوثائق الترکیهٔ العثمانیهٔ

محمد عبد اللطیف هریدی

القاهرهٔ: دار الزهراء للنشر، ط ۱، ۱۹۸۹، ۱۶۳ص.

۱۴۴۷- شارع النجاهٔ فی حجّهٔ الوداع

أحمد بن علی المقریزی ت ۸۴۵ ه ط هدیهٔ العارفین ۱/ ۱۲۷، معجم ما ألّف عن رسول اللّه (ص) ۲۴۵.

۱۴۴۸- شاهد المشاهد

(یعنی مراقد الأئمهٔ (ع) فی ذکر شرفها وتفاصیل زیاراتها الصحیحهٔ وتواریخها المعتبرهٔ.)

هبهٔ الدین الشهرستانی

ظ: الذریعهٔ ۱۳/ ۱۵، معجم ما کتب عن الرسول وأهل البیتصلوات اللّه علیهم ۹/ ۵۳۵.

۱۴۴۹- شبهای مکّه: سر گذشت سفر من

(بالفارسیهٔ)

حسن أبطحی

مشهد: انتشارات کانون بحث وانتقاد دینی، ط ۱، ۱۴۰۴ ه، ۴۶۹ص، ۲ ج، ۲۴ سم.

۱۴۵۰- شبه جزیرهٔ العرب: الحجاز

محمود شاکر

دمشق: المکتب الاسلامی، ط ۱، ۱۹۷۷ م، ۲۰۱ص ۲۱ سم.

۱۴۵۱- الشجرهٔ النبویهٔ فی بطون قریش وقبائلها

الدجانی

طبع فی مصر.

ظ معجم المطبوعات لسرکیس ۸۶۶.

۱۴۵۲- شخصیات من الحرمین الشریفین (۷)

ام المؤمنین خدیجهٔ الکبری

محمد سلیمان

میقات الحج: ع ۹ (۱۴۱۹ ه)ص ۱۲۳- ۱۴۱.

۱۴۵۳- شخصیات من الحرمین الشریفین (۸)

عمار بن یاسر

محسن الأسدی

ص: ٣٠٣

ميقات الحج: ع ١٠ (١٤١٩ ه)ص ٢٠٩- ٢٣٣.

١٤٥٤- شدّ الأبواب فى سدّ الأبواب فى المسجد النبوى

جلال الدين السيوطى ت ٩١١ ه

خ: المكتبة المحمدية برقم ٩٧ مجاميع.

برلين ٩٧٥٦/ ٢١.

جامعة الرياض فيلم ٩٥.

طبع فى القاهرة: بضمن الحاوى للفتاوى ٢/ ١٠٢ ظ كشف الظنون ١٠٢٨، حسن المحاضرة ١/ ٣٤٢، هدية العارفين ١/ ٥٤٠.

١٤٥٥- شد الرحال إلى مسجد الرسول: القبر الشريف أم المسجد الشريف أيّهما له النية الاولى؟ عند القبر وفى المسجد مشاهد مترابطة وذكريات متآلفة:

كمال أحمد عون

منبر الاسلام (القاهرة) س ٤٨:

ع ١٢ (٧/ ١٩٩٠) (١٢/ ١٤١٠ ه)

١٤٥٦- شرافت كعبه وبرترى آن بر بيت المقدس (بالفارسية)

هادى امينى، و محسن آخوندى

ميقات حج س ٢: ع ۴ (تابستان ١٣٧٢ ش)ص ١٥٣- ١۶۴.

١٤٥٧- شرح حديث ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنّة ومنبرى على حوضى.

من المحتمل انه: لصدر الدين الشيرازى

ظ الذريعة ١٣/ ٢٠۶.

١٤٥٨- شرح دعاء عرفة

محمد على فاضل

خ: المكتبة الرضوية بر قم ۶٧۴۶.

١٤٥٩- شرح زيارت جامعه كبيره (بالفارسيه)

محمد الحسينى الشبسترى

المشهور بوحيدى

طهران: مصطفوى، ١٣٣٣ ش، ٢٢٢ص، ٢١ سم.

١٤٦٠- شرح زيارت جامعه كبيره (بالفارسية)

محمد هادى شيخ الإسلامى (فخر المحققين الشيرازى) تحقيق: محمد جواد الطبسى الحائرى

مشهد: مكتبة الطبسى الحائرى

ص: ٣٠٤

١۴۶١- شرح الزيارة

محمد الشهير بلايذ بن ناصر بن حسين الصيقل آل عيسى (١٢۴۵- ١٣٢۶ ه)

ظ: ماضى النجف وحاضرها ٣/ ۵٢٣، معارف الرجال ٢/ ٣٨١، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيتصلوات اللّه عليهم ۵/ ۵۴٣.

١۴۶٢- شرح الزيارة الجامعة

(شرح مختصر لهذه الزيارة المروية عن الإمام الهادى عليه السلام)

معين الدين أشرف بن محمدصادق الحسينى

ظ: معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيتصلوات اللّه عليهم ٩/ ۵۴۴.

١۴۶٣- شرح الزيارة الجامعة

على نقى بن حسين المعروف بالحاج آغا بن السيد المجاهد الطباطبائى الحائرى ت ١٢٨٩ ه.

ظ: الذريعة ١٣/ ٣٠۶، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت عليهم السلام ٩/ ۵۴۴.

١۴۶۴- شرح الزيارة الجامعة

محمد بن عبد الكريم الطباطبائى البروجردى

ظ: الذريعة ١٣/ ٣٠۶، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيتصلوات اللّه عليهم ٩/ ۵۴۴.

١۴۶۵- شرح الزيارة الجامعة

بهاء الدين محمد بن محمد باقر الحسينى النائينى المختارى، ت ١١٣۵ ه.

ظ: الذريعة ١٣/ ٣٠۶، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت عليهم السلام ٩/ ۵۴۴.

١۴۶۶- شرح الزيارة الجامعة

محمد تقى بن مقصود على الاصفهانى المجلسى ت ١٠٧٠ ه

ظ: الذريعة ١٣/ ٣٠۵، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيتصلوات اللّه عليهم ٩/ ۵۴۴- ۵۴۵.

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحیم

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابِذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخَرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَةِ

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شـَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.